العراك بين المماليك والعثمانيين الأتراك

مع رحلة الأمير يشبك من مهدي الدوادار

لمحمد بن محمود الحلبي الملقب بابن أجا
المتوفى سنة ٨٨١ هـ

صنعة
محمد أحمد دهمان

دار الفكر

بسم الله الرحمن الرحيم

العراق بين المماليك والعثمانيين الأتراك

مع رحلة الأمير يشبك من مهدي الدوادار

الكتاب ٧١٦
الطبعة الأولى ١٤٠٦ هـ = ١٩٨٦ م
(١٥٠٠ نسخة)

سورية - دمشق - شارع سعد الله الجابري - ص.ب (٩٦٢) - س.ت ٢٧٥٤
هاتف ٤١-٢١١٠ ، ٢١١١٦٦ - برقياً : فكر - تلكس Tx FKR 411745 Sy

الصف التصويري : على أجهزة C. T. T. السويسرية
الإنشاء (أوفست) : في المطبعة العلمية بدمشق

المقدمة

موضوع هذا الكتاب وصف رحلة لحملة عسكرية استمرت من سنة ٨٧٥ هـ وحتى ٨٧٧ هـ ، ابتدأت من القاهرة وانتهت إلى بلاد الإمارة الدلغادرية التي كانت تقوم على ما يسمى (بالثغور والعواصم) .

وقد نجحت هذه الحملة نجاحاً باهراً ، فكان انتصارها بعد إخفاق ثلاث حملات قبلها له روعته ومكانته ، وكانت جديرة بأن تدون حوادثها في كتاب مستقل ، وأن تقام بناية رائعة ذكرى لهذا الانتصار الباهر للدولة المملوكية على الإمارة الدلغادرية .

وهكذا كان ، فقد أنشأ نائب الشام الأمير برقوق في أعلى جبل قاسيون ـ المطل على مدينة دمشق ـ قبة ذكرى لهذا الانتصار ، بقي بعض آثارها إلى سنة ١٩٤٢ م في عصرنا هذا ، وعرفت طوال خمسة قرون ونصف بقبة النصر .

وقد ألف شمس الدين محمد بن محمود الحلبي الشهير بابن أجا قاضي الجيش في هذه الحملة كتاباً ذكر فيه تفصيلات ذات بال عن رحلة الجيش المملوكي الأخيرة وانتصاره في محاربة (شاه سوار) صاحب الإمارة الدلغادرية ، وهو هذا الكتاب الذي نقدمه إلى القراء .

شعرت الحكومات المجاورة لبلاد الشام بضعف حكومة المماليك بعد هذه الحملات الأربع على الإمارة الدلغادرية الصغيرة ، فطمعت في الاستيلاء على بعض البلاد الداخلة في حوزتها .

فلم تكد تفرح بلاد الشام ومصر بانتهاء هذه الحروب ، حتى فاجأ الحدود الشامية حسن بك الطويل ملك العراقين ، واستولى على بعضها ، فاضطرت الدولة لإرسال جيش خاص طرد جنود حسن الطويل عن حدود البلاد .

وتلا ذلك تجهيز جيش سادس لتأديب سيف أمير عرب آل فضل ، لقتله أزدمر نائب حماة ، ففر المذكور ودخل حدود مملكة يعقوب بن حسن الطويل ، فطارده الجيش المملوكي ، واجتاز حدود مملكة الطويل ، واتخذ ذلك ذريعة لمحاصرة مدينة الرُّها طمعاً في الاستيلاء عليها ، فحصلت مع الحامية التي فيها معركة أبيد فيها أكثر الجيش المملوكي ، وأسر قائده يَشْبَك الدوادار ، وهو الذي كانت الدولة تعتز بانتصاراته ، وأعدم فيها بعد أيام .

ثم أعقب ذلك ثورة أخرى في بلاد الإمارة الدلغادرية ، فإن السلطان محمداً الفاتح كان يُمِدُّ شاه سوار خفية ، فلما انهزمت جيوش سوار وقبض عليه وأعدم في القاهرة ، تظاهر بالعدوان ، ودفع علي دولات أخاشاه سوار إلى إشهار الثورة والعصيان على المماليك ، فعادت الدولة المملوكية تجهز الجيش تلو الجيش حتى قضت على هذه الثورة أيضاً .

ثم برز السلطان العثماني بايزيد إلى الميدان ، وتظاهر بالعداء لدولة مصر والشام ، فكانت بين الجيشين معارك عديدة كان النصر في أكثرها حليف دولة المماليك ، ثم عقد الصلح بين هاتين الدولتين[1] . وقد أنهكت هذه الحروب المتتالية

---

(١) قامت في بلاد الأناضول ـ تركيا حالياً ـ دولة آل عثمان ، وقد تعددت تسميات المماليك لها : دولة الروم ـ أبناء عثمان ـ التركمان . ذلك أن أصلهم قبائل تركمانية نصف متحضرة سكنت بلاد الروم ، بينما احتكر المماليك كلمة « الترك » لأنفسهم .
وقد حكم المماليك بلاد الشام ومصر ، وهم أنماط من أجناس شتى : ترك ، جركس ، روم ، سلاف ، تتار ، تركمان ، ولم يكن في جيوشهم أحد من العرب حتى ولا من أبناء بلاد الشام =

الدولة المملوكية وأفقرتها وأفقدتها أكثر جيشها مع عدد كبير من الأمراء والضباط ، فكانت إرهاصاً بانقراضها واستيلاء الدولة العثمانية عليها سنة ٩٢٣ هـ ـ ١٥١٧ م بعد تسلم السلطان سليم الأول عرش الدولة العثمانية .

ولما كانت أخبار هذه الحوادث متفرقة منثورة في كتب التاريخ ، فقد رأيتُ جمعها وتصنيفها وإضافتها إلى رحلة (شمس الدين محمد بن محمود بن أجا الحلبي) بكتاب سميته (العراك بين المماليك والعثمانيين الأتراك) .

وقد حافظت في هذه النصوص على أسلوبها الذي وردت فيه مع بعض التهذيب ، ذلك أن مؤرخيها ممن عاصروا تلك الأحداث ، وأسلوبها هو صورة لذلك العصر .

وبذلك يرى القارئ نصوصاً متسلسلة عن حوادث ذات بال جرت في مصر والشام وحدودها الشمالية ، وفيها الشيء الكثير من تاريخ بلادنا العربية .

محمد أحمد دهمان

= ومصر التي حكموها ، واصطلح معظم المؤرخين على تسميتها بدولة الترك ؛ وإن لم يكن جميع حكامها من الأتراك ، وكانت اللغة الرسمية في عهدهم اللغة العربية إلى جانب اللغة التركية التي كان المماليك يتراطنون بها وحدهم . ولهذا فقد أقاموا مدرسة لهم في قلعة القاهرة تعلم المماليك الفروسية واللغة التركية واللغة العربية والأمور الدينية ، وكانت دولتهم أرقى دولة في عصرها .

مخطوطة
رحلة يَشْبَك الدوادار[٢]

وصف المخطوطة :

هذه الرحلة من مخطوطات مجمع اللغة العربية بدمشق - المجمع العلمي العربي سابقاً - وهي مصورة على (١٣٩) صفحة ، أهداها للمجمع أحد أعضائه العلامة المرحوم أحمد تيمور ، وقد كتب في آخر صفحة منها ما يلي :

اسْتَنْسَخْتُ هذه الرحلة السياسية بطريق الفتوغرافية لنفسي من الكتاب نمرو (٢٦٨) المحفوظ بالمكتبة السلطانية بسراي طوب قبو بالقسطنطينية في يوم ٢٥ رمضان سنة ١٣٢٧ و ٩ اكتوبر سنة ١٩٠٩

أحمد زكي

سكرتير ثاني مجلس النظار المصري

وكتب على ظهر الصفحة (١١٦) أن الصفحة (١١٧) ناقصة من الأصل ، وفي كل صفحة (١٣) سطراًبخط واضح مقروء ، تخلو أكثر كلماته من النقط ، وهذا المخطوط خلو من التاريخ ، غير أن قاعدة خطها توحي بأنها كتبت قبل الألف . وهي من القواعد المستعملة في القرن الثامن والتاسع ولا يبعد أن تكون كتبت زمن المؤلف .

---

(٢) اصطلح العلماء تسمية السفر إلى طلب العلم رحلة ، وإلى الأمور العادية سفرة ، فيقولون رحل إلى بغداد لطلب العلم والسماع على الشيوخ ، وسافر إلى الهند للتجارة .

تسمية هذه الرحلة :

وإذ سماها مستنسخها ومصورها الأستاذ أحمد زكي (رحلة سياسية) ، فقد توبع على هذه التسمية ، فكتب المجلِّد على كعب الكتاب « رحلة الأمير يَشْبَك » ، والظاهر أن هذا من تسمية الأستاذ أحمد تيمور مُهدي هذه الرحلة حالة كونها مجلدة ، ومكتوب على كعب جلدها بالذهب ما تقدم ، ولكن السخاوي سماها (سفرة) . فقال عن المؤلف : (عمل سفرة سوار) وفيها منكر كبير[٣] .

وسواء سميناها رحلة أو سفرة ، فهي عبارة عن جريدة رسمية ، مثل التي يجري الاصطلاح عليها اليوم ، من تكليف القائد العام أحد بطانته تدوين الوقائع اليومية التي تجري للجيش ، وعليه فلا تكون هذه الرحلة أو السفرة رحلة بالمعنى الكامل ، فلا تتعرض لوصف البلاد والأماكن التي ينزلها الجيش ، أو تتكلم عن تاريخها . وإنما جهد المدون أن يصف حركات الجيش ووقائعه ، وما يصادفه في طريقه من شؤون ، فالرحلة إذن عسكرية فقط .

ولكن المؤلف وهو قاضي العسكر ، كُلِّف بالسفر إلى مدينة تبريز عاصمة السلطان حسن الطويل ، ليقوم بمفاوضته ببعض الشؤون ، وحينئذٍ خرج من نطاق المدوِّن العسكري إلى نطاق الرحالة الاجتماعي ، فأورد ملاحظات ذات نفع عن المنازل والمحطات التي نزلها ، ووصف البلدان والقرى التي مر بها ، وأتى بوصف قيِّم لبلاط حسن الطويل ومجالسه واجتماعه مع علماء تلك الجهات ، ومناقشاته العلمية معهم .

وبهذا يندفع اعتراض المعترض على المؤلف ، بأنه لم يأت بوصف البلدان

---

(٣) الضوء اللامع ١٠/٤٢ ، ولعله يعني بالمنكر إطنابه في مدح يَشْبَك وكثرة تملقه وادعائه خوارق العادات في الشؤون العادية .

والمنازل التي نزلها الجيش في هذه الرحلة ، لأن مهمته في تأليف هذه السفرة كانت مهمة رسمية مقيدة بالتقاليد الرسمية ، فلا يستطيع التخلي عنها لأنها وصف لحركات الجيش ، لا للبلدان التي يمر بها أو ينزل فيها .

على أن الأماكن المذكورة في هذه السفرة ، من القاهرة إلى بلاد الإمارة الدلغادرية معروفة مشهورة ، وقد تكلم عن أكثرها بل كلها الجغرافيون الأقدمون ، وممن ذكرها من المتقدمين من رجال الدولة والإدارة شهاب الدين أحمد بن يحيي بن فضل الله العمري في كتابه (التعريف بالمصطلح الشريف) ثم تبعه على ذلك القلقشندي في صبح الأعشى . ونحن نورد هنا جريدتين بأسماء هذه المنازل الأولى اليمنى عن الصبح ، والثانية اليسرى عن هذه السفرة ، ليرى الباحث الفرق بينهما والتطور الذي طرأ عليها في المدة بين السفرة وبين وفاة مؤلف صبح الأعشى سنة ٨٢١ هـ :

المنازل بين القاهرة ودمشق
في زمن القلقشندي وفي زمن رحلة يشبك

القلقشندي	يَشْبَك	القلقشندي	يَشْبَك
سرياقوس	الريدانية	حبوة	العريش
بير البيضا	سرياقوس	الغرابي	الزعقة
بِلْبيس	بِلْبيس	قطيا	تل العجوز
السعيدية	الخطَّارة	صيحة نخل معن	غزة
الخطَّارة	الصالحية	المطيلب	العوجا (نهر العوجا)
قبر الوايلي	الغرابي	السوادة	قاقون
الصالحية	قطيا	الواردة	اللجون
بئر عفرى	بئر العبد	العريش	بيسان
القصير	السوادة	الخروبة	طبرية

المنازل بين القاهرة ودمشق
في زمن القلقشندي وفي زمن رحلة يشبك

القلقشندي	يَشْبَك	القلقشندي	يَشْبَك
الزعقة	الخربة	ذر عين	
رفح	شقحب	عين جالوت	
السلقة	قبة يلبغا في دمشق	بيسان	
الداروم		المجامع	
غزة		زحر	
الجنيني		إربد	
بيت دارس		طفس	
قطرى		الجامع	
لد		الصنمين	
العوجا		غباغب	
الطيرة		الكسوة	
قاقون		دمشق	
قمحة			
جنين			

نهج تحقيق الرحلة :

هذا الكتاب كأكثر الكتب التاريخية المؤلفة في القرنين التاسع والعاشر مطبوع بطابع ذلك العصر ، وقد دخلته كثير من الألفاظ التركية والفارسية والتترية ، فهو برزخ بين الفصيح والعامي ، فلا هو فصيح خالص ولا عامي خالص .

وهو بعد ذلك كله مملوء باللحن الظاهر الذي ليس له وجه في العربية ، وقد

أبقينا جميع ما وجدناه من ذلك على حاله من غير تبديل ، فليس لنا أو لغيرنا أن يبدل الصيغة التي أظهرها المؤلف فيه .

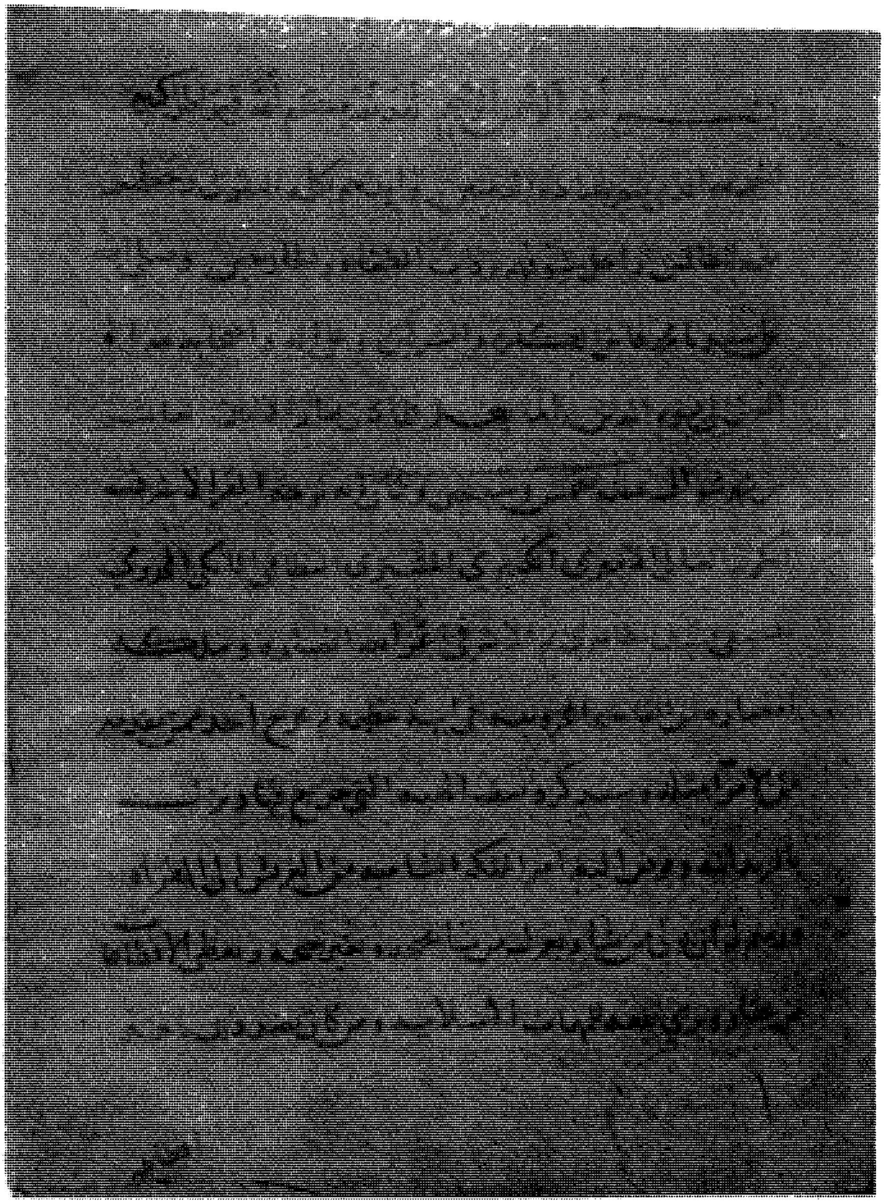
مؤلف الرحلة :

هو قاضي الجيش في الرحلة التي رافقها ، وأحسن من ترجم له هو السخاوي في الضوء اللامع (٤٣/١٠) فقال : محمد بن محمود بن خليل الشمس الحلبي الحنفي ، ويعرف بابن أجا[٤] وهو لقب أبيه ، ولد في سنة عشرين وثمان مئة بحلب ونشأ فيها ، فحفظ القرآن ، والقدوريّ ، والمنار . وفي النحو : الضوء . واشتغل عند البدر بن سلامة وغيره ، وسمع على البرهان الحلبي ، ولقي شيخنا [الشهاب بن حجر] فأخذ عنه ، ثم بالقاهرة حين دخلها صحبة خاله في سنة ثلاث وأربعين ، وأخذ حينذاك عن ابن الديراني ، ثم كثر تردده إلى القاهرة ، واصطحب بخطيب مكة أبي الفضل ، وبالأمير أزبك الظاهري وأمّ به وقتاً ، وخالق الناس بالجميل ، ثم ارتقى لصحبة الدوادار الكبير يَشْبَك من مهدي وراج بسبب ذلك وسافر رسولاً منه ومن السلطان إلى عدة ممالك كتبريز والروم وغيرهما ، وحج مرتين ، وزار بيت المقدس والخليل مراراً ، واستقر في قضاء العسكر عوضاً عن النجم القِرْمي ، وقعد بالشفاعات خصوصاً في أواخر عمره ، وحمد الناس أمره فيها ، فكنت ممن حمد أمره معه ، وتكلم عنه في المؤيدية وغيرها ، وحدث بالشفاء ، وترجم فتوح الشام للواقدي بالتركي نظماً في اثني عشر ألف بيت . وعمل (سفرة سوار) وفيها منكر كثير[٥] ، وكان عاقلاً عارفاً ذكياً متودداً متواضعاً . مات في جمادى الآخرة سنة إحدى وثمانين بحلب .

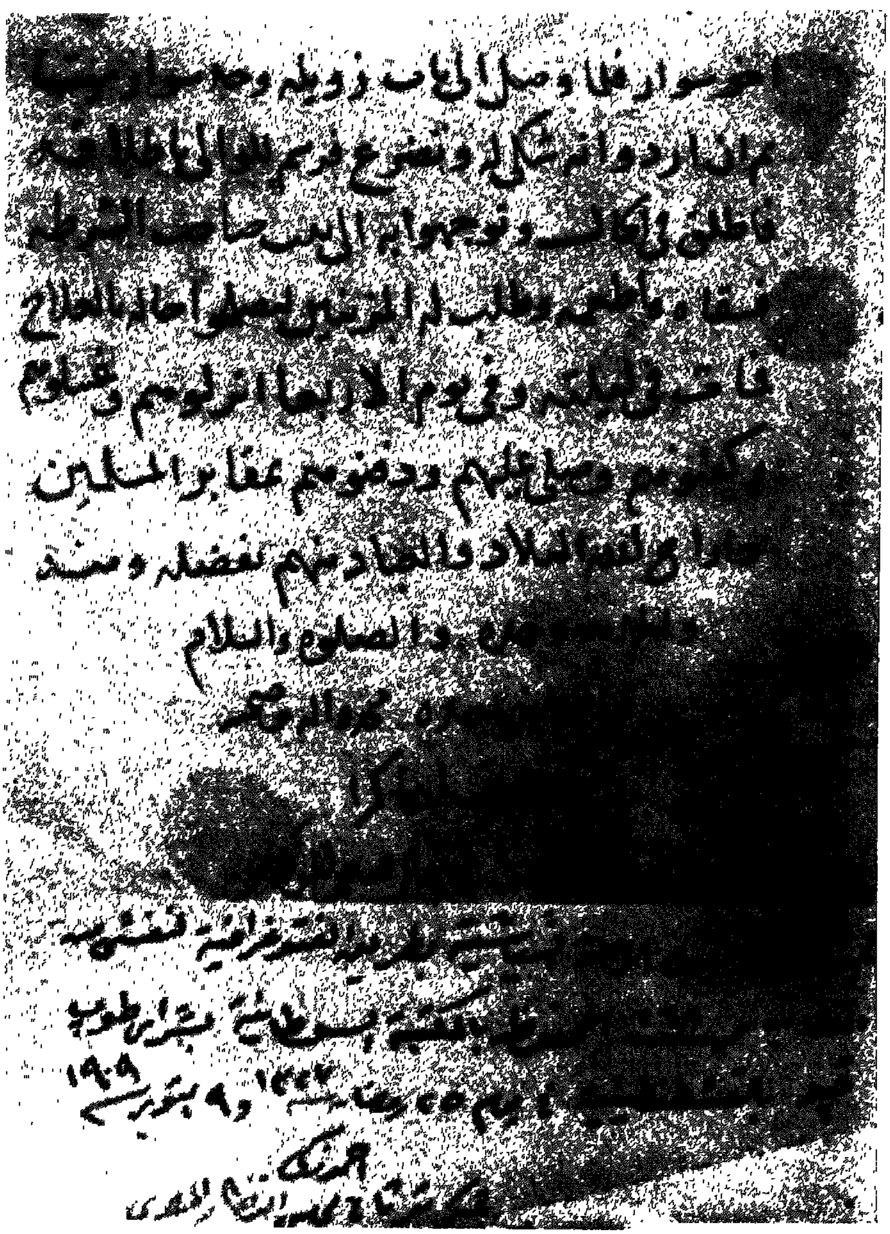
---

(٤) يقول الأستاذ الزركلي في الأعلام (أجا و أجا) وكلاهما صحيح .

(٥) كأنه يريد بذلك إطنابه في مدح يَشْبَك وكثرة تملقه له ، وجا في الضوء اللامع (٢٧٢/١٠) في ترجمة الأمير يَشْبَك حينما ذكر حربه مع سوار فقال : وكان أمراً مهولاً أفرده إمامه الشمس بن أجا بالجمع فبالغ .



الصفحة الأولى من المخطوطة



الصفحة الأخيرة من المخطوطة

تمهيد

تاريخ الامارة الدلغادرية

علاقة الشام بمصر

العواصم والثغور

بلاد الإمارة الدلغادرية

تحقيق تسميتها بالدلغادرية أو ذي القدرية

ملخص تاريخ هذه الأسرة

تاريخ الإمارة الدلغادرية

علاقة الشام بمصر :

كان القطر المصري مع القطر الشامي دولة واحدة في زمن دولة المماليك ، يشتركان في السراء والضراء والأفراح والأتراح ، يصيب أحدهما ما يصيب الآخر من خير أو شر ، من غنم أو غرم ، وينجد أحدهما الآخر في الشدائد ، ويتحف بعضهما بعضاً بالهدايا والتحف .

وقد حصل بينهما تمازج غير قليل بالدم بسبب الإصهار ، ونزحت أسر عديدة من مصر إلى الشام ، ومن الشام إلى مصر ، فقصة الشام هي قصة مصر ، وتأريخ مصر تأريخ للشام .

كان للثورة التي قام بها شاه سوار على حدود بلاد الشام الشمالية أثر بليغ في داخل البلاد وخارجها بعد أن جهزت إليه الدولة ثلاثة جيوش فدحرها . فقد جعلت هذه الثورة داخل البلاد في اضطراب وهرج ، وفي الخارج سببت لها أطماعاً من الدول والإمارات المجاورة لها . فكان على الدولة أن تستعيد هيبتها ، وأن تعد حملة أخرى حينما تخفق الحملة الأولى ، فكتب لها في الحملة الرابعة النجاح بعد أن تكبدت خسائر فادحة في الأنفس والأموال .

ومن البديهي أنّ الشام كانت تشارك مصر في نفقات هذه الحملات ، وتساهم بأكبر نصيب لإعداد قوة كبيرة تكافح العدو الجاثم على حدود البلاد .

العواصم والثغور :

العواصم جمع عاصم ، وهي حصون منيعة تحيط بـالمنطقـة الواقعـة بين حلب وأنطاكية وقصبتها[٦] أنطاكية .

أطلق عليها في العصر الأموي اسم الدروب ، وفي العصر العبـاسي اسم العواصم والثغور . وكان يدخل عليها تعديل حسب التراتيب الإدارية ، ففي زمن هارون الرشيد جعلت منبج ودلوك ورعبان وقورس وأنطاكية وتيزين وما بين ذلـك من الحصون منطقة مستقلة سميت بالعواصم ، لأن المسلمين كانوا يعتصمون بها فتعصمهم من العدو وتمنعهم ، وجعلت مدينة منبج قصبة هذه المنطقة .

وورد لفظ العواصم في شعر المتنبي وهو يمدح سيف الدولة :

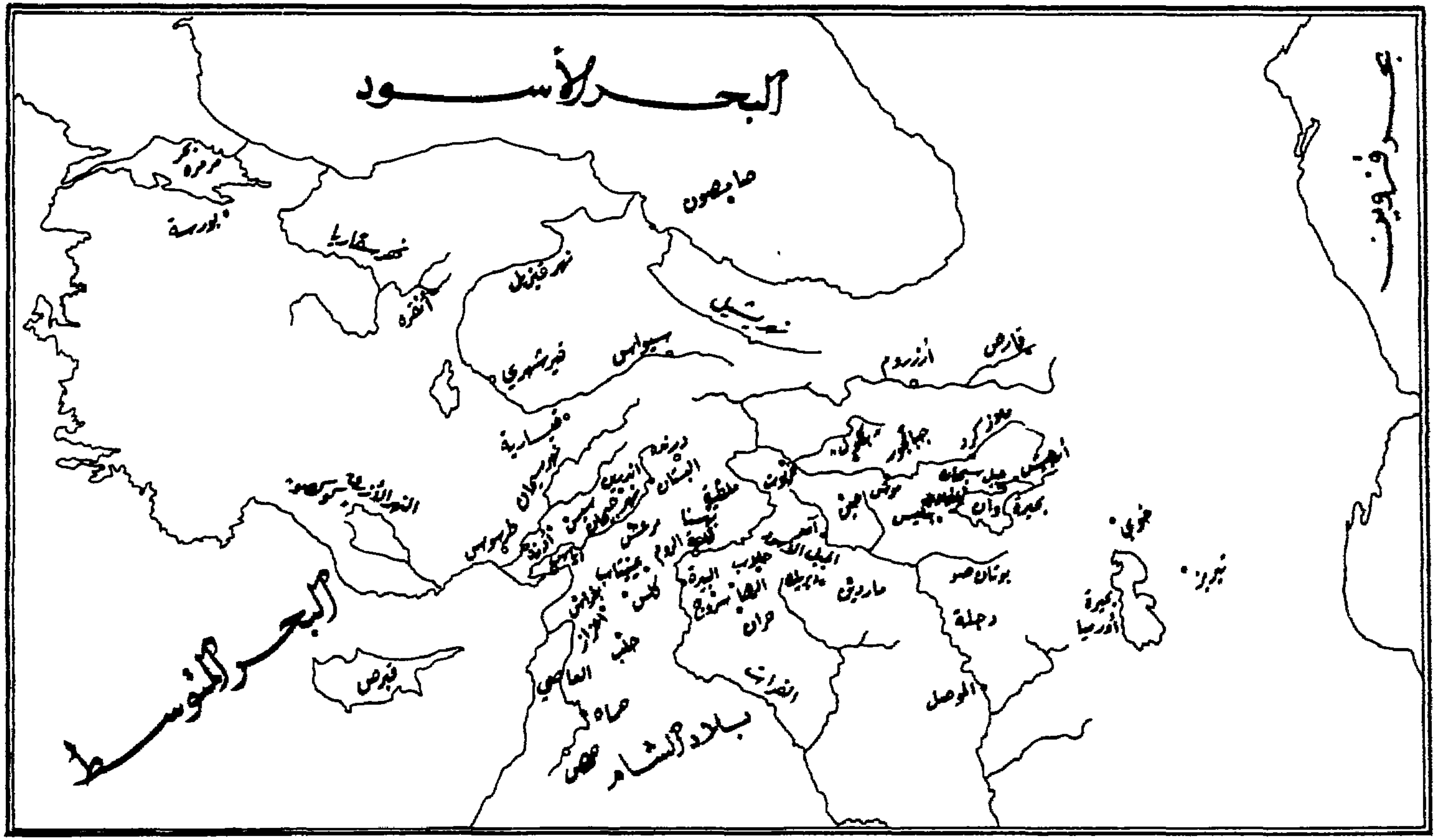
لقـد أوحشت أرض الشـام طراً   سلبت ربـوعهـا ثـوب البهـاء
تنفسُ والعـواصم منـك عشر   فيـوجـد طيب ذلـك في الهـواء

أمـا الثغـور فهي جمـع ثغر ، وهي الحصـون التي بنيت على تخـوم الشـام والجزيرة لصد غزوات الروم ، لذلك سميت بالثغور الرومية . وتبدأ هذه المنطقـة من طرسوس في كيليكيـة ، وتمتـد على طول جبـال طوروس إلى ملطيـة ، ثم إلى الفرات ، وهي تحمي منطقة العواصم التي على الحدود من غارات الأعداء .

وتنقسم إلى قسمين : ثغـور الشـام ، وثغـور الجـزيرة . وتعتبر مرعش أبعـد مدينة في منطقة الثغور الشامية ، كما أن ملطية أبعد مدينة في ثغور الجزيرة .

وتعاورت بلاد الثغور أيدي المسلمين والروم ، وفيها كانت أكثر وقـائع سيف الدولـة مع الروم . ثم هـاجرت في أوائل الحروب الصليبيـة فرق كثيرة من الأرمن إلى هـذه الجهـات ـ وقـد خرب أكثرهـا وكادت تخلو من السكان ـ فتـوطنـوهـا ،

(٦) القصبة : المركز الإداري .



المصور (١) مواقع الرحلة من بلاد الشام حتى تبريز

وأسسوا فيها إمارات صغيرة تحت حماية قياصرة القسطنطينية[٧] ، وجعلوا عاصمتها سيس ، واشتهر من أمرائها ليون الأول ، ثم ابنه طوروس الثاني المعروف في الكتب العربية بابن ليون ، وسماه أبو شامة[٨] مليح بن لاون .

واستطاع السلطان نور الدين محمود بن زنكي أن يجلب هذا الأخير إلى طرفه ، فأعلن خضوعه لنور الدين ، وتمرد على ملك القسطنطينية ، وأدمج بقية الإمارات الأرمنية في إمارته .

غير أن هذه الإمارة الأرمنية لم تُخْلِصْ للمسلمين طويلاً ، فقد ظاهرت الصليبيين ثم التتار على المسلمين .

وتردد في العصر المملوكي ذكر سيس[٩] وصاحب سيس ، لأن سلاطين المماليك قاموا بتحطيم الإمارة لمظاهرتهم لأعدائهم .

وأول من ضرب فيها بمعول الهدم السلطان الظاهر بيبرس . ثم تتابع الضرب عليها إلى سنة ٧٧٦ هـ حين قضي عليها نهائياً . وقد شهدت الإمارة الدلغادرية احتضارها ، واستفادت من وفاتها فورثت بعض أراضيها .

وفي العصر المملوكي كانت الحدود الشامية تضم منطقتي العواصم والثغور . فقد ذكر القلقشندي نيابات بلاد الثغور والعواصم وما والاها معتبراً فيها تسع نيابات

---

(٧) جولة أثرية لأحمد وصفي زكريا ٣٦ ـ ٣٧ طبع دمشق .

(٨) الروضتين ٢١٥/١ .

(٩) سيس : بلدة وقلعة تركية في ولاية أدنة (كيليكية) إلى الشمال الشرقي من أدنة ، تقع على سفح جبل منفرد قائم وسط سهل فسيح كثير المستنقعات . كانت عاصمة الأرمن ، وقد تردد ذكرها في تاريخ السلاطين المماليك في مصر ، فكانوا يهاجمونها لتأديب الأرمن الذين يناصرون الصليبيين إلى أن افتتحوها ، ثم انتقلت منهم إلى سلطة الأمارة الدلغادرية . قال عنها ياقوت : هي اليوم أعظم مدن الثغور الشامية ، بين أنطاكية وطرسوس على عين زربة ، وبها مسكن ابن ليون سلطان تلك الناحية الأرمني (راجع موقعها على المصور رقم ١) .

وهي : ملطيـة ، دَبْرَكي[١٠] ، درنـدة ، الأَبْلَستين ، إيـاس ، طرسـوس ، أذنـة ، سرفندكار ، سيس[١١] .

بلاد الإمارة الدلغادرية :

يعـدد القرمـاني[١٢] أشهر ممتلكاتهـا فيقـول : ملكـوا مرعش ، وألبستـان ، وملطيـة ،وعين تـاب ، وعـزاز ، وخربـوت ، وبهنسـا ، ودرنـدة ، وقير شهري ، وقيسارية ،وحصن المنصور ، وقلعـة الروم ، وبلاد سيس ، وقـارص ، وضمانتي ، وأودية عَمْق ، وكوندزلي ، وغير ذلك ومن هذا يظهر أن هذه الإمارة قـامت على البلدان التي كانت تقوم عليها الإمارة الأرمنية .

تحقيق تسميتها بالدلغادرية أو ذي القدرية :

يختلف ورود هـذا الاسم بين الكتب العربيـة والكتب الأجنبيـة ـ تركيـة ، فارسية ، لاتينية ـ وقد أجمعت المصادر العربية[١٣] على ذكر أبناء ذو الغادر بالغين المعجمة ، بينما وردت التسمية بـأشكال شتى في الكتب الأجنبيـة : ذو الغـادر ـ ذو القادر ـ القـدر ـ ذو القـدر ... وغيرهـا ، ومرد هـذا الاختلاف الكتب التي أُلِّفَت بالفارسية ، إذ لا وجود لحرف الغين في هذه اللغة شأنها في ذلك شأن اللغـات التي تستعمل الأحرف اللاتينية ، فرسمت ذو القـادر بـالفـارسيـة ، وجـاءت ترجمتهـا مطـابقـة بـالإنكليزيـة ظنـاً ممن ترجم أن ذو بمعنى صـاحب ، فحـوّلت الغين إلى قـاف ، وممن التبس عليـه هـذا الاسم الأستـاذ زامبـاور في معجم الأنسـاب والأسر

(١٠) دبْركي = ديار بكر = آمد .

(١١) راجع المواقع على المصور رقم (١) .

(١٢) أخبار الأُوَل وآثار الدول : الصفحة ٣٣٩ .

(١٣) تـاريخ ابن الوردي ، الـدرر الكامنـة ، النجوم الزاهرة ، تـاريخ ابن الفرات ، الضوء اللامع ، بدائع الزهور لابن إياس ، أخبار الأُوَل وآثار الدول للقرماني .

الحاكمة في التاريخ الإسلامي ، والأستاذ ستانلي بول في كتاب الدول الإسلامية ، كما وقع بنفس الخطأ كل من ترجم الاسم من الإنكليزية أو التركية أو الفارسية إلى اللغة العربية .

ونحن نرجح النصوص العربية في تسميتها « دلغادر » على النصوص التركية واللاتينية للأسباب التالية :

١ ـ إن لفظة « دلغادر » وإن كنا نجهل سبب التسمية بها وما ترمي إليه من معنى كانت محبوبة في عصرهم ، وقد تسمى بها بعض الأمراء ، وممن سمي بها أمير عرب نعير الذي كان معاصراً لأولاد دلغادر ومختلطاً بهم ، فقد سماه والداه « بغادر »[١٤] .

٢ ـ إن المؤرخين العرب شهدوا ولادة هذه الإمارة قبل استفحال أمرها ، ولأول مرة يذكرونها يسمون أمراءها « أولاد دلغادر » ، ورغم ما وقع منهم من شغب وتخريب وإفساد ، لم يصف مؤرخ عربي أحداً منهم بالغدر ولم نر مؤرخاً لمز أو غمز أحداً منهم من هذه الناحية لنقول إن المعاصرين أو المعادين لهم وصموهم بهذه الوصمة ونعتوهم بها .

٣ ـ إن بلاد هذه الإمارة كانت معدودة من بلاد الحكومة المملوكية ، وعلاقاتها مع المماليك مذكورة بكثرة في الكتب العربية ، وكان أكثر أمرائها يترددون إلى بلاد الشام ومصر ، فلو كان في هذه التسمية غضاضة عليهم لأنكروها وطلبوا تغييرها بالقادرية أو القدرية ، ولأطلق عليها أحد المؤرخين هذا اللقب ولو مرة واحدة .

على أنه لا ينبغي لنا أن نغادر هذا العرض من غير أن نأتي بهذه الملاحظة ،

---

(١٤) النجوم الزاهرة .

وهي أنَّ ابن الوردي في تاريخه قال[15] سنة ٧٤٩ هـ : « إن قراجا بن دلغادر التركماني شغب واستطال وسمى نفسه بالملك القاهر ، وطلب من صاحب سيس الحِمْلَ الذي يحمل إلى السلطان » . ثم نرى بعد ذلك نسخة من نسخ الدرر الكامنة تلقب سولي بن قراجا بـ « دلقاهر »[16] .

وإليك تاريخ أمراء هذه الأسرة ملخصاً من كتاب الدول الإسلامية تأليف ستانلي لين بول والذي نشرناه سنة ١٩٧٤ م بعد إضافة تعليقات عديدة عليه .

تاريخ الأسرة الدلغادرية :

حكمت هذه الأسرة مرعش وألبستان وما حولها قرابة ١٩٠ سنة (٧٤٠ هـ ـ ٩٢٨ هـ) ـ وهي منطقة الحدود بين الدولتين العثمانية والمملوكية ـ وهي بالأصل عشيرة تركمانية نزحت نحو الأناضول من آسيا الوسطى فراراً من جنكيزخان برئاسة زعيمهم ذو الغادر . وشكل ابنه زين الدين قراجا حكومة سنة ٧٣٧ هـ واختُلِفَ في موته وتاريخ موته ، وقد ملك ابنه خليل بك مرعش وملطية ، واتخذ ألبستان مقراً لحكومته . وكان من نتائج إطاعة أحد إخوته أمير خربوت[17] أن قتل خليل بك سنة ٧٨٨ هـ . كما قتل أخوه الآخر الذي خلفه سولي بك سنة ٨٠٠ هـ .

بدأ سولي بك إقامة علاقات مع العثمانيين ، فقد زوَّج ابنته الكبرى إلى سلطان سيواس[18] القاضي برهان الدين ، كما زوَّج ابنته الصغرى إلى السلطان محمد شلبي .

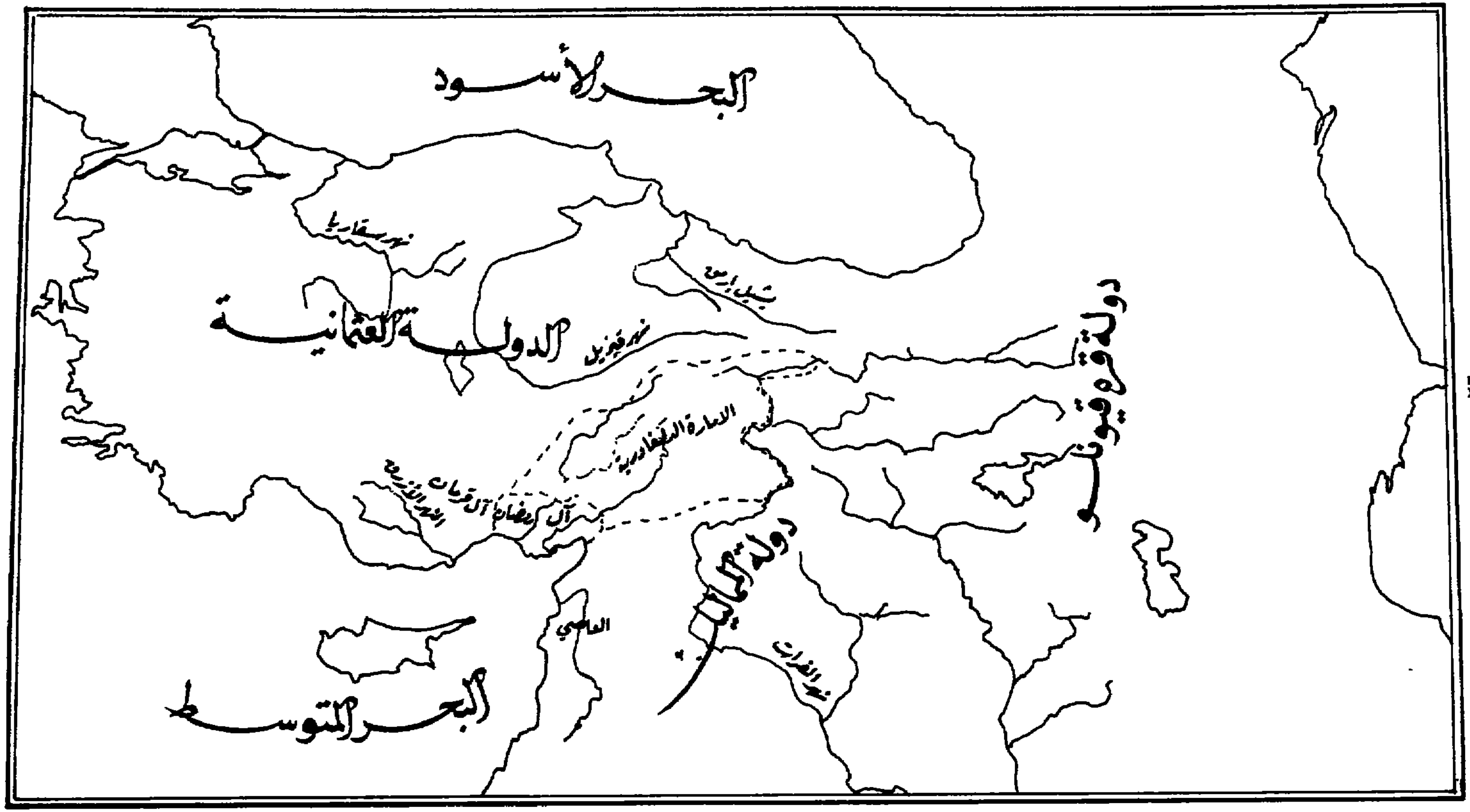
---

(١٥) ٣٤٢/٢ .

(١٦) انظر الدرر الكامنة طبع حيدر آباد ١٧٩/٢ .

(١٧) خربوت : مدينة تركية في هضبة أرمينيا تقع على نهر مرادصو أحد أصول نهر الفرات إلى الشمال الشرقي من ملاطية (انظر موقعها على المصور ١) .

(١٨) سيواس : مدينة تركية في غرب أرمينيا إلى الشمال من ألبستان (انظر موقعها على المصور ١) .



امتداد الامارة الدلغادرية والدول المجاورة لها

وتولى بعده ناصر الدين محمد بك بن خليل بك ، وفي عهده تعرضت الإمارة لغزو تيمورلنك الذي خرَّب ملطية وبهسنا واحتل ألبستان ، واستعان بسلطان مصر مؤيد شيخ لمحاربة أبناء قرامان[١٩] وأبناء رمضان[٢٠] ، ومنحه المصريون قيصرية[٢١] ، ثم ضَيَّق عليه السلطان جقمق ، فلجأ إلى مراد الثاني العثماني ، فأعاد إليه قيصرية سنة ٨٤٠ هـ وكانت في حوزة العثمانيين ، ثم تقرب من المماليك وزار القاهرة ومات إثر عودته منها سنة ٨٤٦ هـ .

وخلفه ابنه سليمان بك وقد أخذ على نفسه الإبقاء على صلات الصداقة مع العثمانيين ، فزوّج ابنته مكرمة خاتون إلى محمد الفاتح سنة ٨٥٣ هـ في عهد سلطنة مراد الثاني . ومات سليمان سنة ٨٥٨ هـ ، وخلفه ابنه آرسلان ، وفي عهده استولى أوزون حسن (حسن الطويل) على خربوت ، ولاستعادة هذه المدينة قصد أرسلان بك القاهرة لطلب معونة السلطان خوشْقَدَم ، وبينما كان يؤدي الصلاة في المسجد اغتاله فدائي سنة ٨٧٠ هـ وقُتِلَ الفدائي ، وقد اتهم بتدبير هذه الجناية السلطان خوشْقَدَم الذي عيَّن شقيقه شاه بوداق خلفاً له ، في حين حمل شقيقه الاخر شاه سوار بك منشوراً بتوليته الإمارة من السلطان العثماني محمد الفاتح ، فحكم شاه بوداق في مرعش وشاه سوار في ألبستان ، ورفض أمراء الأسرة الدلغادرية حكم شاه بوداق بسبب حادث مقتل ملك آرسلان ، وفرَّ شاه بوداق

---

(١٩) أبناء قرمان : دولة قامت في الأناضول سنة ٦٥٤ هـ ورثت الدولة السلجوقية وعمرت حتى ٨٨٨ هـ عندما قضى السلطان بايزيد الثاني عليها ، خلفت آثاراً تدل على مدنية وحضارة (راجع كتاب الدول الإسلامية ٤٣٥/٢) .

(٢٠) أبناء رمضان : أسرة تركمانية شكلت إمارة في أدنة عمرت من سنة ٧٨٠ هـ حتى ١٠١٧ هـ ، وقف معظم أمرائها جانب المماليك إلى أن قويت شوكة العثمانيين فوقفوا معهم وشاركوا السلطان سليم الأول العثماني في غزو سوريا ومصر (راجع كتاب الدول الإسلامية ٤٦٣/٢) .

(٢١) قيصرية قيسارية : بلدة تركية تقع في شرقي الأناضول تكرر ذكرها في التاريخ الإسلامي فيها قلعة حصينة (انظر موقعها على المصور ١) .

إلى مصر سنة ٨٧١ هـ ، وسيطر شاه سوار على جميع ممتلكات الإمارة ، وزحف نحو حلب سنة ٨٧٢ هـ وحارب المصريين حرباً ظافرة ، كما تغلب على أبناء رمضان ، ولكن حكومة القاهرة المملوكية ساقت إليه سنة ٨٧٦ هـ جيشاً قوياً انتصر عليه في عينتاب وتحصن في قلعة ضمانتي [زمنطو] فحوصر بالقلعة وأجبر على الاستسلام وأرسل إلى القاهرة ، وفيها أمر السلطان قايتباي بصلبه على باب زويلة سنة ٨٧٧ هـ . وكان في إمارته ملتزماً جانب الدولة العثمانية ، لذلك أسفر قتله عن التأثر البالغ لدى العثمانيين .

وعاد شاه بوداق لتسلم الحكم ، فعمد العثمانيون إلى مد أخيه علاء الدولة ـ واسمه الأصلي بوز قورت وغلب عليه اسم علي دولات ـ ففرَّ شاه بوداق إلى مصر ثانيةً سنة ٨٨٤ هـ . ثم التزم علاء الدولة جانب مصر ، وتقرَّب من العثمانيين وزوَّج ابنته عائشة خاتون من بايزيد الثاني وهي والدة السلطان سليم الأول .

والحوادث التي وقعت في أيامه مدرجة تفصيلاً في تاريخ مصر والدولة العثمانية . ثم نسب إليه العثمانيون الخيانة ، وأرسل إليه السلطان سليم إثر عودته من محاربة اسماعيل الصفوي سنة ٩٢١ هـ الوزير سنان باشا وأمره بتأديب إمارة دلغادر والتنكيل بها ، وكانت النتيجة أسر علاء الدولة وقتله وعمره تسعون سنة ، وإرسال رأسه إلى السلطان قانصوه الغوري ، وبهذا يكون السلطان قد قتل جده .

وعينت الدولة العثمانية مكانه علي بك بن شاه سوار شريطة أن تكون السكة والخطبة باسم بني عثمان ، وشارك علي بك في حملة السلطان سليم على الشام ومصر ، وبرغم ما أدى إلى الدولة العثمانية من خدمات حسنة ، فقد أعدم هو وثلاثة من بنيه بأمر السلطان سليمان القانوني سنة ٩٢٨ هـ ، وكان ذلك بتحريض الوزير فرهاد باشا وافتراءاته عليه .

وبعد ذلك حُوِّلت الإمارة إلى ولاية عثمانية . وهذه قائمة بأسماء من تولى منهم :

التقويم الهجري		التقويم الميلادي
٧٤٠	زين الدين قراجا بن دلغادر	١٣٣٩
٧٨٠	خليل بك	١٣٧٨
٧٨٨	سولي بك	١٣٨٦
٨٠٠	ناصر الدين محمد بك	١٣٩٧
٨٤٦	سليمان بك	١٤٤٢
٨٥٨	ملك آرسلان بك	١٤٥٤
٨٧٠	شاه بوداق بك (أول مرة)	١٤٦٥
٨٧١	شاه سوار بك	١٤٦٦
٨٧٧	شاه بوداق بك (مرة ثانية)	١٤٧٢
٨٨٤	علاء الدولة بك	١٤٧٩
٩٢١ ـ ٩٢٨	علي بك	١٥١٥ ـ ١٥٢١

وتفيد المصادر التاريخية أن هذه الإمارة كانت تعيش عيشة قبلية ، وتساهم في الثورات التي كانت تقوم في ربوع الشام ، وتتفق مع الأعراب على النهب والسلب .

فحين قام يلبغا أرس نائب حلب بالثورة والعصيان على القاهرة وسمى نفسه بالملك العادل قام معه في هذه الثورة الأمير قراجا بن دلغادر وحيَّار بن مهنا أمير آل الفضل ، وقد نهب أتباعهما كل ما مرت عساكرهما عليه من حلب إلى دمشق ، ثم امتدت غارات التركمان الدلغادرية إلى حوران والبقاع .

ولما شاع وصول ملك القاهرة مع الجيوش المصرية ، اتفق قراجا وحيَّار على

الفرار بجماعتها كعادات البدو ، وتركوا نائب حلب وحده وسببوا له الفشل السريع .

وانضم سولي بن قراجا بن دلغادر إلى ثورة يلبغا الناصري نائب حلب ، ثم إلى ثورة منطاش التي اشترك بها أمير آل الفضل نُعَير بن حيَّار .

ولم نر أحداً من المؤرخين روى أنهم رعوا عالماً أو فقيهاً أو شاعراً ، والظاهر أنهم لم يقربوا من الدور المدني إلا في عهد شاه سوار ، فقد قال القرماني عنه : إنه كان أديباً عاقلاً ذا رأي وشجاعة ، وضرب اسمه على سكة الدراهم والدنانير ، ودعي له على المنابر بمدينة ألبستان وما والاها .

ولزيادة الاطلاع على تاريخ هذه الأسرة انظر قاموس الأعلام لشمس الدين سامي ، ودائرة المعارف الإسلامية ، ومعجم الأنساب والأسرات الحاكمة للمستشرق زامباور ، وأخبار الأُوَل للقرماني ، والدول الإسلامية نشر مكتب الدراسات الإسلامية بدمشق .

ونكتفي بهذا الموجز عن هذه الإمارة مقفين بأخبارها الحربية مع المماليك .

نصوص وإضافات على الرحلة

١

ثورة شاه سوار

ـ أول الفتنة بين الدلغادرية ودولة المماليك
ـ شاه سوار وسبب ثورته ـ التجريدة الأولى ـ
ـ الملك الأشرف قايتباي الظاهري
ـ التجريدة الثانية ـ التجريدة الثالثة ـ
ـ التجريدة الرابعة ـ حربها مع سوار ـ
ـ القبض عليه ـ إعدامه بالقاهرة

ثورة شاه سوار

أول الفتنة بين الدلغادرية والمماليك

لم يكن الأمراء الدلغادرية لدى ملوك القاهرة سوى نواب وولاة لهم ، غير أنهم كانوا يفرضون أنفسهم عليهم بسبب قبائلهم التركمانية التي توطنت في تلك الجهات حين افتتحها ملوك مصر والشام ، والتي لم تكن تخضع لغير أمرائها ، ولهذا السبب أصبحت الإمارة تتسلسل فيهم وفي أحفادهم ، وأصبحت لهم شبهة بأن يقولوا حين يثورون : إن البلاد بلادنا والشعب شعبنا .

وفي سنة ٨٧٠ هـ كان نائب أبلستين (ألبستان) الأمير سيف الدين ملك أصلان بن سليمان بن ناصر الدين بك دلغادر في زيارة للقاهرة ، وبينما كان في صلاة الجمعة وثب عليه فداويٌّ في الجامع وضربه بسكين فقتله وقُتِلَ الفداويّ في الحال . وقد حامت الظنون في حادث هذا الاغتيال حول سلطان المماليك في القاهرة خوشْقَدم الذي ظُنَّ بأنه أرسل الفداويّ لهذا الأمر .

ثم عين السلطان شقيقه المسمى (شاه بضع)[٢٢] نائباً على تلك الجهات[٢٣] . وقام أخ ثان للأمير المغدور هو الأمير شاه سوار فطالب بالإمارة ، واستعان بالسلطان محمد الفاتح العثماني ، فبقي شاه بضع حاكماً على مرعش ، وأصبح شاه سوار مستولياً على ألبستان .

وفي شهر رجب سنة ٨٧٠ هـ أمر السلطان خوشْقَدم بتجهيز تجريدة للقضاء على تمرد شاه سوار ، لكن أمر هذه التجريدة لم ينفذ[٢٤] . ثم نحّى السلطان الأمير

(٢٢) يرسم أيضاً على هذه الصورة « شاه بداق » .

(٢٣) النجوم الزاهرة ٧/٧٣٧ .

(٢٤) الضوء اللامع ٣/٢٧٤ .

شاه بضع عن الولاية ، وعين بدله عمه الأمير رستم بن ناصر الدين بك ، وقد علّق على هذا التعيين ابن تغري بردي بقوله : أظن أن رستم هـذا أضعف من شـاه بضع في دفع سوار[٢٥] .

شاه سوار

هو ابن الأمير سليمان ، وأخو الأمير سيف الدين ملك آصلان الذي قتل غدراً بيد فداويّ . وقد ساءه أن يقتل أخوه غدراً فاستعان بالسلطان محمد الفاتح الذي أعانه على غايته ليبدأ بدغدغة الدولة المملوكية وليختبر مدى قوتها . فقام شاه سوار بإعلان العصيان على الدولة المملوكية مطالباً باستقلال البلاد المتقدم ذكرها مدعياً أنها بلاد آبائه وأجداده ، وقد دامت حروبه مع المماليك خمس سنين أصلاهم فيها ناراً حامية . ويظهر أثر هذه الحروب في تراجم أمراء المماليك في كتاب الضوء اللامع للسخاوي ، فنرى أن الأمير ... كان في أسر سوار ، وأن الأمير ... قتل في حرب سوار ، وأن فلاناً بترت يده أو رجله أو قلعت عينه . ونجد المؤرخين يذكرون عن شاه سوار غير ما كانوا يذكرون عمّن قبله من الأمراءالدلغادرية من أعمالهم في السلب والنهب والترف والانهماك باللذات . وقد قدمنا ما قاله القرماني عنه ، وإليك ما قاله السخاويّ عنه في الضوء اللامع[٢٦] بعد أن ذكر كيف قتل في القاهرة :

مات وهو ابن بضع وأربعين ، وكان فيما قيل يكثر التلاوة من المصحف بطول الطريق ، ويصوم الاثنين والخميس مع فهم في الجملة ، ومشاركة في بعض منطق[٢٧] ، ومعاناة في النجوم ، قد نبذه الشيب ببعض شعرات في لحيته من الجانبين ، بعمامة مدورة وفوقاني مفتوح مزنر بقصب بقلب لطيف على جاري عادة تفصيل

(٢٥) النجوم الزاهرة ٧٤١/٧ .

(٢٦) الضوء اللامع ٢٧٥/٣ .

(٢٧) يريد بأن له إلماماً قليلاً بعلم المنطق .

التركمان . ووجهه حسن ، أبيض اللون ، ظاهر الحمرة ، مستدير اللحيـة ، بشعر أسود جميل الهيئة ، محترم الشكل وتألم غير واحد من المقدمين لإتلافه .

إهمال أمر شاه سوار

قلنـا بـأن السلطـان خوشْقَـدم عين تجريـدة للقضـاء على ثورة شـاه سـوار ، ولكن لم ينفذ أمر هذه التجريدة بل اكتُفي بمناوشـة الأمراء الـدلغـادريـة الـذين كانوا يوالون سلطان القاهرة للأمراء الذين كانوا يعادونه ، وظل الأمر كذلك نحو سنتين توسعت فيهـا سلطـة شـاه سـوار وكثر أتبـاعـه وانهـزم أعـداؤه من أقـاربـه وإخوته الذين كانوا يناصبونه العداء والتجؤوا إلى القاهرة .

التجريدة الأولى لقتال سوار

في أوائل سنة ٨٧٢ هـ جاءت الأخبار إلى القاهرة بأن شاه سوار قـد توسعت ثورته وعَظُمَ أمره ، وأنه يُخشى من سوء العاقبـة بـإهمـال أمره ، فـاهتم السلطـان خوشْقَـدم للأمر ، وأرسل لـه تجريـدة بقيـادة الأمير بَرَدْبَـك البشمقـدار[٢٨] نـائب الشام . ولكن حصل ما لم يكن بالحسبان ، فقد انهزمت هذه التجريدة شر هزيمة وأصبح بعضها مأسوراً وبعضها مقتولاً . ولما كان لا يعتقد أحد بهزيمة هـذا الجيش من ثائر مثل سوار ، فقد جاءت الأخبار بأن الأمير بَرَدْبَك البشمقدار قد انضم إلى الأمير سوار ، وأنهما يريدان احتلال مدينة حلب وبقية بلاد الشـام ، فـاضطربت القاهرة لهذا الأمر ، وجهز السلطان جيشاً أعظم من الأول ، ولكن المنيـة حـالت دون إرسـال ذلـك الجيش ، فتوفي السلطـان خوشْقَـدم في عـاشر ربيع الأول سنـة ٨٧٢ هـ واشتغل رجال الدولة بتنصيب ملك جديد ، فنصَّبوا سيف الدين يلبـاي سلطاناً في اليوم الذي توفي فيه الظاهر خوشْقَدم .

---

(٢٨) البشمقدار : منصب في الدولة المملوكية يحمل صاحبه نعل السلطان .

ولم تطل مدة الملك الجديد فخُلع في سابع جمادى الأولى من السنة المذكورة، ثم نُصِّب عوضاً عنه تمربغا الظاهريّ في اليوم نفسه، ولقب بالملك الظاهر. ثم خلع في السادس من رجب، ونصب عوضاً عنه الملك الأشرف قايتباي المحمودي.

وتمخضت الأخبار بعد ذلك بأن الأمير بردبك البجمقدار لم ينضم إلى شاه سوار، ولكن المؤرخين مجمعون على أنه لم يكن مخلصاً للدولة في التجريدة الأولى، بل كان يحث الأمراء على عدم القتال وكان سبب الهزيمة النكراء.

ولما بلغ بردبك موت السلطان خوشْقَدم رجع يريد القاهرة، فأرسل السلطان الجديد يلباي رسولاً إليه رجع به إلى القدس بطالاً[٢٩]، ويقول السخاويّ إنه تخلف عند سوار[٣٠]. بينما يقول ابن إياس: كان أسيراً عند سوار هو ونائب حلب وأطلق بعد موت الظاهر خوشْقَدم وقاسى شدائد ومحناً.

ومهما يكن من أمر، فإن إخفاق الحملات التي تلت تجريدة بردبك البجمقدار، دليل مقبول على عدم صحة ما نسب إليه من عدم الإخلاص.

الملك الأشرف قايتباي الظاهري

يعد هذا السلطان من أعظم ملوك المماليك، وهو في نظري أعظم ملك من المماليك الشراكسة[٣١]. ولد سنة ٨٢٦ هـ، وتولى الملك سنة ٨٧٢ هـ، وبقي في

(٢٩) الضوء اللامع ٦/٣.

(٣٠) المصدر السابق.

(٣١) اصطلح المؤرخون على تقسيم دولة المماليك إلى فترتين: الأولى من قيام الدولة التي أسسها المعز أيبك سنة ٦٤٨ هـ حتى سنة ٧٩٢ هـ وسميت فترة حكم المماليك البحرية نسبة إلى إقامة المماليك في جزيرة الروضة بالنيل، وكان المماليك يجلبون من أجناس شتى.
والثانية بدأت سنة ٧٩٢ هـ عندما اعتلى الظاهر برقوق عرش مصر وكان شركسي الأصل فأخذ يكثر من جلب المماليك الشراكسة واستمرت هذه الفترة حتى زوال دولة المماليك سنة ٩٢٢ هـ وسميت فترة المماليك الشراكسة نسبة لأصلهم، أو المماليك البرجية لإقامتهم في أبراج القلعة.

الملك إلى أن توفي سنة ٩٠١ هـ ، فأقام في الملك تسعاً وعشرين سنة وأربعة أشهر وعشرين يوماً . فازدهرت البلاد باستقراره في الملك هذه المدة ، وشَيَّدَ في جميع أنحاء المملكة كثيراً من العمارات والبنايات ،وزاد في عمر الدولة المملوكية نحو ربع قرن بحسن سياسته وإدارته ، وجنَّبَ البلاد كثيراً من الكوارث والفتن .

تولّى الملك وقد طمعت في البلاد الإمارات والدول المجاورة ، فلقن الكلَّ دروساً قاسية ، وأرجع إلى الدولة هيبتها ومكانتها . وقد فرغ بيت المال في زمانه من المال ، فما كان يخرج من حرب حتى يدخل في حرب ثانية ، فقد جهَّزَ ثلاث حملات إلى شاه سوار ، وحملة إلى حسن بك الطويل ، وخامسة لتأديب أمير عرب آل الفضل . ثم عدة حملات إلى علي دولات (علاء الدولة) ، ثم اشتبك بقتال عنيف مع السلطان بايزيد العثماني كان النصر حليفه في معظم المعارك حتى وقع الصلح بينهما .

وإذا كانت دولة المماليك قد انقرضت سنة ٩٢٣ هـ أي بعد وفاته بواحد وعشرين عاماً ، فإنها لم تستطع الحياة بعده طويلاً ، ويكون حكمنا بأنه زاد في عمر هذه الدولة نحو ربع قرن صحيحاً .

وفي أيامه كانت رحلة يَشْبَك الدوادار والقبض على شاه سوار .

التجريدة الثانية لقتال شاه سوار :

تولى الملك الأشرف قايتباي في السادس من رجب سنة ٨٧٢ هـ ، وفي هذا الشهر أخذ في أسباب تعيين تجريدة إلى شاه سوار بن دلغادر ، وقد قويت شوكته والتف عليه عسكر ثقيل من التركمان وغيرهم وأظهر العصيان والمخامرة[٣٢] . فخشي السلطان من أمره وأراد أن يأخذ أموره بالقوة ، وكان يمكنه أن يرسل إلى سوار

---

(٣٢) المخامرة بمعنى الخيانة .

خلعة وهدية وتخمد هذه الفتنة ، فلم يوافق على ذلك وأخذ الأمور بالعترسة[٣٣] .

فعيَّنَ له تجريدة ثقيلة ، وعين بها الأمير قُلقسيز الأتابكي ، وبردبك هجين أمير سلاح ، ونانق رأس نوبة النُوَب[٣٤] ، وتمر حاجب الحجاب[٣٥] ، وعدة أمراء طبلخانات[٣٦] وعشرات[٣٧] ، وعدة وافرة من الجند .

عرض السلطان العساكر بسبب التجريدة لسوار ، واستمر جالساً على الدَّكة[٣٨] وهو يعرض ويكتب إلى ما بعد العصر .

ثم ضيق على أولاد الناس[٣٩] وألزمهم بالسفر أو يقيموا لهم بدلاً ، فصار يأخذ من كل واحد لا يرغب بالسفر مئة دينار كبديل عن السفر ، وقرر على جماعة من المباشرين[٤٠] جملة مال ، وأمرهم بإحضاره بسرعة ليستعين به على نفقة العسكر .

فلما تكامل حضور المال حملت النفقات للأمراء المعينين للسفر ، فحمل للأتابكي[٤١] جاني بك قُلقسيز أربعة آلاف دينار ، ثم حمل لكل من الأمراء

---

(٣٣) العترسة : تستعمل هذه الكلمة العامية في دمشق والمراد بها : العظمة والكبرياء .

(٣٤) رؤوس النوب : أربعة أمراء يرأسهم مقدم ألف يشرفون على المماليك السلطانية .

(٣٥) حاجب الحجاب : أو صاحب الحجوبية الكبرى وينظر في الخصومات بين الجند وخلافاتهم في إقطاعاتهم (المواعظات للمقريزي ٢/٢١٩) .

(٣٦) الأمراء الطبلخانات : هم الأمراء الذين يصح أن تضرب الطبول على أبوابهم ، ويكون في خدمة الأمير منهم ٤٠ ـ ٧٠ مملوكاً ، ويلي المقدم ألف في المرتبة .

(٣٧) الأمراء العشرات : الأمراء الصغار في الجيش المملوكي ويكون تحت إمرة الواحد منهم عشرة جنود .

(٣٨) الدَّكّة : المصطبة .

(٣٩) أولاد الناس : هم أولاد المماليك العتقاء .

(٤٠) المباشرون : هم الموظفون الإداريون في الدولة المملوكية .

(٤١) الأتابك : قائد الجيش المملوكي .

المقدمين[٤٢] ثلاثة آلاف دينار ، ولكل من الأمراء الطبْلخانات خمسمائة دينار ، وللأمراء العشرات لكل واحد مائتا دينار ، وأنفق على كل جندي من المماليك مئة دينار .

خروج التجريدة إلى سوار

في اليوم الثاني عشر من شهر شعبان سنة ٨٧٢ هـ ، خرج أمراء العسكر المعينون للتجريدة ، فكان لهم يوم مشهود . وهذه أول تجريدة خرجت من مصر إلى شاه سوار[٤٣] وأنفق السلطان جامكية[٤٤] أربعة أشهر معجلاً وصرف الكسوة ، وأعطى لكل واحد منهم جملاً وأرضى العسكر بكل ما يمكن .

اندحار هذه الحملة

أخفقت هذه الحملة إخفاقاً مزرياً ، ففي شهر ذي القعدة سنة ٨٧٢ هـ جاءت الأخبار إلى القاهرة بأن العسكر الذي توجه إلى شاه سوار قد انكسر كسرة شنيعة ، وأسر قائد الحملة الأتابكي قُلقسيز ، وقتل جماعة من الأمراء والجند يعسر إحصاؤهم ، وكان غالب العسكر من الخشقدمية[٤٥] .

وقتل من الأمراء المقدمين : الأمير بردبك هجين المحمدي الظاهري أمير سلاح من مماليك الظاهر جَقْمَقْ ، وجرح الأمير تمر حاجب الحجاب .

---

(٤٢) الأمير المقدم : أعلى منصب بعد الأتابك في الجيش المملوكي يخدمه مئة مملوك وفي أمرته ألف جندي .

(٤٣) المراد هنا بأول تجريدة في عهد قايتباي ، وإلا فهي الثانية . والأولى كانت في عهد السلطان خوشْقدم وهي التي أسر فيها قائدها بردبك البجمقدار (والنص هنا لابن إياس في بدائع الزهور) .

(٤٤) الجامكية : كلمة فارسية الأصل تعني الراتب الشهري .

(٤٥) الخشقدمية : هم المماليك من مشتريات السلطان السابق خوشْقدم .

وقتـل من الأمراء العشرات عـدد كبير ، ولم يضبـط عـدد من قتـل من الخـاصكيـة[٤٦] والمماليـك السلطـانيـة[٤٧] ونهب بَرْكُ[٤٨] الأمراء والعسكر قـاطبـة . والـذي سلم دخل حلب في أسوأ حـال من العري والمشي . وقوي أمر سوار وتوجـه إلى عينتاب[٤٩] وحاصر قلعتهـا ومَلَـك البلـد وأشيع بين النـاس أن ابن عثمان ملـك الروم[٥٠] أرسل نجدة من عسكره إلى سوار .

ثم وصل إلى القـاهرة قـانصوه الجيلاني الحـاجب بـدمشق وعلى يـده مكاتيب أزبـك نـائب الشـام يخبر فيهـا بكسر العسكر ودخولهم حلب وهم في أسوأ حـال ، وأن أزبـك نـائب الشـام دخل حلب وهـو مجروح في وجهـه ، وليس لـه بَرْك ولا قماش ولا مماليك ، ودخل نائبا حلب وطرابلس على هـذا الوجـه ، ودخل غـالب العسكر عرايا مشاة .

وكانت هذه الوقعة يوم الاثنين سابع ذي القعدة سنة ٨٧٢ هـ .

فلما وردت هـذه الأخبـار مـاجت القـاهرة وحـار السلطـان في أمره ، وكان يظن أن سواراً لا يقوى على عسكره لكثرته .

---

(٤٦) الخاصكية : المماليك الأخصـاء بـالسلطـان ، يـدخلون عليـه دون إذن ، ويخصهم بـالمزيـد من الأعطيات لضمان إخلاصهم .

(٤٧) المماليـك السلطـانيـة : هم المماليـك الـذين يشتريهم السلطـان أو يبقيهم من ممـاليـك السلطـان السابق .

(٤٨) البَرْك : الأمتعة الخاصة .

(٤٩) عينتاب : بلدة في جنوب تركيا قرب الحدود السورية فيها قلعة صغيرة تشبـه قلعـة حلب وفي جنـوبهـا قلعتـان إحـداهمـا تعرف ببرج الرصـاص والأخرى بتـل بشـار (انظر مـوقعهـا على المصور ١) .

(٥٠) ملك الروم : لقب أطلقه ابن إياس على السلطان العثماني . وكان السلطان بـايزيـد الأول قـد طلب من الخليفة العباسي إعطاءه لقب سلطان الروم سنة ١٣٩٤ م وقد منحه الخليفة ذلك .

ثم جاءت الأخبار بأن سواراً سجن قلقسيز في جب ، وأن عسكر سوار قوي بما نهبه من عسكر المماليك من خيول وسلاح وبَرْك ، وقد عزم سوار على الزحف إلى حلب .

عقد مجلس الدولة

لما تحقق السلطان من صحة أخبار ما تقدم ، أمر بعقد مجلس في القلعة ، فحضر الخليفة المستنجد بالله يوسف ، والقضاة الأربعة وهم : ولي الدين الأسيوطيّ الشافعيّ ، ومحب الدين بن الشحنة الحنفي ، وحسام الدين بن حريز المالكي ، وعز الدين الحنبلي ، ودعي شيخ الإسلام أمين الدين الأقصرائي ، ومشايخ من العلماء ، وحضر سائر الأمراء ، وكان هذا المجلس بالحوش السلطاني .

فلما تكامل المجلس قام القاضي أبو بكر بن مزهر كاتب السر وتكلَّم عن لسان السلطان ، ووجه الخطاب إلى الخليفة والقضاة ومشايخ العلم بما معناه من كلام طويل :

إنَّ بيت المال مشحوت من المال ، وإنَّ سواراً الباغي قد استطال على البلاد وقتل العباد ، ولا بد من خروج تجريدة عسكر لتحمي بلاد السلطان ، وإنَّ العسكر يحتاج إلى نفقة وليس في بيت المال شيء ، وإنَّ كثيراً من الناس معهم زيادة في أرزاقهم ووظائفهم ، وإن الأوقاف قد كثرت على الجوامع والمساجد ، وإن قصد السلطان أن يبقي لهم ما يقوم بالشعائر فقط ، ويُدخل الفائض إلى الذخيرة .

فمال الخليفة وقضاة الجاه إلى شيء من معنى الإجابة إلى ذلك .

وبينما هم على ذلك إذ حضر شيخ الإسلام أمين الدين الأقصرائي الحنفي ، وكان قد تأخر عن الحضور . فأرسل خلفه السلطان . فلما حضر أعاد عليه كاتب السر الكلام الذي وقع في أول المجلس .

فلما سمع هذا الكلام أنكره غاية الإنكار وقال في الملأ من ذلك المجلس :

« لا يحل للسلطان أن يأخذ أموال الناس إلا بوجه شرعي ، وإذا نفد جميع ما في بيت المال يُنْظَر إلى ما في أيدي الأمراء والجند وحلي النساء فيأخذ منه ما يحتاج إليه ، وإذا لم يوفِّ بالحاجة ففي ذلك ينظر في المهم إن كان ضرورياً في المنع عن المسلمين حلَّ ذلك بشرائط متعددة ، وهذا هو دين الله تعالى ، إن سمعتَ آجرك الله على ذلك ، وإن لم تسمع فافعل ما شئت ، فإنا نخشى من الله تعالى أن يسألنا يوم القيامة ويقول لنا : لم لا نهيتموه عن ذلك وأوضحتم له الحق . وإن السلطان إذا أراد أن يفعل شيئاً يخالف الشرع فلا يجمعنا . وبدعوة فقير صادق يكفيكم الله مؤونة هذا الأمر كله » . ثم قام .

فانْجَبَهَ منه السلطان وانفض المجلس من غير طائل وكثر القال والقيل ، وشكر الأمراء وغالب الناس الشيخ أمين الدين على ذلك ، وكثر الدعاء في ذلك اليوم للشيخ أمين الدين ، وعُدَّ هذا المجلس من النوادر .

التجريدة الثالثة

وفي شهر ربيع الأول سنة ٨٧٣ هـ ، أمر السلطان الأمير أزدمر الطويل الإينالي بأن يخرج ومعه خمسمائة مملوك من المماليك السلطانية ، وأن يقيم بحلب لحفظ البلاد الحلبية إلى أن تحضر التجريدة ، وكان قد بلغ السلطان بأن عسكر سوار نزل قلعة درندة[٥١] وحاصرها ، فبادر الأمير أزدمر وخرج في قلب الشتاء ليحفظ حلب .

وجاءت الأخبار أن سواراً أطلق الأتابكي جاني بك قُلْقسيز ، وقد وصل إلى

(٥١) درندة : بلدة في وسط تركيا إلى الشمال الغربي من ملاطية لها ذكر في الفتوحات التي جرت في العهد الأموي (انظر موقعها على المصور ١) .

قرب حلب ، وأن الأمير قانم طاز الأشرفي أحد مقدمي الألوف بحلب مات وهو في أسر سوار ، وكان موصوفاً بالشجاعة والفروسية .

ثم أنفق السلطان على العسكر المعين للتجريدة إلى حلب وأعطى لكل مملوك مئة درهم ، وأرسل نفقات الأمراء المعينين ، فحمّل لأزدمر الطويل ستة آلاف دينار[٥٢] ، ولقجماس الطويل أحد أمراء الطبْلخانات خمسمائة دينار ، وللأمراء العشرات مائتي دينار لكل منهم . فبلغ مجموع ما صرف على هذه التجريدة للأمراء والجند وهم نحو خمسمائة مملوك ما يزيد على مائتي ألف دينار ، وخرج هؤلاء ومن معهم من الجند في أوائل الشتاء ليقيموا في حلب .

عرض التجريدة

وفي شهر جمادى الآخرة سنة ٨٧٣ هـ ، عرض السلطان العسكر ، وأخذ في أسباب خروج العسكر إلى سوار ، وهي التجريدة الثانية في عهده ، فعيّن باش العسكر الأتابكي أزبك من ططخ ومعه من الأمراء الكبار : قرقماس الجلب أمير مجلس ، وسودون القصروي رأس نوبة النوب ، وتمر حاجب الحجاب ، وقراجا الطويل الإينالي .

ومن الأمراء الطبْلخانات : خاير بك من حديد ، وجاني بك الزيني ، ومن الأمراء العشرات زيادة على العشرين أميراً .

ثم رسم لأولاد الناس : من أراد السفر فليسافر ، ومن لا يسافر يحمل إلى بيت المال مئة دينار ويقدمها بدلاً عنه وينطبق هذا على من له جامكية أو إقطاع . ومن ليس له إقطاع وله جامكية ألف درهم يحمل خمسة وعشرين ديناراً .

---

(٥٢) يعادل الدينار الذهبي القديم نصف ليرة ذهبية انكليزية في يومنا هذا ، وكل دينار عشرون درهماً . وأطلق عليه في عهد المماليك اسم دينار أو أشرفي .

ثم أنفق السلطان على العسكر : لكل مملوك مئة دينار ، ولكل أميرٍ مقدَّمٍ ألف دينار ، وحمل للأمراء الطبْلخانات لكل واحد خمسمائة دينار ، وللأمراء العشرات لكل واحد مئتي دينار . فكان جملة ما صرف على هذه التجريدة نحو أربعمائة ألف دينار .

اعتذار الأمراء عن السفر :

في يوم الموكب صعد قرقماس الجلب إلى القلعة ، وطلب من السلطان الإعفاء من السفر ، وأظهر العجز وأن يكون طرخاناً(٥٣) في أي مكان يختاره السلطان ، فلم يُجَبْ إلى ذلك ، وخاشنه السلطان في اللفظ وألزمه بالسفر وأكد عليه .

فلما نزل إلى داره كثر القيل والقال بأن ستكون فتنة . فلما بلغ ذلك السلطان لم يتأثر ، ونزل إلى خليج الزعفران وأقام به إلى آخر النهار ، ثم عاد إلى القلعة وبطلت تلك الإشاعة .

وفي رجب سنة ٨٧٣ هـ ، حضر من البحيرة(٥٤) الأتابكي أزبك قائد هذه التجريدة ، فلما نزلت النفقة تمنع من السفر وزعم أنه لا يطيق مماليك السلطان إذا عمل باش العسكر ، فلا زال يتلطف السلطان به حتى أجاب إلى السفر وقبل منه النفقة .

ثم أكمل السلطان تفرقة النفقة على العسكر المعين إلى التجريدة ، وابتدأ بتفرقة الجمال ثم عجَّل لرجال الجيش جامكية أربعة أشهر ، وأعطاهم الكسوة أيضاً وأرضاهم بكل ما يمكن .

---

(٥٣) الطرخان : المتقاعد المرضي عنه .

(٥٤) البحيرة : يقصد به الإقليم الممتد إلى الشمال الغربي من دلتا النيل حتى بحيرة مريوط الواقعة خلف مدينة الاسكندرية والتسمية قديمة وما زالت مديرية البحيرة من جملة التقسيمات الإدارية في مصر ومركزها دمنهور ، (المصور ٢ في الصفحة ٥٢ من هذا الكتاب) .

خروج التجريدة والمتاعب

ووقع يوم تفرقة الجمال نادرة غريبة ، وهي أن الهجانة لما أحضروا الجمال وساقوها إلى الميدان تزاحمت عند باب الميدان وقت دخولها فمات منها في ساعة واحدة نحو ثلاثمائة بعير ، فتشاءم الناس لذلك ، وصرحوا بعدم نصرة العسكر وكذلك جرى .

خرج العسكر المعين إلى سوار في تجمل زائد ، وطُلّبوا[٥٥] أطلاباً حافلة ، فخرج الأتابكي أزبك ومن معه من العسكر والأمراء ، وانتشر الطاعون والتجريدة خارجة والعسكر في غاية الخوف على أولادهم وعيالهم ، ومات في أثناء الطريق جماعة كثيرة بعد خروجهم من الريدانية .

وفي ذي القعدة سنة ٨٧٣ هـ ، جاءت الأخبار من حلب بأن العسكر لما وصل أخذ باب المَلِك[٥٦] وأنه في استظهار على العدو سوار .

ثم جاءت الأخبار من نائب حلب بقتل مال باي الأقطع أخي سوار وجماعة كثيرة من عسكره ، فأُرسِلَ رأس مال باي الأقطع ومعه رأسان من رؤوس أمرائه ، فلما أحضرت تلك الرؤوس طيف بها في القاهرة ، ثم علقت بباب زويلة وباب النصر .

وجاءت الأخبار بموت خاير بك البهلوان وكان أحد الأمراء بدمشق ، قتل هو وجماعة من العسكر في واقعة مال باي أخي سوار .

كسر التجريدة

في ذي الحجة سنة ٨٧٣ هـ حضر تاني بك الظاهري أحد رؤوس النوب ،

---

(٥٥) الطُلْب : الفرقة من الجيش .

(٥٦) باب الملك : مضيق ضيق عند عقبة بغراص في جبال الأمانوس بلواء اسكندرونة شمال غرب حلب (انظر المصور ٤ في الصفحة ٧٣ من هذا الكتاب) .

وكان جملة من خرج في التجريدة ، فأخبر بكسر العسكر ورجوعه من حلب ، وهذه ثاني كسرة وقعت لعسكر مصر مع سوار في عهد السلطان قايتباي .

فلما تحقق السلطان ذلك اضطربت أحواله وماجت القاهرة بمن فيها .

وكان سبب كسر التجريدة أن سواراً تحيل عليهم حتى دخلوا في مواضع ضيقة بين الأشجار ، فخرج عليهم السواد الأعظم من التركمان بالقسي والنشاب والسيوف والأطبار[٥٧] فقتلوا من العسكر ما لا يحصى عددهم ، وأخبر تاني بك بقتل الأمير قرقماس الجلب ، ويعرف بقرقماس من يَشْبَك خجا الأشرفي ، وكان أميراً جليلاً حشماً رئيساً[٥٨] ... وأخبر بقتل جماعة من الأمراء وعَدَّدَهم .

ثم قال : وأما من قتل من الجند والمماليك السلطانية ومشايخ عربان نابلس والعشير والتركمان والغلمان فما أمكن ضبطه .

وكانت هذه من الواقعات المشهورة التي لم يسمع بمثلها ، فلما شاع بين الناس ذِكْرُ من قتل من الأمراء والعسكر ، عَمَّ النعي في كل حارة ليلاً ونهاراً مثل أيام الوباء ، فزاد قلق الناس من سوار ، ودخل الوهم في قلوب العسكر مثل أيام تيمورلنك ، وصاروا يرعدون من ذكره ، وفي هذه الوقعة يقول بعض الشعراء :

يا رب إن سواراً قد بغى وبه ... قد أصبح الناس في ضيق وفي قلق
فاكسر سواراً ودعه في السلاسل في ... خواتم الأمر يستعصي من الحلق

وقال آخر :

إن سواراً قد غدا مخلخلاً ... عسكره قد حلَّ في دار البوار
يا رب شتت شمله حتى نرى ... خواتم الأمر لنا كسر سوار

---

(٥٧) الأطبار : جمع طبر وهي آلة حربية تشبه الفأس .

(٥٨) انظر ترجمته في الضوء اللامع ٢١٨/٦ .

ثم بـدأ تـوافـد العسكر إلى القـاهرة وهم في أنحس حـال من العري والجـوع ، بعضهم مجروح وبعضهم ضعيف ، وكان البعض منهم يدخل وهو راكب على حمـار أو جمل ، أو يدخل ماشياً وهو عريان ، ولم يلاقوا في هذه التجريدة خيراً .

وفي صفر جـاءت الأخبـار من حلب بـأن قرقـاس الصغير نـائب ملطيـة[٥٩] تقاتل مع عسكر سوار فكان بينهما واقعة عظيمـة ، قتل فيهـا من عسكر سوار أكثر من خمسمائة إنسان وأسر جماعة كثيرة من أمرائه وأقاربـه ، وكان ذلـك بمكيـدة من قرقماس كاد بها سوار .

وفي ربيع سنة ٨٧٤ هـ جـاءت الأخبـار بـأن ابن رمضـان أمير التركمان أخـذ جماعة من التركمان وكبس على أعوان سوار وأخذ منهم قلعة سيس ، فسر السلطان بهذا الخبر وأرسل إلى ابن رمضان خلعة سنية .

وفي رمضان سنة ٨٧٤ هـ حضر الأتابكي أزبـك ، وكان مقيمـاً بحلب من حين كسر العسكر ، فدخل القاهرة هو ومن بقي معه من الأمراء والعسكر ، وصحبتـه شاه بضاع أخو سوار الذي أخذ منـه سوار البلاذ ، فلمـا صعـد الأتـابكي أزبـك إلى القلعة خلع عليه السلطان وعلى من معه من الأمراء وعلى شاه بضـاع ، وكان معـه يحي كاوِرْ أخو سوار أيضاً وكان قد أُسِرَ من قبل . فلما مثل بين يدي السلطان أمر بسجنه في البرج الذي بالقلعة .

وفي التاريخ المتقدم صعد قاصـد من قبل سوار إلى القلعـة وصحبتـه هـديـة للسلطان ، فلم يؤذن له في صعودهـا معـه ، وحضر بمكاتبـة سوار ، فكان مضمونهـا أنه يطلب الصلح من السلطان لكن على شروط منه ، فلم يقبلها السلطان . ومن

---

(٥٩) ملطيـة : مـدينـة في وسـط تركيـا على نهرالفرات قرب التقـاء نهري قره‌صو ومرادصو اللـذين يشكلان النهر المذكور (انظر موقعها على المصور ١) .

هذه الشروط : أن يكتب له السلطان تقليداً بأمرية الأبلستين[٦٠] ، وأن ينعم عليه بتقدمة ألف بحلب ، فإن فعل ذلك يسلم عينتاب للسلطان . وقد طال الكلام بين القاصد والسلطان ، ولم ينتظم الأمر بينهما في شيء من الصلح ونزل القاصد بغير خلعة .

جمع الأموال لأجل تجريدة رابعة

في ذي القعدة سنة ٨٧٤ هـ طلب السلطان مالاً من الست سارة والدة القاضي ناظر الخاص[٦١] يوسف بن جكم ليساعده على خروج التجريدة إلى سوار ، فتشكت من ذلك وأظهرت العجز ، فحلف السلطان « وحياة رأسه لا يأخذ منها أقل من مئة وخمسين ألف دينار » ، وصمم على ذلك ، وقرر معها أنها لا تبيع ملكاً ولا ضيعة ولا بستاناً ، ولم يستطع أحد من الأمراء ولا غيرهم أن يخفض عنها شيئاً من ذلك ، فاستمرت تورد المال على حكم ما قرره عليها عدة شهور حتى غلقت ذلك القدر بالتمام والكمال ، ولم تبع ضيعة ولا ملكاً . فلما غلقت المال جميعه أرسل السلطان خلفها ، فلما حضرت قام إليها وعظمها وخلع عليها كاملية مخمل بسمور وأكرمها غاية الإكرام ونزلت إلى دارها مكرمة معظمة .

وفي الشهر المحرم سنة ٨٧٥ هـ جاءت الأخبار بأن شاه سوار تقاتل مع ابن رمضان أمير التركمان ، فانكسر ابن رمضان ومَلَكَ سوار قلعة إياس[٦٢] فانزعج السلطان لهذا الخبر وأخذ في أسباب تجريدة إلى سوار .

---

(٦٠) الأبلستين : وتسمى ألبستان وتقع على سفح جبل ألبستان من الغرب ، وهي إلى الشمال من مرعش ، وكانت عاصمة الإمارة الدلغادرية (انظر موقعها على المصور ١) .

(٦١) ناظر الخاص : هو الموظف المختص بالنظر في الأموال الخاصة بالسلطان .

(٦٢) إياس : بليدة واقعة على الساحل الشمالي الغربي لخليج اسكندرونة ، كانت فيما مضى مدينة كبيرة ، يدل على ذلك خرائبها وقنواتها وحماماتها (انظر موقعها على المصور ١) .

وفيه أيضاً عين السلطـان الأمير إينـال الأشقر[٦٣] رأس النوب ، ومعـه عـدة من الأمراء الطبْلخانات والعشرات وعدة من الجند بسبب قتال سوار ، وقـد خشي السلطان من سوار أن يكبس حلب على حين غفلة ، فأرسل هذه التجريدة لحلب إلى أن يرسل تجريدة ثقيلة بعد ذلك .

فلما عينه بعث إليه النفقة من يومه وقد حَمَّلَ إليه اثني عشر ألف دينـار ، ثم أنفق على بقية الأمراء والجنـد وألزمهم الخروج بسرعـة ، فخرجوا عقيْب ذلـك من غير أطلاب ، وقد عزَّ ذلك على إينال الأشقر لكونه خرج في قلب الشتاء .

وفي شهر ربيـع الآخر سنـة ٨٧٥ هـ جـاءت الأخبـار من حلب بـأن حسن الطويل تحرك لأخذ البلاد الحلبية ، وأنه أظهر العـداء للسلطـان ، وقـد طمع في عسكر مصر بموجب مـا فعلـه معهم سـوار ، فثـار السلطـان لهـذا الخبر وقصـد أن يخرج بنفسه إلى حلب .

ثم عين السلطـان القـاضي شرف الـدين الأنصـاري وكيل بيت المـال[٦٤] بـأن

---

(٦٣) انظر ترجمته في الضوء اللامع (٣٣٠/٢) .

(٦٤) شرف الدين الأنصاري : هو شرف الدين موسى بن علي بن سليمان التتائي القـاهري ، ولـد في سنة ٨٢٠ هـ في تتا (قريـة من المنوفيـة) ونشـأ فيهـا وحفـظ القرآن ثم دخل الأزهر واشتغل بالعلم مدة ، ثم بالتجارة ثم بـالحكومـة ، وولي وظـائف عـدة منهـا : نظر الجوالي ، والكسوة ، والبيمارستان ، وخانقاه سعيد السعداء ، وجامع عمرو بن العـاص ، ووكالـة بيت المـال ، ونظر الخاص . وزاد تعبه في آخر الأمر بسبب ما كان يفوّض إليه في مقدمات التجاريـد فما وسعـه إلا الإستئـذان في السفر لمكة ، وتـوفي فيهـا سنـة ٨٨١ هـ . (انظر الضـوء الـلامـع ١٨٤/١ ـ ١٨٦) .

ولفظ القاضي في عهد المماليك كان يطلق على كثير من موظفي الدولة وخاصة أرباب الشؤون المالية .

يخرج إلى جبل نابلس لجمع العشير[٦٥] بسبب التجريدة إلى سوار ، فخرج هو ودولات باي الخازندار[٦٦] .

التجريدة الرابعة لقتال سوار ـ الأمير يَشْبَك الدوادار[٦٧]

وفي جمادى الأولى سنة ٨٧٥ هـ عيَّن السلطان تجريدة ثقيلة إلى سوار ، وعين بها من الأمراء المقدمين : يَشْبَك دوادار كبير باش العسكر ، وتمراز الشمسي ابن أخت السلطان أحد المقدمين ، وخاير بك من[٦٨] حديد الأشرفي ، وأزدمر الطويل الإبراهيمي ـ ولم يتم له السفر ـ ، ثم عين قانصوه الخسيف الإينالي ـ ولم يتم له السفر ـ وعين تمر حاجب الحجاب ـ ولم يتم له السفر ـ وعين عدة أمراء طبلخانات وعشرات وعرض الجند وكتب منهم عدة أمراء وأعلمهم بأن السفر سيكون بعد أن ترجع الخيل .

وفي رجب سنة ٨٧٥ هـ جاءت الأخبار من حلب بأن سواراً قد استولى على سيس وقلعتها ، ففزع السلطان لهذا الخبر .

وفي شعبان عين الأمير برسباي قرا أحد المقدمين بأن يخرج جاليش[٦٩] العسكر إلى سوار قبل خروج يَشْبَك ، فخرج ومعه عدة من الجند ، وبعث إليه السلطان أربعة آلاف دينار .

---

(٦٥) العشير : عشائر العرب .

(٦٦) الخازندار : المشرف على خزائن السلطان وما تحويه من مال ومتاع .

(٦٧) الدَّوادار : اسم مركب من كلمتين دواة ودار ويكون معناه ماسك الدواة وهو منصب في الدولة المملوكية يحمل صاحبه الدواة للسلطان ، ويقوم بإبلاغ أوامره لأصحاب العلاقة ، وتدعى وظيفة الدوادارية الكبرى ، كما أطلق اللقب على كاتب السر أو صاحب القلم .

(٦٨) كثر في أسماء المماليك مثل هذا الاسم منسوباً بمن إلى اسم آخر والمراد أن خاير بك المذكور هو من مماليك أو من عتقاء حديد .

(٦٩) جاليش : تقرأ شاليش وهو لواء في رأسه خصلة من الشعر تحمل في مواكب السلطان وقت الحرب ، كما تطلق على مقدمة الجيش .

وفي شوال كان خروج العسكر المعيَّن إلى سوار فخرج الأمير يَشْبَك الدوادار الكبير ، وأزدمر الاستادار[٧٠] وكاشف الكشاف[٧١] وباش العسكر ، فكان في غاية العز والعظمة . وقد فوَّض إليه السلطان أمور البلاد الشامية والحلبية وغير ذلك من البلاد ، وجعل له الولاية والعزل في جميع أحوال البلاد . وكتب معه خمسمائة علامة[٧٢] ويكتب على بياض ، وجعل له التصرف في جميع النواب والأمراء ما خلا نائب حلب ونائب الشام فقط .

فكان له لما خرج يوم مشهود وطَلَّب طُلْباً حافلاً لم يُعْمل مثله قط ، وجرّ في طُلْبه عدة خيول ملبسة بركستوانات[٧٣] فولاذ مكفتة بالذهب ، وبركستوانات مخمل ملوَّن ، وصنع في رَنْكه[٧٤] صفة سَبع . وقد اقترح أشياء عجيبة غريبة لم يُسْبَق إليها ورسم لمماليكه بأن تخرج في الطُلْب باللبس الكامل ، وخرج صحبته الأمراء الذين تقدم ذكرهم ، ومن الجند نحو ألفي مملوك ، فرجَّت القاهرة لهم ، واستمرت الأطلاب تنسحب إلى قريب الظهر .

فلما كانت ليلة الرحيل نزل السلطان عند يَشْبَك وتكلم معه طويلاً ، ثم

---

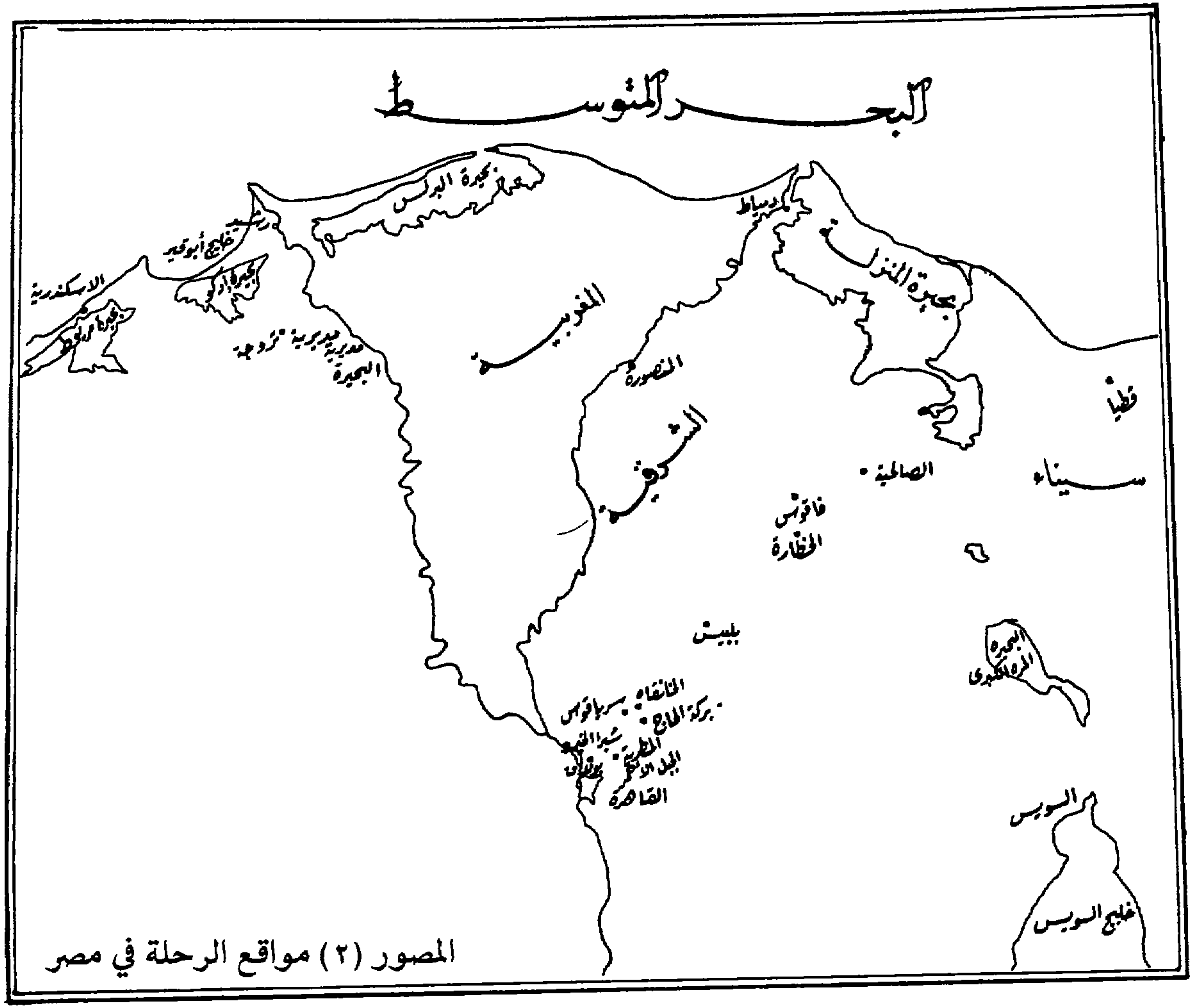
(٧٠) الاستادار : وظيفة موضوعها الإشراف على بيوت السلطان كلها من المطابخ والشراب خاناه والحاشية والغلمان ، وهو الذي يمشي بطلْب السلطان ، ويحكم في غلمانه وباب داره ، وله حديث مطلق وتصرف تام في استدعاء ما يحتاجه كل من في بيت السلطان من النفقات والكساوي وما يجري مجرى ذلك للمماليك وغيرهم .

(٧١) كاشف الكشاف : من يرأس الفرقة المكلفة بكشف أخبار العدو .

(٧٢) العلامة السلطانية : هي ما يكتب السلطان بخطه على صورة اصطلاحية خاصة ، وكان لكل سلطان علامة وتوقيع والمقصود هنا أوراق موقعة من السلطان يمليها يَشْبَك الدوادار بما شاء من الأوامر فتكون وكأنها صادرة عن السلطان .

(٧٣) البركستوان : غطاء أو درع يوضع على ظهر الفرس .

(٧٤) الرنك : الشعار .



المصور (٢) مواقع الرحلة في مصر

أخذ قلعة عينتاب من جماعة سوار ، وأن سواراً أخذ أولاده وعياله وماله وأودعهم بقلعة (زمنطو) وصار عنده طيرة من العسكر بخلاف العادة .

وفيه جاءت الأخبار بأن الأمير يَشْبَك أخذ من سوار ما كان استولى عليه من أدنة[٧٨] وطرسوس[٧٩] ، وتحارب مع جماعة سوار أشد المحاربة حتى طردهم من تلك البلاد وملكها .

وفي جمادى الأولى سنة ٨٧٦ هـ حضر محمد بن نائب بهسنا[٨٠] بمكاتبة يذكر فيها انحلال أمر سوار من الأمير يَشْبَك ، وأن عسكر سوار قد فلّ عنه ، وهو خائف من العسكر ، ثم أرسل الأمير يَشْبَك يطلب من السلطان نفقة للعسكر يتوسع بها ، فإن العليق كان هناك مشحوتاً ، فبعث السلطان مئة ألف دينار تفرق على العسكر هناك .

وفي جمادى الآخرة وصل قاصد من عند الأمير يَشْبَك الدوادار ، وعلى يده مكاتبة من يَشْبَك يذكر فيها أنه وقع بينه وبين عسكر سوار واقعة على نهر جيحان[٨١] وجرح فيها الأمير تمراز الشمسي في يده بسهم نشاب .

وكان أول من ألقى بنفسه في النهر تمراز ، فلما رآه العسكر رموا بأنفسهم في النهر خلفه ، فجرح وأغمي عليه فحملوه ورجعوا به إلى الوطاق .

---

(٧٨) أدنة = أذنة = أضنة : مدينة في جنوب تركيا تقع على نهر سيحان الذي يصب في خليج مرسين (انظر موقعها على المصور ١) .

(٧٩) طرسوس : مدينة تركية تقع إلى الجنوب الغربي من أدنة (انظر موقعها على المصور ١) .

(٨٠) بهسنا : بلدة تركية تقع إلى الجنوب الغربي من ملاطيا على أحد روافد نهر الفرات ولها قلعة خراب تشرف عليها (انظر موقعها على المصور ١) .

(٨١) نهر جيحان : ورد في بدائع الزهور لابن إياس ٦٥/٣ « نهر جيحون » والصحيح ما أثبتناه وهو نهر في جنوب تركيا بكيليكيا يصب في الساحل الشمالي لخليج اسكندرونة (انظر موقعه على المصور ١) .

ثم إن الأمير يَشْبَك ثبت وقت الحرب ، وزحف بالعسكر على عسكر شاه سوار ، وكان بين الفريقين ساعة تشيب منها النواصي . فانكسر عسكر سوار كسرة بليغة ، وقتل منهم ما لا يحصى عدُّه ، وكان النصر لعسكر مصر على عسكر سوار . فلما رأى سوار الكسرة عليه ، هرب في نفر قليل من عسكره وطلع إلى قلعة (زمنطو)[٨٢] واختفى .

فلما بلغ يَشْبَك أن سواراً في قلعة (زمنطو) حاصرها أشد المحاصرة ، ورمى عليها بالمدافع ، حتى كان من أمره ما سنذكره . فخلع السلطان على القاصد الذي جاء بهذه الأخبار والبشارة ، وكذلك خلع عليه الأمراء ، وانشرح السلطان بهذا الخبر .

وفي شوال جاءت الأخبار من عند يَشْبَك الدوادار بأن شاه سوار قد تلاشى أمره ، وفلَّ عنه غالب عسكره ، وأرسل يطلب الصلح من الأمير يَشْبَك على أن يكون نائباً عن السلطان في قلعة درندة ، وأنه يرسل ولده بمفاتيح القلعة ، فلم يوافق السلطان على ذلك وأصر على حضور سوار بنفسه لمقابلة السلطان .

القبض على سوار

وكان من ملخص أخبار القبض على سوار أنه لما طلع إلى قلعة (زمنطو) واختفى بها ، حاصره الأمير يَشْبَك الدوادار أشدَّ المحاصرة ، وقد فلَّ عن سوار عسكره ، وأراد الله خذلانه ، فأرسل بطَلَب الأمير تمراز الشمسي إلى قلعة (زمنطو) وصحبته القاضي شمس الدين بن أجا الحلبي قاضي العسكر .

---

(٨٢) قلعة زمنطو : لم نعثر على ذكر لهذه القلعة فيا بين أيدينا من المراجع . إلا أنه ورد في كتاب (جغرافي لغاتي) اسم (ضانتي) لنهر يجري في قضاء فكة ، ولعل هذه القلعة مبنية على طرف هذا النهر فسميت باسمه ، و لا يخفى أن الضاد في اللغة التركية تقرأ زاياً مضخمة ، فكلمة ضانتي تقرأ زمانتي .

فلما طلع الأمير تمراز إلى سوار واجتمع به ، تعلل بأنه يلبس خلعة السلطان ويقبّل الأرض ولا يقابل الأمير يَشْبَك ، فلم يوافقه الأمير تمراز على ذلك .

فقال له سوار : أنا قتلت من العسكر جماعة كثيرة ، وأخشى إذا نزلت إليهم أن يقتلوني . فقال الأمير تمراز : « ضمانك عليّ ، فما يصيبك شيء » . فما وافق سوار على نزوله من القلعة ، فقام الأمير تمراز والقاضي شمس الدين بن أجا من عنده والمجلس مانع .

فلما عاد الأمير تمراز بالجواب على الأمير يَشْبَك ، لم يوافق على ذلك ، وحاصر سواراً وضيق عليه ، ورمى عليه بالمدافع ، فما طاق سوار ذلك ، فأرسل يطلب الأمير تمراز والقاضي شمس الدين بن أجا ثانية على أن ينزل صحبتها .

فطلع إليه الأمير تمراز وابن أجا ، فطال بينهما المجلس .

وقيل إن سواراً أضاف الأمير تمراز وابن أجا بقلعة (زمنطو) ، فلما طال مكوثها عند سوار ، ماج العسكر على بعضه ، وأشيع بأن سواراً قد قبض على الأمير تمراز وابن أجا بالقلعة .

ومع مضي نصف النهار ، نزل الأمير تمراز والقاضي ابن أجا وصحبتها شاه سوار وهو في نفر قليل من عسكره ، فتوجه إلى وطاق الأمير يَشْبَك الدَوَادار ونزل عن فرسه ، ودخل على الأمير يَشْبَك في الخيمة ، فقام إليه ورحب به ، وأحضر إليه خلعة وألبسها له .

فلما أراد الانصراف من عنده ، قال الأمير يَشْبَك : امضِ إلى نائب الشام وسلِّمْ عليه ، وكان يومئذٍ برقوق نائب الشام .

فلما توجه إليه سوار نزل عن فرسه ، ودخل إليه وصحبته الأمير تمراز ، وعندما وقف سوار بين يدي برقوق ، قال له برقوق : من أنت ؟

قال له : أنا سوار .
قال برقوق : أنت سوار ؟
قال : نعم أنا سوار .

فجعل برقوق يكرّر عليه هذا الكلام ، فيقول له : نعم أنا سوار . ثم قال له برقوق : أنت الذي قتلت الأمراء والعسكر ؟ فسكت سوار .

ثم قال برقوق : أحضروا له خلعة . فأتوا إليه بخلعة وفي ضمنها جنزير ، فلما ألبسوها له وضعوا الجنزير في عنقه .

فلما رأى جماعة سوار أنه وضع في جنزير ثاروا على جماعة برقوق وسلوا سيوفهم ، وكان برقوق قد أكمن كميناً حول الخيمة ، وهم لابسون آلة الحرب . فهجموا على جماعة سوار وقطعوهم . ثم قبضوا على سوار وأدخلوه في بعض الخيام . فلما رأى الأمير تمراز ذلك شق عليه ما حدث وقال لبرقوق : « أنا نزلت بسوار من القلعة ، وحلفت له أنكم لا تشوشوا عليه ، فكيف يبقى أحد يأمن لكم ؟ » .

فأخرق برقوق بالأمير تمراز إخراقاً فاحشاً ، وربما لكمه ، فخرج تمراز من عند برقوق وهو غضبان .

وكان الأمير يَشْبَك قد حلف للأمير تمراز أنه إذا قابله سوار ، لا يقبض عليه ولا يشوش عليه .

فلما نزل إليه سوار نَدب برقوق إلى ما فعله بسوار وكان هذا عين الصواب ، ودَغ الأمير تمراز يغضب .

فلما تحقق العسكر من القبض على سوار قاموا على حمية وقصدوا التوجه إلى الديار المصرية .

هذا ملخص ما وقع في أمر القبض على سوار ، واستمر الأمير تمراز غاضب من الأمراء حتى دخل القاهرة .

ولما قبض على سوار خلع الأمير يَشْبَك على شاه بضاع أخي سوار وقرره عوضاً عن أخيه في أمرية الأبلستين .

وفي صفر سنة ٨٧٧ هـ دخل الأمير يَشْبَك دمشق وصحبته سوار ، فزينت له زينة حافلة ، وكان له يوم مشهود فأقام بالشام ثلاثة أيام ورحل عنها إلى غزة . وبنى برقوق نائب الشام بأعلى جبل قاسيون قبة سماها قبة النصر على سوار[٨٣] .

فلما سمع السلطان بهذا الخبر أمر بتبييض باب النصر وباب زويلة[٨٤] وضرب عليها الرنوك الذهب ، ثم أخذ في أسباب ملاقاة الأمراء . فكسى الأمراء المقدمين كل واحد أربع بدلات وجهز لهم ملاقاة إلى الصالحية[٨٥] .

وفيه أيضاً دخل الأمير يَشْبَك وبقية الأمراء والعسكر إلى الخانقاه السرياقوسية[٨٦] وصحبتهم سوار وإخوته وهم في زناجير ، فلما وصل الأمير يَشْبَك إلى الخانقاه خرج الأمراء وأرباب الدولة إلى ملاقاته ، ثم رحل من الخانقاه

---

(٨٣) راجع الصفحة الأولى من مقدمة هذا الكتاب ، والقلائد الجوهرية في تاريخ الصالحية ٣٦٤/١ طبع مجمع اللغة العربية بدمشق ١٩٨٠ .

(٨٤) باب زويلة : أحد أبواب القاهرة شهد أحداثاً عديدة وقد أعدم عنده الكثيرون . وللقاهرة خمسة أبواب : باب النصر - باب الفتوح - باب القنطرة - باب الخليج - باب زويلة .

(٨٥) الصالحية : قرية مصرية تقع إلى الشمال الشرقي من الدلتا جنوب بحيرة المنزلة ، سميت بالصالحية نسبة إلى الملك الصالح أيوب الذي اختطها في أول الرمل بين مصر والشام سنة ٦٤٤ هـ (انظر موقعها على المصور ٢) .

(٨٦) سرياقوس : من القرى المصرية القديمة في مصر ، وهي الآن مركز شبين القناطر بمديرية القليوبية ، واقعة على الشاطئ الشرقي لترعة الإسماعيلية في شمال القاهرة وعلى بعد ١٨ كم منها (تعليقات النجوم الزاهرة طبع القاهرة ٧٩/٩ وانظر موقعها على المصور ٢) وراجع التعليقة رقم ٧٥ عن الخانقاه السرياقوسية (المصور ٢) .

ونزل الريدانية ، فخرج القضاة وأعيان مشايخ العلماء .

ثم إن السلطان نادى في القاهرة بالزينة ، فزينت زينة حافلة ، ورجت القاهرة لدخول سوار حتى بلغت أجرة كل بيت على الشارع أربعة أشرفيات ، وأجرة كل دكان أشرفي ذهب بسبب الفرجة على سوار .

ولما كان يوم الاثنين ثامن عشر ربيع الأول سنة ٨٧٧ هـ دخل الأمير يَشْبَك الدوادار إلى القاهرة وصحبته شاه سوار ، وكان الأمير تمراز الشمسي قد دخل إلى القاهرة بمفرده وهو غاضب بسبب ما حصل له مع برقوق نائب الشام لأجل قبضه على سوار .

ثم إن سواراً أدخل أمام الأمير يَشْبَك وهو راكب على فرس ، وعليه خلعة تماسيح على أسود ، وعلى رأسه عمامة كبيرة ، وهو في زنجير طويل ، وقد ركب إلى جانبه أحد الأمراء العشرات يقال له تنم الضبع وهو مشكوك مع سوار في الزنجير . وكان أمام سوار إخوته وأقاربه وأعيان من قبض عليهم من أمرائه ممن نزل معه من قلعة (زمنطو) فكانوا نحو عشرين إنساناً ، وهم راكبون على أكاديش وعليهم ملاليط[٨٧] بيض ، وعلى رؤوسهم عمائمهم وهم في زناجير ومشكوك معهم جماعة من أعوان الوالي ، فشق الأمير يَشْبَك من القاهرة وهو في موكب حافل ، وأمامه الأمراء ممن كانوا معه في التجريدة وممن كان مقيماً في مصر . وسارت الأطلاب أمامه شيئاً بعد شيء ، واصطف الناس على الدكاكين ، وكان لهم يوم مشهود بالقاهرة لم يقع نظيره في الفرجة وكان من نوادر الزمان .

واستمر الأمير يَشْبَك في ذلك الموكب حتى طلع إلى القلعة ، فعمل السلطان الموكب في القصر الكبير ، وقبّل الأمراء الأرض ، ثم انتقل إلى الإيوان ، فجلس به ، وكان من حين جدد معالمه لم يجلس به سوى ذلك اليوم بقصد أن يعرض

---

(٨٧) ملاليط : جمع ملوطة وهو رداء واسع طويل يصنع من الحرير أو الكتان الرقيق .

سواراً هنـاك ، فتزاحمت عليـه النـاس ، فـانتقل السلطـان إلى الحوش وجلس على الدكة وطلب سواراً إليه .

فلما مثل بين يديـه وبخـه بـالكلام وعـاتبـه عتـابـاً لطيفـاً وسوار سـاكت لم يتكلم . ثم إن السلطان رسم بتسليم سوار إلى الوالي يَشْبَـك من حيـدر فتسلمـه هو وإخوتـه ، ثم أخرَجوا أخـاه يحيى كاور الـذي كان مسجونـاً في البرج ، وقـد قبض عليه قبل ذلك وتسلمه الوالي .

فلما تسلمهم والي القاهرة نزع الخلعة عنه في الحال وأحضروا لهم جمالاً فأركبوا سواراً على جمل ، وألبسوه ملوطة بيضاء ، وجعل في عنقه طوق حديد وفيـه عمود من حديد في أعلاه جرس حسبما قد رسم السلطان له بذلك .

ثم سمروا[٨٨] إخوتـه وأقـاربـه على جمـال وهم عرايـا ، ورؤوسهم مكشـوفـة ، وإخوة سوار الأربعة هم : أردوانـة الأحـدب ، وحـداد ، ويحيى كاور ، وسلمـان ، وجمـاعـة من أمرائـه ، فلمـا سمروهم وأركبـوهم على ظهـور الجمـال نـزلـوا بهم من الصليبة ، والمشاعلية تنادي عليهم : هذا جزاء من يخامر على السلطـان ، واستمروا على ذلك حتى وصلوا إلى بـاب زويلـة ، فشنكلوا[٨٩] سواراً وعلقوه في وسـط بـاب زويلـة ، وأخوه يحيى كاور عن يمينـه في الـدخول من بـاب زويلـة لصـوب بـاب النصر ، وأردوانة عن شماله كذلك ، وعلقوا حداداً داخل الباب .

وأمـا سلمـان فكان أمرداً مليح الشكل ، فرقَّ النـاس لـه ، فشفـع فيـه الأمير

(٨٨) التسمير : إحـدى طرق تنفيـذ حكم الإعـدام ، وهو نـوع من الصلب ، تربـط خشبـة كالصليب بعمـود ، ثم يصلب عليهـا المجرم وتضرب في أطرافـه المسـامير إلى الخشبـة ، فينزف دمـه حتى يموت .

(٨٩) الشنكلة : طريقة أخرى لتنفيذ حكم الإعدام يعلق فيها المحكوم بالإعدام بكلاليب معقوفة من تحت إبطيه وينزف حتى يموت .

يَشْبَك وخلّصه من الشنكلة ، ثم توجهوا بالباقي إلى باب النصر فوسطوهم[٩٠] جميعاً .

واستمر سوار معلقاً حتى مات هو وإخوته ، فأقاموا معلقين يوماً وليلة والناس ينظرون إليهم ، ثم أنزلوهم وغسلوهم وكفّنوهم وصلّوا عليهم ، وتوجهوا بهم إلى تلٍ عالٍ بالقرب من زاوية كهنبوش فدفنوهم هناك .

ثم قلعوا الزينة ، وخمدت فتنة سوار وكأنها لم تكن بعد ما ذهبت عليها أموال وأرواح ، وقتل جماعة كثيرة من الأمراء وكَسَرَ الأمراءَ ثلاث مرات ونهب بَرْكَهم .

وقد انتهكت حرمة السلطان عند ملوك الشرق وغيرهم ، حتى إن الفلاحين طمعوا في المماليك وتبهدلوا عندهم بسبب ما جرى عليهم من سوار وكادت أن تخرج المملكة عن الجراكسة ، وقد أشرف سوار على أخذ حلب فخطب له في الأبلستين ، وضربت هناك السكة باسمه ، ولولا لطف الله تعالى بالناس وأخذ آل سوار لفسدت أحوال المملكة جداً .

وكانت صفة سوار أنه كان جميل الصورة ، حسن الشكل ، مستدير الوجه ، أبيض اللون ، مشرب بحمرة ، أشهل العينين ، أسود اللحية ، معتدل القامة ، ضخم الجسد . وكان في عشر الأربعين من العمر ، وكانت مخايل الحشمة والرئاسة محصورة فيه . وكان شجاعاً بطلاً له سعد خارق فيما وقع له من النصرة على عساكر مصر غير ما مرة ، وكان من أعظم أولاد دلغادر ، وقد وقع له ما لم يقع لأحد من أجداده قبله[٩١] .

---

(٩٠) التوسيط : يعرى المحكوم بالإعدام من الثياب ، ثم يشد إلى خشبة مطروحة على الأرض ، ويضرب بالسيف تحت سرته بقوة ضربة تقسم جسمه إلى نصفين فتنهار أمعاؤه إلى الأرض .

(٩١) جمعت معلومات هذا الفصل من كتاب بدائع الزهور في وقائع الدهور لابن إياس تحقيق الأستاذ الدكتور محمد مصطفى .

رحلة الأمير يَشْبَك الدوادار



صورة قلعة مصياف

الجمعة وطلّب ولاقاه الأمير تمراز وخاير باك من المقدمين الذين كانوا تقدموه بشاش وقماش ، وكذلك نائب صفد وطرابلس ونائب حماة ، فألبس الثلاثة تشاريفاً كانت وصلت معه من المقام الشريف ، وأركبهم خيولاً من الاسطبلات الشريفة أيضاً كانت صحبته فخدموا على العادة .

وطلّب ودخل إلى حماة كما دخل إلى غزة من غير زيادة ، وكان يوماً مشهوداً ، ونزل بالقرب من المعترلة[١٢٩] على العادة ، وبها حضر الأمير محمود بن سقلسير وصحبته حمزة بن صقلسير نائب مصياف[١٣٠] بجمعهم ، فأخلع على الأمير محمود كاملية مفرية سموراً وعزل حمزة بن سقلسير وألبس طربل بن طوغان بن صقلسير مكانه ، وألبس حمزة نيابة حصن الأكراد[١٣١] وعزل نائبها ، وخلع على كلٍ منهما أطلسين وشاش بطرفين ، وهذا لم يتفق لأحد قبله من الباشات حرسه الله من كل عين لامة . ورسم على حاجب الحجاب خليل بن زويعة لمبلغ كان أحيل به / عليه ، فضمنه القاضي شرف الدين الأنصاري وصحبه معه إلى حلب في [ص١٩] الترسيم إلى أن يقوم بما عليه .

وفي نهار الاثنين جهّز ساعياً إلى الأبواب الشريفة بوصوله إلى حماة وورود كتاب نائب الشام ونائب حلب وبالأمور التي وقعت مفصلة .

وفي نهار الأحد وصل القاضي شرف الدين الأنصاري وصحبته الجمالي نائب القدس بخيله ورجله[١٣٢] وكذلك الشيخ حرب بن شبانه على أكمل أهبة كاملين

(١٢٩) المعترلة : لم نفهم لها معنى وليس في مدينة حماة مكان بهذا الاسم .

(١٣٠) مصياف : مدينة تقع على بعد ٤٥ كم إلى الغرب من حماة فيها قلعة حصينة بنيت سنة ٥٣٦ هـ (انظر موقعها على المصور ٤) .

(١٣١) حصن الأكراد = قلعة الحصن قلعة عظيمة شاهقة الارتفاع شمال تلكلخ بين حمص وطرابلس ، بناها العرب ، ووسعها الصليبيون ، وأقاموا فيها قرناً ونصف واستخلصها منهم الملك الظاهر بيبرس سنة ٦٦٩ هـ ، وهي من أروع وأبدع القلاع التاريخية في بلاد الشام (المصور رقم ٤) .

(١٣٢) رجله : يقصد بها الرجالة المشاة .

العدة والسلاح مع مشاتهم ، هذا كله بحسن تدبيره وتأنيه في الأمور ، ولو كان كغيره من عدم الصبر لما نتج له حال ، لكنه أخذ الأمور بالمسايسة مع إقامة الحرمة ، فلله دره ما أوفر عقله .

وفي صبيحة نهار الاثنين سابع شهر ذي الحجة رحل من حماة ونزل [١٣٣] وضحى بها ثم رحل منها وقت العصر ، ونزل في الثلث الأول من الليل بالقرب من إعجاز[١٣٤] وضحى بها ثم رحل منها قبل الظهر ونزل / على عين الفردوس [ص ٢٠] بالقرب من تل السلطان[١٣٥] وبات بها ، ووصل الأمير محمد بن أسلماس وبعض أمراء التركمان .

ثم صلى الصبح يوم الأربعاء نهار عرفة ، ورحل فلاقاه قاضي القضاة وحاجب الحجاب وبقية الأمراء بالمملكة الحلبية بين تل السلطان وقنسرين[١٣٦] . فلما وصل العسكر إلى جسر قنسرين[١٣٧] تزاحمت الجمال فوقف على رأس القناطر ورتب الناس إلى أن مروا . وكان وقوفه رحمة للناس وإلا كان هلك شيء كثير من الجمال لشدة الزحام فانظر إلى شفقته وصبره وهمته ، ظفّره الله على أعدائه وأعداء الدين . ثم نزل بالقرب من الجسر ، فحضر إليه كافل المملكة الحلبية الأمير

---

(١٣٣) فراغ في الأصل مقداره ثلاث كلمات .

(١٣٤) إعجاز : قرية صغيرة من قرى كورة العلا في شرق قضاء المعرة ولا نعلم سبب إنحرافه نحوها .

(١٣٥) تل السلطان : قرية في الجنوب الغربي من سهل المتخ وهي من أعمال ناحية سراقب التابعة لإدلب . (المصور رقم ٤) .

(١٣٦) قنسرين : بلدة قديمة في شمال سهل المتخ الذي يصب فيه نهر قويق ، وقد كانت أشهر من حلب حتى الفتح الإسلامي حتى سميت بها ولاية حلب فقيل « جند قنسرين » . وهي الآن خراب لم يبق منها إلا رسومها الدوارس ، وقامت مكانها قرية صغيرة بيوتها قباب من الطين يسمونها العيص ، نسبة لوليّ ضريحه فوق تلّ إلى شمالها اسمه الشيخ عيص . (المصور رقم ٤) .

(١٣٧) جسر قنسرين : جسر صغير على نهر قويق قبل انصبابه في سهل المتخ جنوب حلب . (المصور رقم ٤) .

قانصوه اليحياوي وصحبته بقية الأمراء بالمملكة الحلبية ، وأقام وعيَّد بها ثم رحل قبل الظهر ونزل بالعين المباركة(١٣٨) ، وأصبح يوم الجمعة مقيماً بها وحضر إليه المَقَرُّ الأشرف برقوق كافل المملكة الشامية بمن معه من الأمراء .

[الدخول إلى حلب]

[ص٢١] وفي يوم السبت / حادي عشره ألبس مماليكه وحمل سنجقه(١٣٩) علي ، ومشت مماليك الأمراء تحت سنجقه طلْباً واحداً ، وحمل الشطفة الشريفة على رأسه الكريم ، وكافل المملكة الشامية عن يمينه وكافل المملكة الحلبية عن يساره ، وبقية الأمراء في مراتبهم بعد أن ألبس الكافلين تشريفها وأركبها فرسين بكنبوش وسرج ذهب من مولانا السلطان الملك الأشرف قايتباي خلَّد الله ملكه . وكان المَقَر العالي السيفي إينال الأشقر رأس نوبة النوب لم يجهز له تشريفاً فألبسه مثلها وأركبه كذلك ثم مشى وامتد الميمنة إلى منتهاها ، والميسرة كذلك وهو بينهم كالبدر المنير وجنائبه تقاد بين يديه مائة وستين فرساً ما بين كنبوش ولبوس فاخرة ، ولقد حلف لي من أثق به غير واحد من المشايخ المعمرين ، أنهم لم يشاهدوا مثل هذا الترتيب ولا مثل هذا القماش ، وأما أني رأيت دخول
[ص٢٢] / الأشرف برسباي سنة ست وثلاثين وثمان مائة فتميز دخوله على ذلك بأمور : منها أنه دخل لابساً مماليكه بأجمعهم ، ومنها أن المدينة زينت ولم تزين للأشرف ، ومنها أن المماليك السلطانية الذين كانوا مع الأشرف أفسدوا كثيراً ، ولم يفسدوا خوفاً منه(١٤٠) .

---

(١٣٨) العين المباركة : عين معروفة حتى الآن قرب خان طومان في الجنوب الغربي من حلب . (المصور رقم ٤) .

(١٣٩) السنجق : كلمة تركية الأصل معناها اللواء أو العَلَمْ .

(١٤٠) يقصد بلم يفسدوا : مماليك الأمير يَشْبَك الدوادار .

ونزل بالميدان الأخضر(١٤١) بحلب ، والنواب والمقدمين والأمراء في خـدمتـه ، فمدَّ له كافل المملكة الشامية سماطاً حافلاً ، باشر مدَّ السماط بنفسه ، وأخـذ العصي بيده وأراد الوقوف إلى أن ينتهي ، فحلف عليه وأجلسه معه بعد أن امتنع امتناعاً كلياً ، وأقام بـالميـدان والكفلاء والأمراء يترددون إلى خـدمتـه ، ولا يجتمع بـه إلا أكابرهم ، وأمـا الخـاصكيـة الكبـار وأمراء العشراوات فلا يجتمع منهم إلا القليـل ، ووقعت هيبته في قلب الخاص والعام .

وكل هـذا ولم يزل يمعن فكره بمـا يتصـل إلى انكسـار العـدو وليس لـه دأب ولا همّ سوى ذلك .

وفي يوم الخميس / سادس عشره ، حضر إليه كافل المملكـة الحلبيـة وصحبتـه [ص ٢٣] أمراء التركمان : الأمير شاه بـداق بن دلغـادر ، والأمير محمـد بن أسلمـاس ، والأمير خليـل بن بـوزجـا ، والأمير حمـزة بن إينـال وابن كنـدر وغيرهم من الأمراء البوزقيـة(١٤٢) . وجلسوا عن يمينـه مع كافل المملكـة الحلبيـة ، وجلس عن يسـاره الأمير إينـال الأشقر رأس نـوبـة النـوب وإلى جـانبـه الأمير تمراز الأشرفي أحـد المقـدمين ، وفي جـانبـه الأمير عمر بن رمضـان وأخيـه داود وغيرهم من الأمراء الأوجقية(١٤٣) ورسم لي أني أعلمهم أنَّ أحـداً منهم لا يخـالف كافل المملكـة الحلبيـة ولا يخرج عن أمره ، ويمتثلوا جميع ما يرسم به ، ولا يترددون إلى باب أحد غيره

---

(١٤١) الميدان الأخضر : لا يزال هذا الميدان معروفاً بهذا الاسم وهو في شمال مدينة حلب .

(١٤٢) البـوزقيـة : مـأخـوذة من كلمـة بـوزوق وهي بمعنى غير المنتظم ، ولعلـه يقصـد الأمراء غير المنتسبين إلى هيئة الجيش العامة ، أي الأوجاقية .

(١٤٣) الأوجقية أو الأوجاقية : ومنها الأوجاق وهو الجيش في المصطلحات العثمـانيـة (راجع السلوك ٤٣٣/١) ومعنى أوجاق بالتركية مأوى الأسرة الكبيرة وعند العوام في الشام تعني موقد النار . ولعله أراد بالبوزقية الأمراء الذين لا يرجعون في إمارتهم إلى القواعد المتعارفة ، وأراد بالثانيـة الأمراء الذين يسيرون في إمارتهم على الأصول والقواعد المتعارفة إذ ذاك .

فإنـه أستـاذهم[١٤٤] الحـاضر ، ومتى بلغـه عن أحـد منهم تردد إلى أحـد حصل عليـه مالا خير فيه . وكان عند وصوله قصدوا بابه فلم يمكنهم من الدخول إليـه ، وقـال لهم : من كان له ضرورة منكم فليتوجه إلى كافل المملكة الحلبيـة ويـذكر ضرورتـه

[ص٢٤] له وهو / يعرفنا بحـالكم لأنـه نـائب البلـد وهو أدرى بحـالكم . فلمـا تكامل المجلس وأعلمتهم بما رسم لي أجابوا بالسمع والطـاعـة ، فعنـد ذلـك ألبسهم خلعهم ، وجهَّز لكافل المملكة الحلبية مبلغ ثمانية آلاف أشرفيـاً ليفرقهـا عليهم ، وجهزني مع المبلغ ففرقتها بحضرة كافل المملكـة الحلبيـة ، فشكى حـالـه لي وأشـار عليَّ بـأن أفـاوض المسامع النظامية بـذلـك ، وأنـه محتـاج إلى مبلغ ، فـذكرت لـه ذلـك ، فرسم لـه بعشرة آلاف أشرفي حملت إليه على يد يحي المزين .

وأنعم أيده الله بعلائكته لكل من قصده من النواب والأمراء . ولم يخيِّب أحداً منهم ، وفرّق على جماعة من المماليك السلطانية على قـدر مراتبهم وأحوالهم ، وفرق على المماليك الذين حضروا صحبـة إينـال الأشقر لكل واحـدٍ منهم عشرة أشرفيـاً . وغلَّـق لهم جـوامكهم وعليقهم إلى آخر صفر . وهـذا شيء لم ينهض بـه أحـد من البـاشـات الـذين تقـدموا بل ولا قيراطـاً منـه ، وأمـا إنعـامـه من الخيل والجمـال فلا يحصى .

[ص٢٥] / وفي نهـار الخميس ثـالث عشرين شهر ذي الحجـة وصـل كتـاب جـارقطلي نائب قلعة المسلمين[١٤٥] بأن نائب ملطية ركب على صارم بن بهلوان وكبس بيته ،

---

(١٤٤) أستاذ : استعملت عنـد المماليـك على من يشتري المملوك بـالمـال ويربيـه ثم يعتقـه عنـد الكبر وتعتبر رابطة الأستاذية أقوى رابطة بين المملوك وأستاذه ، وقـد استعملهـا المؤلف هنـا ليؤكـد على كامل ارتباط الأمراء المذكورين بكافل المملكة الحلبية .

(١٤٥) قلعـة المسلمين : تـدعى اليـوم قلعـة الروم وهي بلـدة في جنـوب وسـط تركيـا إلى الجنـوب من ملاطية ، تقع على جبل شامخ يجري الفرات في أسفله ويلتف عليه كنصف دائرة كالخنـدق لـه . كانت مقر بطريك الأرمن في القديم ، ولما كثر عبث الأرمن هاجمها الملـك الأشرف صلاح الـدين خليل سنة ٦٩١ هـ وفتحها فسميت قلعة المسلمين (انظر موقعها على المصور رقم ١) .

وهرب ابن بهلوان ودخل إلى جبل يسمى صقل طوتان(١٤٦) فتبعه ، فلما دخل الجبل ربط طريقه ، وحصل بينهما قتال شديد إلى أن ضُرب فرس قرقماس نائب ملطية بنشابة سقط فرسه من الجرح ، ووقع عن الفرس فقبض عليه ، وفي رابعه حضر أهل ملطية وقاضيها فأخبروا بذلك . فسألهم المَقَرُّ الأشرف نظام الملك أيده الله تعالى ونصره عن سبب ركوبه ، فذكروا أن قافلة أخذها صارم بن بهلوان بين ملطية وبهسنى وفيهم مماليك جراكسة مع تاجر يسمى شيحي وعدتهم ثمانية وعشرون مملوكاً ، فركب رجاء خلاصهم وخلاص مال التجار ، وحين بلغه ذلك عيَّن الأمير إينال الحكيم نائباً لملطية وأعطاه ألف دينار وأخلع عليه وأركبه فرساً بكنبوش / وسرج وجهَّز معه خمسين مملوكاً من المماليك السلطانية ، وأردفه بالأمير [ص٢٦] شاه باك بن شهري نائب دوركي(١٤٧) وكان حضر للخدمة الكريمة ، فأنعم عليه بكاملية وأركبه فرساً بكنبوش وسرج ذهب وتوجها ليلة السبت سابع عشرين شهر تاريخه .

[سفر الأمير يَشْبَك من حلب]

وفي يوم الخميس مستهل سنة ست رحل كافل المملكة الحلبية ونزل بقرية حيلان(١٤٨) ، وفي يوم الجمعة ثانيه رحل كافل المملكة الشامية . وفي يوم السبت توجه الساعي بالأخبار إلى الأبواب الشريفة .

---

(١٤٦) صقل طوتان : والصواب صقال طوتان . ومعناها قابض الذقون ، تطلق عند الأتراك على المكان الضيق الموحش وهو الآن اسم جبل إلى الشرق من مرعش .

(١٤٧) دوركي : الأغلب أنها ديريك وهي بلدة في جنوب تركيا تقع على بعد ٣٦ كم إلى الغرب من ماردين (راجع موقعها على المصور ١) .

(١٤٨) حيلان : قرية في شمالي مدينة حلب كانت تأتي منها القناة المنسوبة إليها والتي كانت المورد الوحيد لشرب أهل حلب قبل جر مياه الفرات إليها (انظر موقعها على المصور ٤) .

وفي يوم الأحد رحل المَقَرُّ الأشرف نظام الملك أيده الله بملائكته الكرام بمن معه من العسكر المصري ونزل بين قرية المسلمية[149] وقَيَّلَ كتب الله سلامته ونصره ، ثم رحل منها ونزل بمرج دابق[150] وأقام به إلى نهار الخميس . ورحل ونزل بقرية تل الفار ، وكانت لي ضرورة ، فتأخرت بحلب عند رحيله وأدركته بهذه المنزلة صبيحة نهار الجمعة ، ثم منها إلى قرية زغرغين وهي قرية كبيرة وبها / أرجاء وبساتين ومياه جارية . [ص٢٧]

وبها وصل الأمير إينال الأشقر رأس نوبة النوب والمكاحل[151] معه تجرها العِجَل[152] ، وكان سلك طريق الباب[153] وبزاغة[154] للسهولة ، وما كان أحد يظن أنها تصل ، لكن الله سبحانه وتعالى سهَّل ذلك وهوَّنه ، وهذا من علامات السعادة . وفي آخر النهار توجَّه جماعة من الغلمان والأوباش والعشير بعد أن أشاع بعض من لا يريد الخير للمسلمين وقصده إثارة الفتنة بأن الباش أمر الناس أن ينهبوا قرية زغرغين ، ولم يكن لذلك حقيقة لأني في تلك الحالة عنده ، والناس

(١٤٩) المسلمية : قرية في شمالي حلب تبعد عنها ٢٥ كم فيها محطة سكة حديد بغداد (انظر موقعها على المصور ٤) .

(١٥٠) مرج دابق : مرج فسيح منبسط شمالي حلب بجوار قرية دابق ، اشتهر بالمعركة الفاصلة بين السلطان سليم العثماني والسلطان قانصوه الغوري المملوكي ، والتي انتهت بهزيمة الغوري وموته سنة ٩٢٢ هـ وسير تفصيل المعركة في فصل لاحق من هذا الكتاب ، وإلى شمال قرية دابق تل كبير عليه قبر الخليفة الأموي سليمان بن عبد الملك وعليه قبة مسوّرة ، وهو مشهور بمزار الشيخ بركات . ولم يعد مرج دابق مرجاً بل أصبح معموراً بالقرى التي يزيد عددها عن ٥٠ قرية (المصور رقم ٤) .

(١٥١) المكاحل : المدافع .

(١٥٢) العجل : العجلات .

(١٥٣) الباب : بلدة إلى الشمال الشرقي من حلب تبعد عنها ٤٠ كلم ، حولها بساتين غنية بثمارها (انظر موقعها على المصور ٤) .

(١٥٤) بزاغة : قرية شرقي الباب قريبة منها وكأنها حي من أحيائها غنية ببساتينها .

يهرعون من كل جانب وهو يتعجب ويقول لي ولغيري : ما هذه الحكاية ؟. وليس منا أحد يعرف الحال .

ولما تزايد الأمر وكان بجانبه الأمير سودون الطويل ، فقال له : اركب وانظر ورُدَّ الناس . فسكت فلم يجبه ، وسمعت منه أنهم توجهوا لنهب القرية وقد فات الأمر . وكان كافل المملكة / الشامية إذ ذاك جالس عنده ، وبقي يتأدب [ص٢٨] منه أنه يدعه في منزله ثم يركب ، فثَنَّى على الأمير سودون ثانياً وهو واقف وراء الخيمة ، فلم يجبه بشيء ، ثم التفت إليَّ وقال : اركب وانظر الحال ، ومهما أمكنك من الرد فافعل ، فركبت في الحال ومعي ثلاثة أنفس من جماعتي ، فرأيت أول النهب قد وصل إلى الوطأ[١٥٥] ، وكان معي جماعة من فلاحين القرية فكلما صادفت أحداً معه شيء أخذته منه ودفعته للفلاحين ، وكان ذلك من فضل الله تعالى ، فإني صادفت في الطريق شيئاً كثيراً مع أوباش لا خلاق لهم ، ووصلت إلى القرية وهي على تل عالٍ ، وصعدتها ووجدت بها بقية من الناهبين فضربتهم وطردتهم من القرية ، وأخذت ما وجدت معهم . وصرت كالهائم أجول بفرسي يمنة ويسرة ، وخصوصاً لما شاهدت الحريم وقد نزعت عنهم أثوابهم والأطفال ، فصرت أكرر قوله تعالى : « إنا لله / وإنا إليه راجعون » . ثم رأيت بعض الأوباش قد [ص٢٩] رموا الحريق في جانب البلد ، فبقيت متحيراً ، وإذا بالأمير جانم الزردكاش وصل بجماعته ومعه السقائين لإطفاء ما وقع من الحريق خوفاً على الزردخانات السلطانية ، فإنها كانت نزلت بالقرب من القرية فطفاها الله تعالى .

هذا ما كان من كاتبه ، وأما المَقَر الأشرف نظام الملك الشريف ، فأخذته حمية الإسلام والشفقة على الرعية وعلى المسلمين ، والنار في قلبه ، وهو يتجلد لعل

---

(١٥٥) الوطأ : لعله يقصد الأرض المنخفضة عن الأراضي التي بنيت عليها القرية . ولهذه التسمية ذكر في الصفحة ٨٤٠ من الجزء الأول من كتاب السلوك ويفهم منه أن الوطأ مكان قرب قلعة نجيبة .

نائب الشام يقوم ويتوجه لحال سبيله . فلما أطال نائب الشام الجلوس ، نهض في الحال وهو يهرول في مشيه ، فأدركوه خارج المخيم بمركوبه ، فمن صادفه من الناهبين ووجد معه من القماش أمر بتوسيطه بعد أخذ القماش منه ، ومنهم من ضربوه المماليك بالدبابيس[156] والمطارق إلى أن مات . ومنهم من قطعت يده ، [ص ٣٠] إلى أن أفنى أناساً من الناهبين / . وفي الحال أمر أن ينادى في العسكر بأنَّ من أخذ شيئاً من القرية يحضر به أو يحذفه بالبرية ، ومن وُجِدَ معه شيء بعد المناداة جرى عليه ما جرى على المتوسطين والمقتولين ولا يلوم إلا نفسه . فعند ذلك شرع الناس في إلقاء ما بأيديهم من النهب . ثم نادى ثانياً بأن يعلم الأجناد من وجد عند خدامه شيء من النهب فإني بالغداة أنزل المضيق وأفتش جميع حوائج الأجناد والأمراء ، فمن وجدتُ معه شيئاً : إن كان أميراً أخذتُ إقطاعه ، وإن كان جندياً شنقته ، وليس لي شغل مع غلامه .

وبلغه أنَّ جماعة من الأجناد والتركمان والأكراد توجهوا إلى جهات بالقرب من المنزل للنهب ، ظناً أنه أذن في ذلك ، فأركب لاجين دواداره مع جماعة من مماليكه ، ورسم له أن يقبض كل من يقع نظره عليه من المذكورين ، وقبضوا على جماعة من المتوجهين للنهب ، وأخذوا ما وجدوا بأيديهم وأنزلوهم عن خيولهم [ص ٣١] وأحضروهم / مشاة عراة ، ووجد فيهم جماعة من مماليك الكفلاء والأمراء ، فأودع الكل في الحديد ، وردَّ للفلاحين ما أخذ منهم ، فالله يجازيه عن المسلمين كل خير . فلما تحقق الناس قيامه في نصرة المظلومين شرع كل منهم يلقي ما أخذه ، فأصبح غالب الحوائج ملقى في خارج المخيم ، غيرما جمعه رئيس نوبه في الصيوان ، فحصل بذلك فرح كبير للرعية ، ولولا استدراكه وقيامه ضاعت تلك الحوائج ونفذ قضاء الله وقدره فيمن وسط وقتل . وكانت كائنة عظيمة دفع الله شرها بحسن نيته ، فلعنة الله على من أثارها . وبات تلك الليلة ولم يأكل شيئاً .

---

(١٥٦) الدبابيس : جمع دبسة وهي عصا غليظة الرأس .

[حصار قلعة عينتاب وفتحها]

وفيه وصل كتاب من جماعة وعدتهم خمسة وعشرون نفراً يطلبون الأمان منه ، وأنهم إن أمكنهم تسليم القلعة يسلموها ، فأعطاهم الأمان ووعدهم بكل خير ، فتأخر عن الرحيل يوم السبت بسبب ذلك إلى قرب الظهر ، ثم رحل منها وطلَّب الأطلاب ودخل إلى مدينة عينتاب / قبل العصر ، ونزل بالقرب من الميدان ، [ص ٣٢] ونادى بالأمان لأهل القلعة مدة ثلاثة أيام ، ورسم للعسكر بأنهم لا يقاتلوا أهل القلعة ولا يرموهم بالنشاب . فبقي أهل القلعة كلما مرَّ عليهم أحد من المشاة والغلمان يرموهم بالسهام من المرامي حتى جرحوا أناساً وقتل ثلاثة أنفار .

فعاودهم الثانية بأنهم آمنون على أنفسهم وحريمهم وأموالهم ، بشرط أنهم يسلموا القلعة وهم مخيرون بين الإقامة في المملكة السلطانية والتوجه حيث شاؤوا وأرادوا ، فكان جوابهم أنهم لا يريدون أماناً وأنهم مصرون على القتال ولا يرجعون عماهم فيه إلا أن يقتلوا عن آخرهم . فقال أيده الله بملائكته الكرام : الآن تعين قتالهم ومنابذتهم . فشرع في نصب المكاحل ، فنصبت مكحلتي السلطان الملك الأشرف خلَّد الله ملكه في مقابلة البرج المشهور ببرج ابن البياجي وبرج الماء ، ومكحلة كافل المملكة / الشامية بالقرب منها من جهة الشرق ، ومكحلة [ص ٣٣] كافل المملكة الحلبية على باب الدباغة من جهة شمال القلعة ، ومكحلة المَقر الأشرف أمير دوادار أعز الله أنصاره ، طَلَبها الأمير خاير باك أحد المقدمين بالقاهرة ، واختار له مكاناً من جهة الشرق بتل عال هناك يسمى تل الأكراد ، ثم رأى أنَّ المكان في غاية البعد ، فنقله إلى أسفل منه ، ثم رمى فلم يصب ، إلى أن نقله إلى ثلاثة أماكن ، وكل العسكر والمعلمين يقولوا إن المكان الذي اختاره

لا يصلح ، وهو يكابر الجميع ويدعي أنه ليس في جوانب القلعة مكان أصلح من ذلك ، وخالف الإجماع في ذلك . نسأل الله العافية في عقولنا .

وكان المَقَرُّ الأشرف عند نزوله بعينتاب طَلَب الأمراء والكفلاء وقال لهم : إنا وصلنا إلى عينتاب وقد أحضرنا معنا من السلاح والمكاحل والمناجيق ما لم [ص٣٤] يحضر مع ملك من الملوك ، فأنتم / مخيرون بين أمرين ، إما أنكم تلتزموا حفر الخندق وحفظ جهة العدو ، وأنا ألتزم حصار القلعة وهو الأولى ، لأن جماعتي أكثر من جماعتكم والصناع يهابون مني أكثر ، وإما أن ألتزم حفر الخندق وحفظ جهة العدو وأنتم تلتزمون الحصار ، فأجابوا أنَّ المصلحة تقتضي أن نلتزم الحصار وأنت تقيم في حفظ جهة العدو وحفر الخندق ، وتفرقوا على ذلك .

ونصبت المكاحل والمناجيق حسبما تقدم والرمي عليهم مستمر إلى تسعة أيام من حين النزول . والمَقَر الأشرف ينظر هماتهم ولا يعجبه ذلك لما في قلبه من الهمة العالية . وكل يوم يتأسف ويحترق على منعهم إياه من الحصار ويتحقق أن الأمر لا يتم على هذا الحال .

وفي عصر يوم الأحد حضر إليه الأمير يَشْبَك نائب طرابلس ، فذكر له بأن الأمر لا يتم إلا به ، وربما إذا حصل تمادٍ في الأمر يطمع العدو ، فهيج ما في [ص٣٥] خاطره فركب في الحال ونادى لغلمانه / ومماليكه والعشير المضاف إليه بأنهم يقطعوا أشجار الصفصاف ويلقوها في مقابلة برج الماء ، ففي الحال قطع جانب كبير من الأشجار وسحبت إلى أن أُلقيت في الخندق ، ثم أمر العشير بأنهم يلقوا على ذلك التراب . وبات تلك الليلة وهو مجد على الحصار ولا يدع أحداً يقرب السور اللهم إن كان بغير علمه ، ولا زال على ذلك إلى أن صنع جسراً بمماليكه يصل إلى الجانب الآخر ، كل ذلك في يوم وليلة . وملك برج الماء وهدمها ثم رسم بحثِّ رمي المكاحل ، وباشر الأمور بنفسه والنشاب والحجارة ترمي من القلعة مثل المطر وهو لا يلتفت إلى شيء من ذلك ، فلله دره ما أقوى جنانه . ثم رسم

للأمير خاير باك بأنه ينقل المكحلة المتعلقة به إلى مكان عيَّنه بين مكحلتي نائب الشام ونائب حلب لبعدٍ بينهما ، ليتصل المكاحل بعضها ببعض ، فإنَّ ذلك أكثر تأثيراً من البعد ، فنقله المشار إليه ، وأمره أن يرمي ويباشر ذلك على عادته . / وكان قد انكسر خاطره لنقل ذلك ، فلما عيَّنه طاب خاطره ورمى حجرين [ص٣٦] فانهدم ما كان بين الكافلين من السور ، ووقع الرعب في قلوب أهل القلعة من أمرين : أحدهما من شدة الحصار ، والثاني من الهدم . وتحققوا أن لا طاقة لهم بذلك ، وأنهم مأخوذون لا محالة ، فطلبوا الأمير إينال الأشقر رأس نوبة النوب من المَقَر الأشرف نظام الملك الشريف أيَّده الله تعالى ، ليتفقوا معه على أمرٍ يكون فيه خلاصهم ويسلموا القلعة ، فجهَّزه المشار إليه وجهزني معه لأسمع ما يقولون وأرد عليه الجواب .

فتوجهت معه ومعنا جماعة منهم الأمير ناصر بن دلغادر ، والأمير علي بن فياض ، ووقفنا بمكان بالقرب من المرمى وهم وراء ذلك . فتكلم قانباي النائب من جهة سوار المخذول كلاماً طويلاً ملخصها أنهم يطلبوا الأمان لأنفسهم وأولادهم وأموالهم ، وإذا أنعم عليهم بذلك يسلموا القلعة ، وأنهم يطلبوا النظر الكريم عليهم ، / بأن يُجرى عليهم رزق يقوم بأودهم ، وأنه لم يبق لهم وجه يقابلوا به [ص٣٧] مخدومهم .

فرجعت للمشار إليه ، واستمر المَقَرُّ الأشرف إينال الأشقر مقيماً بالمكان المذكور ، وبلَّغت ما كان سألوه ، فأجابهم إلى ذلك وخيَّرَهم بين الإقامة عنده أو التوجه إلى عند مخدومهم ، وأنهم آمنون حسبما تقدم سؤالهم ، فرجعت وأخبرتهم بما أنعم عليهم ، فجهزوا شخصاً من جهتهم يسمى حسن بك بن حجك ليسمع من لفظ المَقَر المشار إليه ذلك ليزداد قلوبهم طمأنينة ، فحضر وسمع جميع ما بلغته ، فرأيت في وجهه بعض تغير ما أعجبني ذلك منه ، فقلت له : لعلك تريد أن يحلف لك الأمير نصره الله على ما أنعم به من الأمان ، فقال نعم ، فسألت

صدقاته في ذلك ، فأجاب وحلف له وأرضاه . ثم ألبسه كاملية سموراً طرشا ، وجهزه إلى القلعة ليخبرهم بما شاهده ، فصعد إلى القلعة وأخبرهم بجميع ما شاهده من الشفقة والحنو من المشار إليه / فعند ذلك نزل قانباي النائب وصحبته جميع [ص ٣٨] المقاتلة ، وسلم مفاتيح القلعة للمَقَر الأشرف الأمير دوادار وباش العساكر الإسلامية ، فخلع عليه كاملية سموراً طرشا وأركبه فرساً بسرج مغرق ، وسلمه وجميع من معه لجماعة من الخاصكية خوفاً أن أحداً من العسكر يعارضهم أو يشوش عليهم ، وأنزلهم بخيام أفردها لهم عند الأمير إينال الأشقر ، وأكرم نزلهم .

ثم توجَّه بنفسه والكفلاء والأمراء والشطفة(١٥٧) الشريفة محمولة عليه ، وصعد القلعة ونصب الشطفة على بابها والبشائر تدق ، ووقف ساعة إلى أن نزل من بقي بالقلعة بأهلهم وأولادهم وأثاثهم وقماشهم وما يتعلق بهم ، ولم يمكّن أحداً من التعرض لهم ولا بما قيمته الحبة . وآواهم وأوصلهم مع جماعة ممن اختارهم إلى مخيمهم المعين لهم . ثم صعد إلى أعلى القلعة ونصب عليها الشطفة ، وجلس بمكان عال مُطلٍّ على المدينة ، ونظر إلى جوانب / القلعة فرآها حصينة جداً ، وتعجب من [ص ٣٩] حال الملوك السالفة كيف أهملوا أمرها ، وهي في غاية الصعوبة . ثم عيَّن جماعة للمبيت بها ، ونزل مؤيداً منصوراً مسروراً بما منحه الله تعالى من الفتح ، وكان أكبر سروره أن الله سبحانه وتعالى ألهمهم طلب الأمان ، ولولا ذلك وأخذت بالسيف يلزم من ذلك سفك دماء أهل القلعة ونهب أموالهم ، وما كانت تؤخذ إلا بعد قتال كبير ، يقتل ويجرح بسبب ذلك جانب كبير من العسكر فلله الحمد على ذلك .

وأصبح يوم الأربعاء وكتب البشائر وجهزها على يد القاضي شرف الدين الأنصاري وكيل المقام الشريف ، وكان طلب ذلك منه قبل وصوله إلى عينتاب ،

---

(١٥٧) الشطفة : لعلها محرفة عن الشطبة ، ومن معاني الشطبة : السيف ، وربما كانت شارة ملكية تحمل كما يحمل اللواء على رأس أمير الجيش .

بأنه إذا فتح الله عليه بأخذ قلعة عينتاب يكون هو المبشر ، فقام بوعده له .

وأقام بعينتاب بعد أخذه القلعة في التاريخ المذكور ، واهتم بعمارة ما انهدم منها ، وكان حضر معه جماعة / من المعلمين والصناع من القاهرة المحروسة والشام [ص ٤٠] وحلب . فطلب إذ ذاك أيضاً جماعة من حماة وحمص والبيرة[١٥٨] وقلعة المسلمين ، فحضر الجميع وعمَّر القلعة في مقدار شهر ، وكملها أحسن ما كانت ، وجدد بها باباً ، وجعل عليه ثلاث مرامي ، وكتب تجديدها على باب القلعة باسم مولانا السلطان الملك الأشرف قايتباي خلَّد الله ملكه . وملأها من القمح والشعير والسلاح على أصنافها .

[الصدام الأول مع أتباع شاه سوار]

وفي يوم الأربعاء ثالث عشر شهر صفر الخير ، تسحب الأمير عيسى بن قراجا من جماعة سوار المخذول وقت السحر ، وحضر للمخيم الكريم وتمثل لدى المَقَر الأشرف أمير دوادار وباش العساكر المنصورة ، وذكر أن سواراً حضر إلى جبل الصوف[١٥٩] ونزل به بعسكره ، وأنه عيَّن من جماعته طائفتين ، جهز أحدهما إلى جهة قلعة المسلمين ، وجهز طائفة إلى جهة الحمحة[١٦٠] (كذا) ليقطعوا طريق

(١٥٨) البيرة : بلدة تركية هي قصبة قضاء يعرف اليوم ببير جيك يقع في شمال شرق حلب وتبعد عنها ٢١٠ كلم وموقعها الحربي والتجاري مهم لأنها على ضفة الفرات . وهي مدينة قديمة جداً وكان لها في صدر الإسلام قلعة حصينة ، وهي جيدة المناخ كثيرة الخيرات (انظر موقعها على المصور رقم ١) .

(١٥٩) جبل الصوف : جبل كبير معروف إلى الشمال الغربي من بلدة عينتاب . (انظر المصور رقم ١) .

(١٦٠) الحمحة : لا يوجد في تلك الجهات مكان بهذا الاسم ، إنما يوجد حصن اسمه قريب منه وهي حميص أو حميميص كما كتبه النويري في كتابه (نهاية الأرب ج ٢٩ ص ٣١٤) وموقعه إلى الشرق من تل حمدون . (المصور ٤) .

حلب ويأخذوا من وجدوا من القوافل والمسافرين ، وقصد بذلك قطع الميرة[١٦١]
[ص٤١] / ليضعف العسكر بذلك ، لما بلغه من الخيرات التي تنقل من سائر الجهات من الحبوب والفواكه والأغنام . وذكر أنه في الطائفة الثانية منهم ومن جملة المعينين .

فما كذَّب المَقَرُّ الأشرف خبره . وفي الحال عيَّن الأمير إينال الأشقر رأس نوبة النوب ، والأمير خاير باك أحد المقدمين بالقاهرة ومعهما فرقة من العسكر المنصور والأكراد والتركمان . فلما خرجوا من المخيم وتوجهوا إلى الجهة المذكورة ، رأوا آثار خيلهم ، فتبع الأمير إينال الأشقر الأثر ، والأمير خاير باك إلى جهة أخرى إلى محل رجوعهم ، وافترقوا فرقتين . فأما الأمير خاير باك صادف المذكورين وهم ما بين الستمائة والسبعمائة . وكان الأمير خاير باك في نفر قليل من الأتراك وجماعة من الأكراد ، وكانوا في أوائل الأمير خاير باك ، فانتشب القتال بين السوارية والأكراد ، وأزعجوهم لأن السوارية كانوا ملبسين والأكراد عرايا[١٦٢] ،
[ص٤٢] فأدركهم طائفة / من الأتراك وفي أيديهم الرماح السمهرية ، فما كان غير نصف ساعة حتى ولوا الأدبار ، بعد أن قتل من أعيانهم الأمير قيا بن فارس وابن أخيه ، والياس وحسن بن قزل محا ، وسليمان بن مسعود ، ومن أولاد بنو كلكار أربعة من أعيانهم ، وتبرك ومصطفى أولاد إيرنجي ، وغيرهم ممن لا يعرفوا . وقبض على ثلاثة أنفار وقطع ثمانية وعشرون رأساً ، فلما شاهد المخذولون ذلك التجؤا إلى جبل هناك ، ورمى غالبهم خيله ، ولوتبع الأمير إينال رأي الأمير خاير باك ما خلص منهم أحد ، فحضر في عشية ذلك اليوم العسكر المجهز صحبة الأمير خاير باك والرؤوس على أرماحهم والمقبوضين عليهم أمامهم وكانت ساعة مشهودة . .

---

(١٦١) الميرة : المؤون .

(١٦٢) يقصد أن السوارية يلبسون الدروع الواقية والأكراد بلا دروع .

وفي صبيحة نهار الخميس ، حضر الأمير خاير باك إلى المخيم الكريم ، وصحبته الرؤوس والمقبوضين عليهم ، فأخلع المقر الأشرف باش العساكر المنصورة عليه قباء[١٦٣] طراز يلبغاوي ، وأركبه فرساً بسرج ذهب وكنبوش / وعلى الأمير [ص٤٣] سودون المنصوري بطراز ، وعلى الأمير جانم بطراز ، وعلى الأمير يلباي المؤيدي بطراز ، وعلى الأمير ناصر الكردي بطراز ، وعلى كل من أحضر رأساً بخلعة ونفقة يليق به .

وكان أنعم على من شهد الوقعة من المماليك السلطانية بألف دينار ليفرقها عليهم الأمير خاير باك على قدر مراتبهم في الحرب حسبما شاهدهم ، فلما جمعهم الأمير خاير باك ليفرقها عليهم حسبما يراه ، فاختلفت كلمتهم وادعى كل منهم أنه الذي كان في أوائل القوم ، وأنه الذي فعل كذا ، ونسبوا الأمير خاير باك إلى غرض مع بعضهم ، وكان بريأ من ذلك ، فلما شاهد ذلك ردَّ المبلغ إلى المَقر المشار إليه لعجزه عن رضاهم . فطلبني الأمير تمراز الساقي قريب مولانا السلطان الملك الأشرف قايتباي خلَّد الله ملكه ، وقال بعد كلام كثير : ليس من المصلحة تفرقة المال على المماليك السلطانية ، الرأي إهمال مثل هذا الأمر . فبلَّغتُ المَقَرَّ الأشرف المشار إليه ما شافهني / به ، فقال : والله ما قصدت بهذا إلا أنَّ العدو المخذول [ص٤٤] قريب منا ، ولا بدَّ أنه يحصل بيننا وبينه قتال ، والمماليك السلطانية إذا رأوا هذا تزداد رغبتهم في بياض الوجه ، ويحصل الغرض الشريف وإلا أنا أُحِبُّ ماليَ أكثر منهم .

---

(١٦٣) القباء : نوع من الملابس المملوكية وهي قفطان ضيق الأكمام .

[المفاوضات مع شاه سوار]

وفي عشرين شهر تاريخه ، وصل قاصد من عند سوار المخذول يسمى محمد بن أنحقرق وعلى يده هدية للمَقَر الأشرف باش العساكر الإسلامية وكتاب ، ولنائب حلب كتاب وهدية ، ولكافل المملكة الشامية كتاب ، وللأمير إينال الأشقر كتاب ، ومضمون الكل بأنه رغب في الدخول للطاعة الشريفة ، وأنهم يجهزوا من يعتمدوا على كلامه ليبدي لهم غرضه .

فجهزوني إليه ومعي أرمغان(١٦٤) في مقابلة هديته ، فتوجهت إليه ومعي قاصده ووصلت إليه بجبل الصوف ، فأنزلني عند دواداره المسمى بحراغ ، وكان أخو قيا أمير العسكر الذي تلاقى مع الأمير خاير باك وقتل هو وابن أخيه ، وحمل / رأسها في جملة الرؤوس ، فتعجبت من هذا الاتفاق الغريب ، ثم سألت [ص ٤٥]
من الله السلامة . وكنا هجمنا عليه على غفلة من غير إعلام ، فصعب عليه ذلك ولام قاصده ، وقال : تحضر بمثل هذا ولا تعلمنا ، وكان من الواجب علينا أن نجهز من يلاقيه ، فما لبثت غير ساعة رملية حتى طلبني ، فلما قربت منه قام ولاقاني خطوات وأجلسني بجانبه بعد أن أظهر الترحُّب والفرح بحضوري إليه ، وخاطبني بأدب وإعزاز . والظاهر أنَّ قاصده أخبره بذلك ، لأن المَقَر الأشرف أمير دوادار أيَّده الله تعالى بملائكته قال للقاصد المذكور : قد جهزت إليكم قاضي العسكر وهو والدنا كلنا واعتمادنا على كلامه ، ورضاه رضانا ، ومهما اتفق معكم كان ذلك وما ثم خلاف .

---

(١٦٤) أرمغان : كلمة تركية من أصل فارسي بمعنى الهدية أو الهبة .

فناولت دواداره الكتاب الذي صحبتي جواباً لسؤاله من المَقَر الأشرف أمير دوادار وباش العساكر المنصورة ، والاعتماد في ذلك كله عليَّ فيما يرى فيه المصلحة . فقلت بعد أن حمدت / الله وأثنيت عليه وتلوت قوله تعالى : ﴿ وإن [ص٤٦] طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما ... ﴾ (الآية) . ثم أوردت الحديث المشهور في حق الحسن بن علي عليهما السلام ، وأنَّ النبي ﷺ قال « إن ابني هذا لسيد ، ولعل الله يصلح به بين فئتين عظيمتين من المسلمين » وصار ذلك كما قاله ﷺ بعد نيف وثلاثين سنة ، حين سلَّم حسن الأمر لمعاوية بعد قتل علي رضي الله عنه شهيداً كما هو مشهور ، وعَدَّ ذلك من معجزاته ﷺ .

وهذا الأمر قد أخذ حدَّه ، وقد هلكت الرعية من غير فائدة حصلت ، والأولى الإذعان إلى الحق وكف الأذى والأغراض النفسانية فإنها ملجئة إلى خسران الدنيا والآخرة .

فقال لي : إنك قد وعظتنا وأحسنت ، ولكن كان الأوجب عليك أن تعظ جماعتك ، لأنهم ثلاث مرار يحضروا إليَّ بعساكرهم فيردهم الله / على أعقابهم [ص٤٧] خائبين خاسرين ، ويرزقني النصر عليهم لبغيهم عليّ .

فقلت سبحان الله أنتم تبدؤا بالبغي ، فإذا قوبلتم بما صدر منكم تقولوا بغيتم علينا ، ولا شك ولا خفا أنَّ مولانا السلطان خلَّد الله ملكه هو خادم الحرمين الشريفين ، والإمامة لأمير المؤمنين ، وقد فوَّض إليه أمور المملكة ، وأنت وأباك وأجدادك من قبلك نواب السلطنة من قديم الزمان وإلى الآن ، وإذا خرجتم عن الطاعة وجب عليه قتالكم ، فهذا لا يكون من قبيل البغي ، والباغي لا يطلق إلا على من خرج عن الطاعة المفروضة . وأما قولكم بأن الله نصركم عليهم لبغيهم ، فهذا أيضاً ليس بدليل من وجوه : منها أنَّ الله سبحانه وتعالى تارة يبلي المؤمنين ليضاعف لهم الأجر ، ومنها أن يكون ذلك لسوء تدبير منهم ومخالفة ذوي الآراء ، والدليل في ذلك قتلى أُحُد .

[ص٤٨] وكان من الحاضرين في ذلك الوقت الشيخ (١٦٥) قاضي / عسكره ، فقال : هذا كله بتقدير الله .

قلت : نعم ولكن سوء التدبير كان سبباً لذلك ، لأن العبد له الإختيار الجزئي ، ولولا ذلك لما استحق العقاب .

فقال : دع عنك هذا كله فوالله وتربة جدي ووالدي لو تأخر أخذ القلعة خمسة أيام لكنت نصبت خيامي في مقابلة خيامكم ورأيتم قتالي معكم . فتبسمت عند ذلك .

فقال لي : مِمَّ تبتسم ؟ .

فقلت : خيراً .

فقال : تكلم .

فقلت : أتأذن لي في الكلام ؟

فقال : نعم .

فقلت له : ذكرت أنك كنت تريد الحضور والقتال لولا أخذ القلعة ، فأنت إذا حضرت كنت تقاتل القلعة أم الغريم ؟

فقال : بل الغريم .

قلت : الغريم حاضر ولا لك مانع من ذلك ، فما سبب تقاعدك ؟

فسكت فلم يجب وعلم أني أفحمته .

فقلت له يا مولانا الأمير : إنك طلبت شخصاً تسمع [منه] مقصود الأمراء وهو يسمع مقصودك ، فأما مقصود الأمراء إن كان لك رغبة في الدخول [ص٤٩] للطاعة / الشريفة ويحصل لك ما ترومه من المال والاقطاع .

قال : نعم .

---

(١٦٥) فراغ في الأصل .

قلت : لا يكمل ذلك ولا يحصل إلا بتسليم قلعة درندة وسيس .

فقال : إنّ هذين البلدين ، يعني سيس ودرندة ، لا بد أن السلطان نصره الله ينيب فيهما شخصين ، ومن المعلوم أنهما لا يقوما في المهات الشريفة بأكثر من مئة نفس ، وأنا أقوم في كل منهما بخمسة آلاف نفر ، ويسلطني السلطان على أي عدو شاء وأراد .

فقلت له : هذا لا يمكن على هذا الوجه لكون(١٦٦) أن الملوك المجاورة للملكة السلطانية يظنوا العجز إذا صار ذلك ، وقصد مولانا السلطان خلّد الله ملكه عدم ذلك وإلا لا يتحصل للخزائن الشريفة من الجهتين شيء ، والعذر في ذلك ظاهر ، وأما مولانا فما يحصل له من هذه الجهتين ؟

فقال : والله لا يحصل لي غير التعب .

فقلت له : إذا ظهر أن في عدم تسليم القلعتين المذكورتين نقص للحرمة الشريفة ولا نفع لمولانا فيهما ، وإذا سلمها لنواب السلطنة / حصلت الحرمة التي [ص ٥٠] يرومها المقام الشريف ، والنفع لمولانا واقع محقق فما وجه الامتناع ؟

وكلما أتى بحجة رددتها وجعلتها عليه في كلام يطول ، ولما يئست من فلاحه وعلمت أنه لا ينقاد إلى الصواب قلت في خاطري :

لقد أسمعت لو ناديت حياً ولكن لا حياة لمن تنادي

فقلت : قد بلغتك مراد الأمراء ، وجُلّ قصدهم أنهم يُعذرون(١٦٧) من أنفسهم ويقولوا : نحن كنا غالب السبب في هذه الأمور التي وقعت بسبب المرحوم بردبك نائب الشام ، ولا نريد إلا صداقته ، ولا يسرنا أن يكون أجنبياً من

---

(١٦٦) في الأصل : لكن أن الملوك .

(١٦٧) في الأصل « يعدون » وتقرأ أيضاً يعدوك . ولعل الصواب ما أثبتناه .

خدمة الأبواب الشريفة ، وعداوته أحب إلينا من صداقة الغير ، لأنه منا وإلينا من وجوه شتى .

وأمْلَتُهُ من المَقَر الأشرف أمير دوادار بكل خير ، ووعدته بكل جميل منه ، وأنه يضمن من المقام الشريف كلما يرومه وزيادة . وحصل بيني وبينه محاورات كثيرة ، وانجلى الحال إلى أنه قال : / إن كان ولا بدَّ من تسليم القلاع لنواب [ص٥١] السلطنة الشريفة ، فيحضر لكل قلعة نائباً ويتسلمها ، بشرط أنَّ رجالي يحفظوا القلعة إلى حين رجوع الخبر من السلطان ، والأمراء هم إخوتي يسألوا صدقات مولانا السلطان في استقراري بالقلاع نائباً ، ويشفعوا لي بذلك .

فأردت أن أقول : ما الفرق بين عدم تسليم القلعتين وبين هذه الصورة . فحبست نفسي عن ذلك لما تحققت من عدم رجوعه عن ضلاله ، وتذكرت قول القائل :

أوضحتم الرشد فمن يهتدي وقلتم الحق فمن يسمع

فقلت له : قد بلغتك غرض الأمراء وما بقي الآن إلا تبليغهم غرضك وبالله المستعان .

فقال : فهل أجهز معك أحداً ، أو فيك كفاية ؟

قلت : بل الواجب أن تجهز من تختار ليسمع جوابهم . وما قلت ذلك إلا لما ظهر لي أنه علم أنه ما أعجبني هذا الكلام ، فأردت الخلاص منه وفارقته على هذا الحكم .

[ص٥٢] فلما رجعت إلى المكان / الذي نزلت به جهز إليَّ الأمير رستم عمه يلاطفني ويخاشني ، فأجبت بجميع ما قال ، وبايعت الله سبحانه وتعالى ، ونزعت ثوب الخوف من قلبي وقلت له في الآخر :

يـا هـذا إني مـا جيت إلا بطلب منكم ، ومـا ضمنت أنـا للمَقَر الأشرف أمير دوادار والكفلاء بـأني أقضي لكم هـذا الشغـل وأخلص لكم القـلاع ، ولا هم بعثـوني متدخلاً عليكم فإن أردتم نتاج الأمر فقد فصلته لكم ، وإن قصـدتم غير ذلـك فـأنتم المخيَّرون .

فقال لي : قصدنا أنك تجتهد في صلاح الأمر على هذا الوجه .

فما وسعني إلا أن قلت : أبذل في ذلك جهدي وطاقتي .

فحضروا بالسماط من عنده ومد ذلـك . ثم أعقب ذلـك بخلعـة حرير نخ(١٦٨) مذهب مفرية سموراً وطاستين صغار فضة وعشرين أشرفياً . وجهَّز معي القـاصـد الـذي حضر أولاً وهو محمـد بن أنخرق(١٦٩) ، ليسمـع كـلام المَقَر الأشرف أمير دوادار والكفلاء ومـا يكون من جـوابهم ، فـأركب جميـع من معـه من عسكره / كاملين [ص ٥٣] العدة ، ورتبهم في طريقي وبعضهم محتفين بي ، وكذلك أمراؤه وأعيان جماعتـه ، ومعهم عمـه رستم إلى أن وصلوا إلى أسفل الجبل ، وفي كل وقت أسـألهم في الرجـوع وهم يمتنعوا من ذلك إكراماً منهم ، ثم أقسمت عليهم بالرجوع فرجعوا .

وتوجهت ومعي القاصد المذكور ، فلمـا وصلت إلى المخيم الكريم وأخبرتـه بما سبق وزيادات اختصرتها الآن ، وأعلمته بما هو فيـه من عـدم الصلاح والانقيـاد ، فطلب المَقَرُّ الأشرف قـاصـده وكتب معـه يقـول : إنـك قلت جهـز لنـا من نثـق بكلامه وسألت أن تدخل في الطاعة الشريفة فأرسلنا إليك . والـدخول للطـاعـة الشريفة لا يمكن إلا بتسليم القلاع وإعادتها للحوزة الشريفة فإن كان لـك غرض تـام في الـدخـول فتسلم القـلاع لنـواب السلطنــة الشريفــة وإن كان غير ذلـــك

(١٦٨) نخ : وردت كلمة نخ بالنون والخاء في كلام ابن بطوطة عن نيسابور بـأنـه يُصنع فيهـا ثيـاب الحرير من النخ والكمخاء (بلدان الخلافـة الشرقيـة ص ٤٢٧) وفي القـاموس : النخ : البسـاط الطويل .

(١٦٩) انخرق : تقدم هذا الاسم في الصفحة (٩٨) أنخرق .

فلا حاجة في إرسالك القصاد والمكاتبات ، فلا تجهز بعدها مكاتبة ولا قاصداً وكن أنت / مجتهداً فيما أنت بصدده ونحن كذلك إن شاء الله تعالى وهذا آخر الكلام والسلام . [ص ٥٤]

فتوجه القاصد بهذه المكاتبة ، وبعد توجهه حضر من عنده نفران متسحبين منه ، وأخبرا أنه لما أصبح نهار الخميس رحل من مكانه وتوجه إلى جهة بحيرة النصارى[(١٧٠)] وفم الأسد ، ثم أعقب ذلك شخص آخر ، وأخبر أنه جهز عسكراً إلى جهة بلاد إعزاز[(١٧١)] والعمق[(١٧٢)] لنهب من وجد بها من الرعية ، وكان قبل ذلك بَلغَ المَقرُّ الأشرفُ أمير دوادار أعز الله أنصاره هذا القصد ، وأعلم أهل تلك النواحي وأنذرهم ، وجهز الأمير عمر بن كندر مع جماعة ليقيم بالعمق ويحذر الرعية ويجمعهم في مكان حصين .

وجهَّز الأمير حمزة بن إينال بأنه يحتفظ على قلعة الراوندان[(١٧٣)] ويكثر من المقيمين بها ويدعهم ينذروا من وراءهم من البلاد ، فإن هذه القلعة متوسطة بين

---

(١٧٠) بحيرة النصارى وفم الأسد : كان يطلق على جبل بركات الذي في تلك الأنحاء اسم كاوور طاغي وهو الجزء الواقع شمال ممر بيلان في جبال الأمانوس ، ولعل ثمة بحيرة اسمها كاوور كولي . أما فم الأسد فالظاهر أنه تعريب آرسلان آغزي أي المضيق الوعر . (المصور ١) .

(١٧١) إعزاز : بلدة سورية تقع إلى الشمال الغربي من حلب ، تبعد عنها ٥٦ كلم ، وهي بلدة قديمة كانت بها قلعة لها ذكر في تاريخ المعارك التي كانت تجري بين الروم وبني حمدان حكام حلب ، وبين الصليبيين ونور الدين محمود آل زنكي . وقد خربها التتار ودكوا قلعتها ولم يبق الآن سوى التل الذي كانت قائمة عليه . وأعزاز قصبة جميلة فيها جامع كبير من بناء ملوك حلب الأيوبيين (انظر موقعها على المصور ٤) .

(١٧٢) العمق : سهل كبير في لواء اسكندرونة يمتد بين جبل الكرد وجبال الأمانوس شمال غرب حلب تتوسطه بحيرة العمق التي تجمع مياه عفرين والأسود ويخرج منها نهر العاصي الصغير الذي يرفد نهر العاصي قبل دخوله أنطاكية (انظر موقعه على المصور ٤) .

(١٧٣) راوندان : قرية تركية من أعمال كلِّس (كليس) المتاخمة للحدود السورية ، كانت بها قلعة =

طريق العمق وبلاد إعزاز وكلز[١٧٤] ، ولا يقطعوا الخبر عن المخيم الكريم أولاً بأول . / فانظر إلى هذا التدبير والتمهيد مدَّ الله سبحانه وتعالى في بقائه وحرسه [ص ٥٥] بملائكته وأنبيائه . فحصل ولله الحمد بهذا التدبير نفع كثير ، فإنَّ كشافة المخذول ما كانت تنقطع عن البلاد وتشاهد ذلك الاحتراز فينا ، تعُد خوفاً من أمر يطرأ[١٧٥] على جماعته كما سبق .

وفي نهار الجمعة حضر الأمير حمزة بن إينال ، وأخبر بأن سوار المخذول نزل بعسكره بالقرب من قلعة الراوندان ، وأن بعض الجماعة من أهل القلعة نزلوا ليلاً واغتالوا منهم ستة أنفار وقطعوا رأس واحدٍ منهم ، وقبضوا الخمسة وصعدوا بهم إلى القلعة .

فنادى في العسكر المنصور بأنهم يركبوا بكرة نهار السبت بأجمعهم ليصلوا معه إلى قرية برج الرصاص ويرجعوا . وكان قصده بذلك إرهاب العدو . فإنه كان يتحقق أن العدو المخذول له كشافة يخبروه بما يقع أولاً بأول . فركبت العساكر المنصورة / بعد صلاة الصبح كاملين العدة ، فتوجهت إلى خدمته قبل أن [ص ٥٦] يركب .

= صغيرة على رأس جبل منفرد لا ينالها منجنيق ولا يصل إليها نبل ، وكان لها ربض صغير في لحف جبلها ، ويطيف بالقلعة وادٍ من شمالها وغربها كالخندق لها وفيه نهر جار . وللقلعة ذكر مكرر في التاريخ . (المصور ٤) .

(١٧٤) كلز : هي الآن كلّس وهي بلدة تركية قريبة من الحدود السورية إلى الشمال من إعزاز (انظر المصور رقم ٤) .

(١٧٥) يطرأ : في الأصل يطري .

[رحلة المؤلف قاضي العسكر إلى تبريز]

وكان عيني قاصداً للأمير حسن باك[١٧٦] صاحب العراقين وما مع ذلك . وجهَّز معي أرمغاناً يليق به ، فقبلت يده وودعته وحمَّلني مشافهة أبديها للأمير حسن باك في أمور تتعلق بالمملكة الإسلامية . وتوجّه في حرز الأمن والسلامة مغرباً والقلوب معه ، وتوجهت إلى جهة تبريز مشرقاً مصحوباً بالأمن والسلامة إن شاء الله تعالى .

وبتُّ تلك الليلة بقرية أوريل[١٧٧] بين عينتاب والبيرة ، ومعي الشيخ علاء الدين الحصني متوجهاً إلى السلطان محمد بن عثمان وصحبته أيضاً من الأرمغان ما يليق به ، والسيد أميرجان لولده السلطان أبو يزيد بالشرح . ورحلنا من أوريل ووصلنا إلى البيرة وقت الضحى .

وكان مع الشيخ علاء الدين فرسين تقدمه أحدها حجرة لم يوجد في بلاد الإسلام مثلها ، فماتت يوم خروجنا من عينتاب من مغص حصل لها . وكان

---

(١٧٦) حسن باك : هو حسن بك الطويل المعروف بلقب أوزون حسن ، أشهر حكام أسرة آق قيونلو ، وهي عشيرة تركانية قدمت من تركستان إلى أذربيجان شمال غرب إيران أولاً ، ثم استقرت بين آمد (دياربكر) والموصل وشكلت دولة آق قيونلو ويقال لها أيضاً الدولة البايندرية و (الغنم الأبيض) ، وقد تولى أوزون حسن رئاسة الدولة في آمد سنة ٨٥٧ هـ وضم أذربيجان سنة ٨٧١ هـ وجعل تبريز عاصمة له .

عاصر أوزون حسن السلطان العثماني محمد الفاتح وكانت بينهما حروب عديدة وتوفي سنة ٨٨٢ هـ وللمزيد من التفاصيل راجع كتاب الدول الإسلامية ٥٦١/٢ .

(١٧٧) أوريل : جاء في كتاب (جغرافي لغاتي) أنّ أورول من المواقع المهمة في شمالي ولاية حلب .

جهز / شرف الدين ابن أخيه لإعلام الأمير من قرية أوريل بذلك ، فحضر إلينا [ص٥٧] يوم الاثنين في البيرة(١٧٨) ، وأخبر أن الأمير نصره الله لما ركب نهار السبت ووصل إلى القرب من برج الرصاص كانت كشافة المخذول سوار حاضرة فشاهدوا ذلك وظنوا أن المَقَرَّ الأشرف ركب لنهب بيوت سوار النازلين بين بحيرة النصارى وفم الأسد ، فجاؤا إليه وأخبروه وهو نازل بالقرب من الراوندان وقصده الإغارة ، وأخبروه بأن العساكر المنصورة توجهت لنهب بيوته وأهله ، فركب في الحال وتوجَّه إلى جهة بيوته ، ورحل من مكانه وتوجه إلى جهة مرعش(١٧٩) خوفاً أن تدركه العساكر المنصورة ، فانظر إلى هذا الاتفاق الغريب ، ولا شك أنَّ كل هذا بعناية الله تعالى ، ودليل سعادته أيده الله بملائكته . وأن الأمير حمزة بن إينال أحضر المقبوضين عليهم من جماعته وعرضهم على المقر الأشرف ، فأمر بهم فرفعوا إلى السجن .

ثم رحلت يوم الاثنين / بعد الظهر وودعت صاحبيّ فإنها توجها إلى جهة [ص٥٨] الروم . ونزلت في عشية ذلك اليوم بقرية تسمى بواجق(١٨٠) ، ثم رحلت منها ووصلت إلى الرُّها(١٨١) ظهر يوم الثلاثاء ، ورحلت منها ظهر يوم الخميس ونزلت

---

(١٧٨) في الأصل والبيرة والصواب ما أثبتناه .

(١٧٩) مرعش : بلدة تركية قاعدة لواء باسمها تقع شمال غربي عينتاب ، ذكرها ياقوت فقال : مدينة في الثغور بين الشام وبلاد الروم لها سوران وخندق وفي وسطها حصن عليه سور يعرف بالمرواني بناه مروان بن محمد الأمويّ الشهير . وهي مدينة كبيرة كانت من أملاك أسرة دلغادر إلى أن استخلصها منهم السلطان سليم الأول العثماني (انظر موقعها على المصور ١) .

(١٨٠) بواجق : لعلها أووه‌جق ويوجد بهذا الاسم قرى كثيرة في الأناضول .

(١٨١) الرُّها : مدينة تركية قديمة إلى الشمال الشرقي من حلب وتدعى اليوم أورفه وهي الآن مركز ولاية ، تقع بين أكمتين ولها قلعة على احداهما ، ولها سور وخندق ، يجري فيها نهران يصبان في بحيرة صغيرة جنوبيها اسمها بركة إبراهيم والمدينة واقعة على المسالك التجارية بين حلب ودياربكر (آمد) والموصل ويقطن حولها عشائر كردية وعربية (انظر موقعها على المصور ١) .

برأس عين الحلاب[١٨٢] ثم منها إلى [١٨٣] ومنها إلى الجبل الأسود[١٨٤] .

[المؤلف في آمد (ديار بكر)]

ومنها إلى آمد[١٨٥] وأقمت بها الاثنين والثلاثاء والأربعاء والخميس والجمعة . ورحلت منها بعد أن صليت بجامعها المشهور بالإتقان والتمهيد في بنائها ، وهي تشبه الجامع الأموي في تكوينها ، ولكن درس غالب معالمها وكذلك العمائر التي كان بناها بها الأراتقة[١٨٦] تشهد لهم بتشييد مملكتهم وعمارتها حين ولايتهم لها .

---

(١٨٢) الحلاب : نهر يمر بالقرب من حرّان ومن فوق الرُّها يرفد نهر البليخ وينبع بالقرب من القرية التي نزل بها المؤلف (انظر موقعه على المصور ١) .

(١٨٣) فراغ في الأصل .

(١٨٤) الجبل الأسود : اسمه بالتركية قره‌جه‌طاغ وهو إلى الجنوب الغربي من آمد « دياربكر » (انظر موقعه على المصور ١) .

(١٨٥) آمد = دياربكر : مدينة كبيرة في شمال الجزيرة الفراتية العليا وعلى الضفة الغربية من نهر دجلة ، اسمها القديم آمد ، ونسبت إلى قبيلة بكر بن وائل العربية التي بلغت تلك الأنحاء قبل الإسلام وبعده ، وغالب أهلها حالياً أتراك بينهم قسم كبير من العرب والكرد ، وهي مركز ولاية تسمى باسمها ، فيها كثير من المساجد والكنائس والمدارس والحمامات وسيلان المياه ، وجوها حار جداً في الصيف وبارد في الشتاء ، ولها تجارة واسعة مع العراق وولايات الأناضول .

والمدينة قديمة تداولتها أيدي الإيرانيين والبيزنطيين ، وفي عهد الدول الإسلامية كانت مقراً لملوك آل بويه وبني حمدان ثم بني أرتق ذوي الغنم الأسود (قره‌قيونلو) والغنم الأبيض (آق‌قيونلو) إلى أن تسلمها السلطان سليم العثماني في طريقه إلى حرب الشاه إسماعيل الصفوي (انظر موقعها على المصور ١) .

(١٨٦) الأراتقة : أسرة منسوبة إلى أرتق من قواد الجيوش السلجوقية ، حكم فرع منها دياربكر ، وحكم آخر حصن كيفا وآمد ، وحكم ثالث خربوت وذلك في القرنين السادس والسابع الهجريين .

فإذا تأمل الناظر في تلك المعالم والآثار وتحقق سمو هممهم وعلوّ مراتبهم تـذكر قول الشاعر :

جرت الرياح على محل ديارهم فكأنهم كانوا على ميعاد

[وصف بلدة حين]

ونزلت على عين ماء بالقرب من قرية الحاج سليمان وصليت بها الصبح يوم السبت ، ورحلت ووصلت إلى مدينة حين[187] ، / وهي ذات أشجار وكروم [ص ٥٩]
وعيون تنبع من أسفل قلعتها ، ولمدينتها سور خراب داثر ، وغالب أهلها نصارى . ورأيت جوامع ومآذن قد سقط بعضها . ومساجدها قد خربت بل دثرت ، وكذلك منازل أكابرها الساكنين بها . وهي بلدة طيبة الهواء ، عذبة الماء في غاية الحلاوة والبرودة . فأعجبتني نزاهتها وحسنها مع كونها خرابة ، وكان قصدي الرحيل منها في تلك الليلة ، فأقمت بها إلى ظهر يوم الأحد اغتناماً ، وسألت أهلها عن اسمها ، فمنهم من قال اسمها « حين » ومنهم من قال « عين » وهو الأقرب ، ومنهم من قال « هين » ولا شك أن هذا تصحيف « حين » أو « عين » فإن التركمان يصحفون العين والحاء هاءً والله أعلم أي ذلك .

ودخلنا أودية وجبالاً شاهقة وبها من أنواع الأشجار إلى قرب المغرب ، ونزلنا بوادٍ بها بعض بيوت أكراد ، ثم رحلنا نصف الليل ونحن بين جبال وأودية

(١٨٧) حين = هاني : مركز ناحية في أقصى الشمال من ولاية دياربكر بتركيا ، ذكرها ياقوت في مادة حين ومادة حاني (انظر أيضاً بلدان الخلافة الشرقية ص ١٤٢) (وانظر موقعها على المصور ١) .

[ص ٦٠] إلى قرب المغرب من يوم الاثنين / ونـزلنـا بـالقرب من قلعـة جبـاحـور[١٨٨] وهي قلعة صغيرة ، وهي برأس وادٍ كبير وبها قرى أكراد وأنهر جـاريـة من كل جـانب وهي مكان بلاسكان .

[المؤلف في ملازكرد ومنابع الفرات]

ورحلنا منها يوم الثلاثاء وعدينا الفرات وهي مقـدار ربع مـاهي بـالبيرة ، فإن غالب المياه تخالط الفرات بعد انحدارها من ذلك المكان . ونزلنـا تلـك الليلـة في وادٍ بين أشجار وجبال لا ساكن ولا متحرك . ثم رحلنا منها ونزلنا عشيـة يوم الأربعـاء إلى مكان واسع وبهـا أكراد كالوحوش لا يشبهـون الإنس إلا بـالصـور ، فسألناهم عن اسم المكان فأخبروا أن هذا المكان يسمى ملش كرد[١٨٩] فصعدنـا جبلاً عالياً وبتنا ببيوت أكراد واجتمعنا بالشيخ محمد الكردي ، ذكر أنه من زرية سيدنا العباس رضي الله عنه .

ثم رحلنـا يـوم الخميس وبتنـا بـوادٍ على نهر جـارٍ خـالٍ عن السكان ، وبـات خيولنـا تلـك الليلـة بـلاعليـق ، وفقـدنـا زادنـا ، وقـاسينـا من التعب والنصب [ص ٦١] مالا يمكن شرحـه . / غير أن الميـاه البـاردة كانت كثيرة والثلوج برؤوس الجبـال كذلك . وأما البرد ففي الأربعينيات بحلب لم نشاهد مثله ، والحال أن سفرنا كان في آب . وضعُف غالب جماعتنا من شدة البرد ، وحصل لي تشويش من ظهر يوم الجمعة إلى نصف الليل من ليلة السبت ثم خفَّ عني ذلك ولله الحمد .

---

(١٨٨) جباحور : محرفة عن جباقجور . وهي مركز قضاء في شمال ولايـة بتليس (انظر موقعهـا على المصور ١) .

(١٨٩) ملش كرد : والصحيح ملازكرد أو منـازجرد ، اسم قضـاء في لواء موش التـابع لـولايـة بتليس التركيـة (قرب بحيرة وان من الغرب) وتقـع مـلازكرد في الشمال الشرقي من هـذه الـولايـة ، سكانها من الأكراد والأرمن (انظر موقعها على المصور ١) .

ثم رحلنا وقت السحر ، ونزلنا بمكان بالقرب من الملاحة البيضاء ، وأيضاً لا ساكن ولا أنيس ، وبات خيولنا بلاعليق . وكان من عناية الله وفضله كثرة العشب والمرعى ، ولولا ذلك لهلكنا ، لأنَّ الدواب كانت تقف ونحن لا طاقة لنا بالمشي والمفازة بعيدة . ورحلنا منها في آخر الليل ، فعاودني الضعف تلك الليلة ، ووصلنا بكرة نهار الأحد إلى جسر ملزكرد ، فوجدناها قد خربت ، وذكروا لنا أن الأصل الكبير الذي تجتمع المياه [به] ويسمى الفرات ، هو هذا الماء وأوله من أرزم الروم(١٩٠) . وهذه رابع مرة عديناه من حين / عديناه من البيرة . [ص ٦٢]

وازداد ما بي في ذلك اليوم من الضعف ، وأيقنت الهلاك ، وكتبت وصية بأمور وأقمت ذلك اليوم بها ، ورحلنا في الثلث الأول ، وأصبحنا بزاوية بابا طشقون ، وهم أناس يزرعون تلك الأراضي ويطعمون لمن يمر عليهم من المسافرين والفقراء ويضيفونهم على حسب طاقاتهم . ونزلنا بمكان كثير العشب والمياه ، وأقمنا إلى قرب الظهر من يوم الاثنين .

[جبل سبحان]

ورحلنا منها ونزلنا من جبل سبحان(١٩١) وهو جبل عالٍ ، والثلوج لا تفارقها صيفاً ولا شتاءً . وزاد ما كنت أجده من الضعف ، فأقمت يوم الثلاثاء ، فحضر إليَّ الشيخ قرط ، وذكر أنه مقيم بجبل سبحان ، وأن بالجبل فقراء ومشايخ مقيمون بها ، وتحضر إليهم النذور ، ووصف بها أشياء غريبة .

---

(١٩٠) أرزم الروم : كذا في الأصل والصحيح أرز روم وهي مدينة تركية تقع في شمال هضبة أرمينيا على نهر قره‌صو ويسمى أيضاً فرات صو ويسير موازياً لنهر مراد-صو - الذي يذكره المؤلف - وإلى الشمال منه ثم يلتقيان شمال شرق ملاطيا ليشكلا نهر الفرات مع روافد كثيرة أخرى (انظر المصور رقم ١) .

(١٩١) جبل سبحان : جبل شاهق الإرتفاع يعلو ٤٤٣٠ متراً يقع شمال بحيرة وان التركية ويشرف عليها (انظر موقعه على المصور ١) .

وهذا الجبل يُرى من مكان بعيد من سائر الجهات . وما رأيت في [ما] شاهدت من الجبال أعلى منه مع كثرة الجبال بذلك الإقليم ، وتبركت به / وتشرفت بدعائه . [ص ٦٣]

وصبيحة نهار الأربعاء رحلنا ووصلنا إلى مدينة أرجيش[١٩٢] ونزلنا بزاوية السلطان المرحوم قرا يوسف[١٩٣] بن محمد باك صاحب تبريز وبغداد والعراقين كان ، وبها قبره ، وهي في غاية الإتقان . وأقمت متضعفاً خمسة أيام ورحلت يوم الأحد بعد أن استعملت محفة للركوب لعدم طاقتي على ركوب الخيل . ونزلت بقرية بابا حيدر ، ورحلت منها صبيحة يوم الاثنين ، ونزلت بجانب بحيرة بندماهي[١٩٤] ، ثم رحلت منها وتركت المحفة وجعلتها حطباً ورضيت بركوب الخيل .

وسرنا بين جبال شاهقة وأودية نازلة ونزلنا بالقرب[١٩٥] ثم رحلنا منها إلى أن مررنا على واد السواد ، إلى أن نزلنا إلى مرج سكمان وبتنابه . ورحلنا في آخر الليل ووصلنا إلى مدينة خوي[١٩٦] وهي كثيرة الأشجار والمياه في جميع جوانبها ، وبها من العمائر / ما تدل على عظمها قديماً . [ص ٦٤]

---

(١٩٢) آرجيش : قصبة قضاء باسمها في ولاية وان التركية ، تقع على الساحل الشمالي لبحيرة وان ، والبلدة قديمة ذات أطلال وآثار وكان اسمها السابق آرسيسه . ويلاحظ عدم ذكر المؤلف لبحيرة وان رغم وصوله إليها (المصور ١) .

(١٩٣) قره يوسف بن قره محمد : هو منشئ دولة (قره قيونلو) توفي عام ٨٢٣ هـ (راجع كتاب الدول الإسلامية ٥٥٦/٢) .

(١٩٤) بند ماهي : ومعناها سكر السمك . ويطلق هذا الاسم على نهر يصب في بحيرة وان ، ولعل المؤلف يريد النهر من ذكر البحيرة .

(١٩٥) فراغ في الأصل .

(١٩٦) خوي : مدينة إيرانية في إقليم أذربيجان وفي الشمال الغربي من تبريز (المصور ١) .

ورحلنا منها صبيحة يوم الجمعة ونزلنا بالقرب من قرية تاسو[١٩٧] وبتنابها ، وأقمنا يوم السبت ، ثم رحلنا يوم الأحد ونزلنا بالقرب من قرية سوران قولي[١٩٨] .

[وصف مدينة تبريز]

ثم منها يوم الاثنين دخلنا مدينة تبريز[١٩٩] وهي مدينة عظيمة كثيرة الأشجار والمياه ، وبها من العمائر ما يضرب بها الأمثال خصوصاً تربة محمود قازان خان[٢٠٠] من ذرية هولاكو ، وهو مشهور بين أهل التاريخ . وأما تربته الآن بتبريز والجامع بجانب التربة فما رأيت فيما شاهدت مثلها وحسن ترتيبها . وهذا يدل على عظم الملك وسعة مملكته .

وأما الجامع والعمارة التي أنشأتها زوجه جهان شاه بن قرا يوسف بالمدينة في غاية الإتقان والحسن ، وحقيقتها لا تعلم إلا بمشاهدتها .

---

(١٩٧) تاسوا : لعلها نَسَوى أو نَشَوى وهي نفس ناغجوان وقد ذكرها ياقوت في مادة نقجوان وفي مادة نَشَوى .

(١٩٨) سوران قولي : معناها ذراع سوران أي فرع من نهر سراو أو سوران .

(١٩٩) تبريز : من أكبر المدن الإيرانية وأشهرها وهي عاصمة ولاية أذربيجان . تقع في سهل فسيح يمتد حتى بحيرة أُرمية وعلى ضفة نهر كبير إسمه آجي جاي (النهر المر) وفي السفح الشمالي من جبل شاهق اسمه سَهَند . وكان لها في العصر العباسي عمران أعظم من الآن ، دام إلى زمن المعارك الكبرى التي دارت بين العثمانيين والصفويين . ونشأ منها علماء وأدباء أشهرهم أبو زكريا يحي بن عليّ المعروف بالخطيب التبريزي (المصور ١) .

(٢٠٠) قازان ويقال له غازان : أحد ملوك التتار من أحفاد هولاكو أسلم وتسمى بمحمود ، تسلم الملك سنة ٦٩٣ هـ هاجم البلاد الشامية بتشجيع من الأمير قبجق نائب دمشق وانتصر على المماليك في وادي الخزندار ودخل دمشق سنة ٦٩٩ هـ ثم انسحب منها وأرسل جيشاً آخر سنة ٧٠٢ هـ هزم شر هزيمة في شقحب قرب دمشق . توفي غازان سنة ٧٠٣ هـ .

ولما رحلنا من المكان المذكور أعني القريب من سوران قولي ، لاقانا المِهمَندار[201] الأمير رستم بجماعة وقد / أظهروا زينتهم ، وقالوا إن البادشاه بلغه [ص ٦٥] وصولكم ، وقد جَهَّزنا إليكم وجهز سماطاً لكم ، فشكرنا فضله ، ووصلنا إلى التربة ونزلنا بها .

[الليلة الأولى في تبريز]

وكنت تلك الليلة قاسيت من الحمى ما لزم الاحتما . فأكل الرفقة ماهيّئ من السماط . وتوجهنا إلى أن دخلنا مدينة تبريز ومَن لاقانا من الأمراء والأجناد إلى أن نزلنا بمكان وبتنا به .

فلما أصبحنا يوم الثلاثاء ، دخل الأمير حسن بهادر[202] مدينة تبريز ونزل بالدار المعدة للإمارة ، فقدم إليه بعض الفقراء طبقين فيهما عسلاً وخبزاً ، فجهزهما لنا مع ساعيه ، وجهز يقول : بأنه كان قصد الإقامة في المصيف ، وما حضر إلا لما بلغه حضورنا ، فشكرنا فضله . ثم نقلنا إلى مكان أفسح وأحسن ، وهو أحد عمائر المرحومة خاتون . وقاضي القضاة علاي الدين ساكن بجوارنا في المكان . وبعض الخدم حضر وغلق الأبواب علينا من العصر وراح ،فبقينا مسجونين وظننا أنه يعود / المغرب فلم يحضر ، فانتظرناه إلى العشاء ، فلم يحضر وبتنا تلك [ص ٦٦] الليلة في أحصر حالٍ خصوصاً لم ننظر مكاناً للتبرز .

فلما أصبحنا استغثنا إلى القاضي مما حوصرنا تلك الليلة ، فكتبت إليه رقعة أقول فيها بعد الحمد له :

---

(٢٠١) المِهمَندار : هو الذي يستقبل الرسل والوافدين ويسهر على راحتهم . والكلمة فارسية الأصل مؤلفة من (مِهمَن) بمعنى الضيف أو المسافر و (دار) مخففة من دارنده بمعنى صاحب ، ويقوم مدير المراسم في عصرنا بهذه الوظيفة .

(٢٠٢) حسن بهادر : هو حسن بك الطويل راجع التعليقة رقم ١٧٦ .

يقبل الأرض وينهي أنه سجن من غير أمر موجب ، لا لغريم تشكى منه ، ولا لـدَيْن طـولب ، ورضي بـذلـك ، لكنـه منـع من الـوصـول إلى محـل التبرز ، وما علم المراد في عظم هذا التحرز ، والمملوك يلتجئ لمولانا قاضي القضاة في إزالة هذه النازلة ، والمصيبة الهائلة ، وفتح الباب للذهـاب والإيـاب ، ويقسم بـالله ثم بـالطلاق ، أنـه بعـد هـذا الإطلاق ، لا يعود إن شـاء الله إلى يوم التـلاق . والله سبحانه وتعالى يصبح مولانا قاضي القضاة بما يسره .

فلمـا وصلت الرقعـة إليـه قرأهـا وتبسم ورسم بفتح الأبواب . ولا يخفى على أهل الأدب مافي قولي الالتجاء والتصبيح من التهكم .

[المؤلف وحسن الطويل]

ولما كان / ضحوة نهار الأربعاء طلبني السلطان حسن للحضور بين يـديـه ، [ص ٦٧] فاعتذرت لسخونة عرضت لي ، فجهز من يسأل عني ويسلم عليَّ منه . وجهَّز شيئـاً من العسل والفاكهة وغير ذلك من المرتب .

ولما كان يوم الخميس جاءني المهمندار وقال : إنَّ البادشاه يرسم لك بـالحضور بعـد الظهر إلى محل خلوتـه . فصليت وتـوجهت معـه . فلمـا وصلنـا إلى قصره ، أدخلنا مكاناً وجلسنا فيه إلى العصر ، ثم طَلَبَنا ، فدخلت عليه وعنده جمـاعـة من أهل العلم والتجار الواردين عليه من سائر الأقاليم . فلما قربت منه قام من مكانـه وأجلسني بجانبه .

فأول ما بدأ أن سألني عن مولانا السلطان الملك الأشرف قـايتبـاي خلَّـد الله ملكه ، ثم عن المَقَر الأشرف الأمير يَشْبَك الدوادار ، نظام الملـك وبـاش العسـاكر الإسلامية أعز الله أنصاره ، فقلت بخير ويسلمان على البادشاه .

فأثنى بكل خير / وقال : والله أنا أحبها ولا أعلم إلا مملكتي ومملكتها واحد ،[ص٦٨]

وهذه عساكري حاضرة مهما اخترت منهم خذ ، وقد سألت السلطان بذلك مراراً فلم يَرِدْ عليَّ جواب وما علمت المراد .

فقلت : بسعادة مولانا البادشاه ، الأمر ما يحتاج إلى هذا ، وسوار أقل وأخسّ من أن يجتمع عليه عسكر مولانا السلطان خلَّد الله ملكه وعسكر البادشاه . وهذا من بعض تركمان المملكة الحلبية . ومما سبق من الأمور فسببه ظاهر لا يحتاج إلى التفصيل ، لأن مجلس البادشاه لا يحمل بسط ذلك . ومولانا البادشاه يعلم حقيقة الحال ، وإلا من قديم الزمان وإلى الآن لم يزل كافل المملكة الحلبية بمفرده يركب على الدلغادرية ويشتت شملهم ويخرجهم من البلاد . والآن بسعادة البادشاه قد أُخِذَتْ عينتاب في سبعة أيام ، وحصل الملاقاة مع بعض
[ص٦٩] عسكره بنفر قليل من المماليك السلطانية فانكسروا / وقتل باشهم وأخذ سنجقه ، وقتل من أعيانهم نحواً من أربعين نفراً ، ولولا أنهم التجؤوا إلى الجبل لما نجا منهم أحد . وكل أمور عساكر الإسلام على أتم نظام . كل ذلك بحسن تدبير الأمير نظام الملك الشريف ، والرخا متزايد بالعساكر الإسلامية ، وقد تضعضع الغريم وولى من مكانه هارباً .

ثم سألني عن أمر العساكر الإسلامية وما هم فيه ، فأخبرته بكثرتهم وقوتهم واتفاقهم وانقيادهم لنظام الملك أعز الله أنصاره ، وأن كلاً من الكفلاء والأمراء يطلب رضاه ، وأخبرتهم بما هم فيه من الاهتمام وكثرة آلات الحصار والزردخاناه والصناع وإلى غير ذلك .

فظهر لي في وجهه الكراهة لَمّا سمع قوة العساكر المنصورة ، ثم التفت إلى القاضي حسن وقال : « اقرأ كتابه » فقرأه وفهم ما فيه بعد أن ترجم له بعضه القاضي حسن ، ثم قال لفقيه حاضر بالمجلس : « اقرأ لنا شيئاً من الحديث
[ص٧٠] النبوي / وذكر لي أنّ عادته في كل ليلة جمعة يجتمع عنده علماء توريز[٢٠٣] ويقرأ

(٢٠٣) توريز : تبريز .

عنده شيء من البخاري ، يفعل ذلك للتبرك والفائدة .

فبدأ القارئ في حديث الغار وهو : الثلاثة الذين أووا إلى غار من المطر من بني إسرائيل . والحديث مشهور . فذكر في الاسناد نافعاً عن ابن عمر .

فقلت للجماعة : من هو هذا نافع الذي يروي عن ابن عمر ؟

وما أردت إلا فتح الكلام ، وإلا فهو أشهر من « قِفانبك » فوالله جميع من كان بالمجلس لم يعرفه ، فمنهم من قال لا يلزم معرفته ، والفطن منهم قال : هذا يعلم من أسماء الرجال .

ثم فرغ القارئ من الحديث فترجم شيخ منهم الحديث للبادشاه بغير ترتيب . ثم نقل من تفسير القاضي بأنه قال : إن أصحاب الكهف الذي ورد القرآن في حقهم هم هؤلاء الثلاثة .

فقلت له : هذا كلام منقوض .

فقال : ما النقض فيه ؟

فقلت : لأن الله سبحانه وتعالى / أنزل في حق أهل الكهف قرآناً وبيّن [ص ٧١]
أحوالهم مفصلاً ، والنبي ﷺ ذكر أهل الغار بصيغة التنكير ، وبيّن أنهم من بني إسرائيل وذكر عددهم ، والله سبحانه وتعالى ذكر اختلاف الناس في ذلك ، ثم أسند علم حقيقة عددهم إليه ، والنبي ﷺ بيّن عددهم وأفعالهم من الخير ولم يذكر في عددهم اختلافاً ولا ذكر أنه صحبهم كلب ، وكذلك حين استيقظوا من منامهم . واختلفوا في مدة لبثهم في الكهف وتجهيز أحدهم لشراء طعام للأكل . وحاصل الكلام ليس بين القصتين مناسبة بوجه من الوجوه .

فشرع يصيح ويستغيث بأن النقل موجود في تفسير القاضي .

فقلت له : إني أعرضت عن الذي نقلته فأجب ، فسكت .

ثم حضر الطعام فأكلوا ، وكنت متوعكاً ومد السماط للحاضرين ، وفي أمام البادشاه مائدة صغيرة فيها خمسة أو ستة / صحون ، فطلبني إلى مائدته المختص [ص ٧٢]
به ، فرأى اشتغالي بأكل الخبز عن الطعام واللحم . فسألني عن ذلك فقلت : إن

لي مدة ثمانية عشر يوماً مُحْتَمٍ عنها . فطلب ربّ حصرم[٢٠٤] ، وأحضر ذلك في صحن من دهنج[٢٠٥] ، وأشار إليَّ بالأكل من ذلك ، فأكلت منه قليلاً لأجل خاطره .

ثم قمت على عادتنا ، فتعجّب من قيامي وقال : لِمَ لَمْ تصبر حتى يرفع السماط ؟

فاعتذرت إليه بأن الطبع والعادة أغلب ، وقد سبقاني إلى ذلك من غير اختياري ، وكان الأمر كذلك .

فقال القاضي حسن : والله إنَّ عادة إقليمكم في غاية الوحاشة .

قلت : ولِمَ ذلك ؟

قال : لأن أحدهم يأكل وغيره واقف ينتظر ليجلس مكانه ، كيف يستريح الآكل مع القائم ؟ أو القائم مع الآكل ؟

فقلت : قد ورد السنة النبوية بأن النبي ﷺ كان يوضع بين يديه المائدة [ص٧٣] فيأكل الناس إلى أن يشبعوا ثم يقوموا فيجلس غيرهم / ثم كذلك ، وقد وقع مثل هذا كثير بل كان هذا من عادة العرب . وبعث ﷺ وهم على ذلك فأقرهم ، ووقع له ذلك ﷺ بقلة الطعام وكثرة الناس فأكلوا فوجاً فوجاً وطائفة بعد طائفة وشبع الجميع من الطعام القليل وعُدَّ ذلك من معجزاته ﷺ .

ومن ذلك قصة جابر رضي الله عنه يوم الخندق ، وأبي هريرة رضي الله [عنه] حين أثَّرَ فيه الجوع وطلب النبي ﷺ أهل الصفة وأشبعهم من القدح الواحد ، وعدد أهل الصفة مشهور .

فلما رفع السماط أذن لنا فتفرق المجلس وتأخر البعض ،وكان ممن تأخر

---

(٢٠٤) الحصرم : هو العنب الفج الحامض .

(٢٠٥) دهنج : حجر خفيف هش تنسب إليه قوى غريبة في مقاومة السموم . وبالفارسية بادزهر أي طارد السم (محيط المحيط) .

الخواجا علي الآمدي وهو من الخصيصين به ، فأخبرني أنه لام القاضي حسن وقال : ما كان فيكم أحد يُلزمه ويجيبه ؟ والله لقد صعب ذلك علي .

فما وسعه إلا أنه قال : إن علماء العجم يشتغلون بالمعقول ، وعلماء العرب ليس لهم / دأب إلا الحديث والتفسير والفقه . وقد ظهر لي أن القاصد يستحضر [ص ٧٤] شيئاً كثيراً من ذلك .

ثم طلبني يوم الأحد في محل خلوة ، وأحضر سماطاً ، فتمنعت من الأكل لما سبق من الضرورة . فلما رفع الطعام قال لي : إن في مطالعتك أن الأمير الدَوَادار حمَّل مشافهة فهاتها .

فقلت : نعم ، أما الأولى فإنه يطلب أمير أصلان بن ملك أصلان بن دلغادر .

فقال : قد رسمت بذلك إن أراد أن يتوجه بنفسه أو يجهِّز قاصده معك . ثم ما ؟

فقلت : الثانية : إن بني ربيعة قد تحصنوا ببلاد الرُّها ، وفي كل وقت يقطعوا الطريق ببلاد حلب وينهبوا ما يجدوه .

وكان موسى كبير بني ربيعة حاضراً ، فطلبه وأنكر عليه إنكاراً بالغاً ، ومن جملة ما قاله له : والله وتربة جدي ما يبلغني صحة هذا وإلا سلخت جلد الأبعد وأخرجت جميع بني ربيعة ، كم مرة أوصيكم بالرعية خصوصاً رعية الشام .

فشرع / يعتذر ويحلف أن هذا الأمر ما وقع من طائفته ، وإنما هم عرب [ص ٧٥] غيرهم يَتَسَمَّون باسمهم .

فقال : ما أعرف .

ثم قال لي : إذا حصل من هؤلاء شيء ما أو من غيرهم ممن يتعلق بي فصححوا ذلك ثم أعلموني .

وبلغني ممن أثق به أنه طلب موسى المذكور وهدده وحلف أنه إن صحَّ هذا الأمر عنهم لم يبق منهم أحداً .

فقال : إيش غير هذا ؟

فقلت : إن جماعة حضروا وذكروا أن البادشاه أنعم عليهم بقرايا ببلا[د] سروج[٢٠٦] وهي متعلقة بالبيرة والقرى التي قبلها هي إقطاع للبحرية بالبيرة .

فقال : والله ليس لي علم بذلك .

ثم رسم بكتابة مرسومه إلى نائب الرُّها بالوصية بأطراف بلاد الشام ، وأنه لا يدع أحداً ولا يمكّنه من التعرض للقرى التي في حد الشام ، وأكد عليه في ذلك ، وكذلك يفحص عن الكردي الذي يشوش على القرى التي من جهة الفرات المتعلقة بقلعة المسلمين ويقابله أشد مقابلة . وكنت ذكرت له ذلك / أيضاً . [ص٧٦]

ولما كان يوم الخميس طلبني أيضاً فتوجهت إلى قصره ، فرأيته في جمع كبير من علماء تبريز ، وكان حاضراً عنده ابن السيد الشريف[٢٠٧] شارح الكشاف من شيراز ، وجماعة من علماء بغداد وسمرقند[٢٠٨] فقام وأجلسني بجانبه . فلما تكامل المجلس أمر بقراءة البخاري على عادته في ليلة الجمعة ، فقرأ القارئ حديث (سبعة يظلهم الله ... الحديث) فلما فرغ من قراءة الحديث شرع يترجم للبادشاه بالتركي ، ويفسره له .

---

(٢٠٦) سروج : كانت قرية من أعمال حرّان من ديار مضر ، وهي بين أورفة والبيرة من الجنوب ، وهي مركز قضاء سروج في الجزيرة ، وقد انقسم هذا القضاء عقب الحرب العالمية الأولى إلى قسمين : شمالي تركي وفيه سروج وجنوبي سوري باسم قضاء عين العرب ، وقد خربها تيورلنك ، وآثار السور والخندق والحمامات باقية تحت الأرض (المصور ١) .

(٢٠٧) هو السيد التريف الجرجاني .

(٢٠٨) سمرقند : من أكبر مدن آسيا الوسطى وأشهرها ، وتقع في إقليم الصغد بجمهورية أوزبيكستان في الاتحاد السوفياتي . والمدينة تقع إلى الجنوب الشرقي من بخارى ،وكانت من أعظم مراكز الحضارة الإسلامية ، اتخذها تيورلنك مقراً له برهة من الزمن ، وأهلها من التتار والأوزبك وبعض الروس الذين سكنوها بعد احتلالها في عام ١٨٦٨ وفيها جوامع ومدارس إسلامية كثيرة .

فقلت : هل تحفظون لهذا السابع ثامناً ؟

فكان جواب القارئ على أن كتاب البخاري كتاب جليل وليس بعد كتاب الله كتاب أصح منه ، وما ذكر فيه غير سبعة .

فقلت : صحة البخاري ما فيه كلام ، وما ثم نزاع في ذلك ما خلا جماعة من المغاربة ، فإنهم ذكروا أن كتاب مسلم أصح منه وأعلى رتبة وفضلوه على البخاري .

فقال : حاشى لله .

قلت : إن الذي قلته ذكره النوويّ في شرح / مسلم ، وذكره القاضي عياض [ص٧٧] وغيره . وإذا كان لهذا ثامناً وتاسعاً لا يلزم منه الطعن في البخاري . ثم أنشدت البيت المشهور :

سارت مشرقة وسرت مغرباً　　　شتان بين مشرق ومغرب

فقال شخص من الحاضرين : إذا فرضنا أن هذا السابع له ثامن فما تم في الحديث آلة حصر .

فقلت : سبحان الله ، وهل السؤال كان عن هذا . وشرع كل منهم يتكلم من جهة ويرفع صوته ، فسكتُّ .

فقالوا : إن كنت تحفظ شيئاً أكثر من السبعة فقل لنا . وما أجبتهم بشيء .

فقال البادشاه : إن كنت تحفظ شيئاً فقل لهم .

فقلت : يا مولانا البادشاه ، هذا المقام مقام امتحان . وإذا حضروا مجلس الإفادة أفدتهم وأوصلتهم إلى أربعة عشر كما أفادني شيخي وأستاذي حافظ المشرق والمغرب الشيخ شهاب الدين بن حجر تغمده [الله] برحمته .

فقال : ولا أنا .

فقلت : أما مولانا البادشاه إذا رسم يكتب له ذلك إن شاء الله تعالى .

[ص٧٨] ثم رسم بقراءة شيء / من مكان آخر وصار كلاماً كثيراً : من ذلك حديث معاذ بن جبل رضي الله عنه ، وهو قوله ﷺ « أفتان أنت يا معاذ » . فسأل البادشاه منهم ما سبب ذلك ؟ فلم يجبه أحد منهم بشيء ، والحال أنه قرئ قبل حديث أنس بن مالك رضي الله عنه وهو قوله « ما صليت خلف أحد أتمّ ولا أخفّ من صلاة رسول الله ﷺ » . فرأيته يلتفت إليّ حين تحقق عجزهم عن الجواب .

فقلت يا مولانا البادشاه : إن معاذ بن جبل من أفقه الصحابة ، وكان قارئاً حافظاً أنصارياً ، وكان يصلي صلاة العشاء خلف رسول الله ﷺ .

فقال : ما معنى الأنصاري ؟

فقلت : كانوا طائفة يسكنون المدينة وكانوا في كل سنة يحضروا موسم الحج في الجاهلية ، فحضروا سنة من السنين قبل الهجرة وسمعوا بالنبي ﷺ ، وطلب منهم النصرة فبايعوه ، وهي بيعتين يقال لهما بيعة العقبة الأولى والثانية وبايعوا [ص٧٩] / النبي ﷺ أنه [إذا] حضر إليهم يمنعوه مما يمنعون منه نساءهم وأموالهم . ولما هاجر إليهم النبي عليه الصلاة والسلام نصروه وقاتلوا أعداءه ، فسموا بذلك أنصاراً . والمجلس لا يحتمل فإن القصة طويلة ، وهم طائفتين أوس وخزرج ، ومعاذ منهم . وكان معاذ إذا فرغ من الصلاة خلف النبي ﷺ يذهب إلى قومه فيصلي بهم العشاء ويطوّل بهم القراءة ، فشكو ذلك للنبي ﷺ ، فنهاه عن التطويل . وقوله ﷺ « أفتان أنت » ، ذكر بعض العلماء أنه تهديد لمعاذ رضي الله عنه ، حتى قال بعض الصحابة : أنه ما رأيت رسول الله ﷺ غضب مثل غضبه حين بلغه تطويل الصلاة . وقال بعضهم إن رجلاً من بني سلمة

يقال له سليم أتى رسول الله ﷺ فقال : إنا نظل في أعمالنا حتى نمسي فيأتي معاذ بن جبل فينادي بالصلاة فنأتيه فيطول علينا ، فقال له / النبي ﷺ [ص ٨٠]
« لا تكن أو لا تكونن فتاناً ، إما أن تصلي معي وإما أن تخفف عن قومك » .

واستدل الشافعي رضي الله عنه بالحديث الأول على جواز [صلاة] المفترض خلف المتنفل . فتقول السادة الحنفية رضي الله عنهم : إن النية أمر باطني لا يطلع عليها إلا بأخبار الناوي ، فجاز أن تكون نيته مع النبي ﷺ الفرض ، وجاز أن تكون النفل ، فإذا لم يخبر بشيء من ذلك فلا يظن بمعاذ أنه يصلي إماماً بالنافلة لقوم يؤدون فروضهم ، لأن الفرض أصل والنافلة فرع . ولم يرد عن معاذ رضي الله عنه شيء .

فيجيبوا الشافعية عن ذلك ويقولوا : أن معاذ بن جبل لا يظن به أنه يترك فضيلة فرض صلاته خلف النبي ﷺ .

فتقول السادة الحنفية رضي الله عنهم : إن فضيلة صلاته خلف رسول الله ﷺ لا يفوته على الحالتين ، لكنه إذا صلى متنفلاً فسد صلاة من خلفه / وفي هذا المحظور ما لا يخفى . [ص ٨١]

ولكل من الطائفتين حجج يضيق مجلس مولانا البادشاه عن إيرادها .

فأعجبه هذا إلى الغاية ، فحضر السماط ومدّوا وأكل . وكان جماعة تبريز قد استحضروا مسائلاً من سائر العلوم ، فلم يحصل لأحد منهم نوبة للكلام لما سبق ، وكان ذلك من فضل الله وعونه .

ومن غريب ما اتفق أن القاضي حسن وهو قاضي عسكره ، وفي ذلك البلاد يكون مقام كاتب السر في المملكة المصرية ، اجتمعت به في وقت لأمر من الأمور ، فتجارينا في الكلام وكان بيني وبين والده المرحوم الشيخ شرف بن يعقوب مودة أكيدة وشركة في طلب العلم الشريف ، وكان يقرأ على شيخنا

المرحوم الشيخ شهاب الدين أحمد المرعشي تغمده الله برحمته ، وسمعت بقراءته الزهراوين من الكشاف وغيره ، ورافقته وصحبته بمصر أيضاً مدة ونعم الصاحب كان رحمه الله ، / فسألني عن ترجمة المَقر الأشرف أمير يَشْبَك الدَوَادار وباش [ص٨٢] العساكر المنصورة أعز الله أنصاره وأيده بملائكته الكرام ، فذكرت فضله وعقله ورأيه السديد ، وتأمله في الأمور مع تأني عالم لا خايف ، وتلقيه الوقائع بقلب قوي من غير توان فيما يأتي ، وأما سخاؤه فعام ، يعطي الجزيل ولا يمنّ ولا يذكر ولا يفتخر ، حتى أني منذ صحبته لم أسمع يوماً منه أنه قال : أعطيت فلاناً كذا ، أو صنعت مع فلان كذا . وأما مرؤته فلا يمكن وصفها واطلاعه على الحوادث وإيراده الحجج في الكلام مع الخصم إلى النهاية ، وأما شجاعته وعلمه بالفروسيات فيشهد له بذلك الصديق والعدو .

وأما علمه بدقائق الرسائل فلا يجاريه فيه إلا من رسخ في العلوم ، فبقي يتعجب من ذلك ، وربما ظهر لي منه أني أطنبت في مدحه لمحبتي له ، فقلت له وأنا أريك شيئاً يشهد ببعض ما قلته / لك وتعلم أني قصرت في مدحه [ص٨٣] وما طولت .

وتذكرت في ذلك أنه أدام الله أيامه ، كان كتب جواباً للمخذول سوار لكلام بلغه الأمير هابيل بن طقتمر ، وكان المذكور ممسوكاً عنده فأطلقه ، وحمله كلاماً أجاب عنها ، وكانت المسودة عندي وصحبتها معي ، فطلبتها في الحال وأوقفته عليها ، فبقي كلما يقرأ فصلاً يتعجب ويقول : والله ما أطنبت في وصفه ، من يتكلم بمثل هذا الدرّ هو فوق ما وصفت .

ولما توجّه إلى عند البادشاه ذكر له المجلس بتمامه ، فطلب البادشاه رستم المهمندار وقال : توجه إلى القاضي الذي حضر قاصداً من الشام ودعه يحضر ومعه الكتاب الذي جهّزه الأمير الدوادار لسوار ليقرأه علينا وننظر فيه . فحضر إليَّ

المذكور فتوجهت معه فلما دخلت عليه قام من مجلسه وأكرمني غاية الإكرام ، فجلست في مكاني على العادة / فقال أحضرتـ[ـه] معك ؟ [ص ٨٤]

فقلت : نعم وهل يخالف مرسوم البادشاه .

قال : فاقرأه وفسره حتى نعلم ما فيه .

فقرأته حرفاً حرفاً ، وكلما فرغت من فصل ترجمته له وهو يقول فيما يعجبه من الكلام « اخربت بيت القحبة زان » ويهز رأسه .

فلما فرغت من الكتاب قال : والله ما كنت أظن أنه يوجد في المماليك مثل هذا .

وكان في الكتاب من الإستشهادات من القرآن والحديث وأشعار العرب والترك ما يناسب الحال في كل فصل .

فقال البادشاه للقاضي حسن : اكتب نسخة هذا الكتاب عندك فإن فيه حكم ونصائح لمن يفهم . فأخذ القاضي الكتاب مني وكتبه ثم رد المسودة إليّ .

وفي يوم الأربعاء سابع عشر شهر ربيع الآخر ، حضر إليّ المِهمَندار ومعه خلعة مفرية وشقا[٢٠٩] ووجهه فلفل على النحيل ، وألف بنكاه وفرس وبغل وعشرين قطعة من القماش الملون / من القطني وغيره . وكتب الجواب لي ورسم [ص ٨٥] بأن أجتمع بالأمير أمير أصلان بن ملك أصلان بن دلغادر ، واتفق معه على أنه يحضر أول الربيع بعد الشتاء ، وأطيب خاطره ، وكتب له كتاباً معي يأمره بذلك ، وطلب في كتابه من المَقر الأشرف باش العساكر الإسلامية أعز الله أنصاره ، جماعة من الأكراد المتسحبين من عنده إلى المملكة الإسلامية فلم يجبه إلى ذلك .

---

(٢٠٩) شقا : لعلها (جوقة) وهي قماش من الصوف مبطن بشعر دقيق ناعم ، أو هي شقة بمعنى قطعة قماش .

[عودة المؤلف من تبريز]

فأقمت بتبريز الخميس والجمعة ، وفي يوم السبت المبارك وهو العشرين من شهر ربيع الآخر ، رحلنا من مدينة تبريز ، ونزلنا بقرية سروان قلي[(٢١٠)] ، وكان من الاتفاق الغريب من حين وصولي ، حصل لي الضعف كما سبق ، ومدة الإقامة بتبريز عشرين يوماً لم تفارقني الحمى ، وخرجت وأنا موقن بالهلاك ، فأدركني الله بلطفه الخفي ، أني لما فارقت فناء تبريز رزقني الله العافية ، وكأن الضعف لم يكن ، وبتُّ / تلك الليلة بالمكان المذكور بخير ليلة وأصبحت وقد تزايد العافية [ص٨٦] ولله الحمد .

ونزلنا يوم الأحد بقرية تاسوا ثم منها إلى مدينة خويّ ، ثم منها بتنا بمفازة ، ثم منها بتنا بوادي الظلمات ، ثم منها نزلنا بقرية بندماهي معناه بالعربي سُكُر السمك ، ومنها إلى مدينة أرجيش ، وأقمت بها يومين ، وحصل لي بعض تشويش ، ثم رزقني الله العافية ، ومنها نزلنا بقرية نصاري ، فأمطرت علينا تلك الليلة إلى الصباح من الثلوج ما لا يعبر عنه ، وقاسى جماعتنا من الريح والبرد ما لا يعبر عنه ، وبت أنا وحدي في إصطبل البقر ، وأصبح الثلج والهواء مترادف لا ينقطع ، وقاسينا إلى أن حمَّلْنا الأحمال أشد مقاساة ، ورحلنا منها في أسوأ حال ، ومرينا على مدينة هدا الحور[(٢١١)] ، وهي مدينة ذات سور وقلعة شاهقة وبها من الأنهار والبساتين شيء كثر وهي بجانب البحيرة . وماء البحيرة تضرب أمواجُها سورَها .

---

(٢١٠) سروان قلي : كذا في الأصل ، وقد تقدم رسمها « سوران قولي » مرتين .

(٢١١) الحور : لم نهتد إلى أصل هذه الكلمة ، إلا أن تكون محرفة عن (عاد الجواز) وتنطبق أوصافها على ما ذكر المؤلف : فهي مركز قضاء في شمال بحيرة وان . وتقع بالقرب من البحيرة .

فما نزلنا بها / ومرينا على ظهر إلى أن نزلنا بقرية ووجدنا بها الشيخ [ص٨٧] يوسف ، فأنزَلَنا عنده ، وبتنا تلك الليلة والثلج والهواء متصلان من غير انقطاع .

[لقاء المؤلف للأمير أصلان]

ورحلنا منها نهار الثلاثاء سلخ شهر ربيع الآخر ، ونزلنا بمدينة أخلاط(٢١٢) فرأيتها مدينة ذات قلعة حصينة ، وبالقلعة جماعة صاحب بدليس(٢١٣) محاصرون ، والقتال متصل بينهم وبين جماعة البادشاه ، وأحد الأمراء الأمير أصلان بن ملك أصلان بن دلغادر ، وكان معي كتاباً من البادشاه إليه ليجهز شخصاً ممن يثق به من جماعته ليتوجه معي وينظر كلام نظام الملك ، وفي أول الربيع يتوجه هو بنفسه إن سمع ما يرضيه .

فلما بلغه وصولي جهّز من لاقاني ، ونصب لي خاماً وأنزلني في أحسن منزل ، وأجرى الضيافة على العادة . ثم حضر إليّ فناولته الكتاب فقرأه واستبشر بحضوري ، وقال : أنت والدي ، ومهما رأيت من المصلحة فأنا ما أخالفك / في [ص٨٨] كل ما تشير به .

فقلت : المصلحة اغتنام الفرصة لأن نظام الملك نصره الله له بكم عناية جيدة .

---

(٢١٢) أخلاط : قال شمس الدين سامي في قاموس الأعلام : آخلاط : قصبة قضاء في ولاية بتليس وعلى الساحل الشمالي الغربي من بحيرة وان . وقد كانت فيما مضى قصبة أرمينيا الوسطى ، وتقع على أكمة تبعد نصف ساعة عن البحيرة ، ولا تزال أطلالها ماثلة (انظر موقعها على المصور ١) .

(٢١٣) بدليس : وتكتب بتليس . مدينة كبيرة في شرق الأناضول ، وهي مركز ولاية بتليس ، وتقع على بُعد ١٥ كلم من الساحل الغربي لبحيرة وان ، وأكثر أهلها من الأكراد . ذكرها ياقوت الحموي فقال : هي بلدة من نواحي أرمينية قرب خلاط (انظر موقعها على المصور ١) .

فجهَّز معي دواداره خضر الدلغادري فسافرنا من أخلاط يوم الأربعاء مستهل شهر جمادى الأولى ،والثلوج تنزل ، ولا زلنا إلى بعد العشاء ، ولا ننظر سوى الجبال ، والأرض لا ترى من الثلج ولا أثر الطريق ، فنزلنا في غابة وانقطع منا جماعة من شدة البرد والثلج ، وما اجتمع آخرهم إلى قرب نصف الليل . وكان من عناية الله أن صادفنا حطباً كثيراً ، فأوقدنا منها جانباً إلى أن رُدَّت إلينا أرواحنا وحصل بذلك رفق .

[رحلة العودة إلى حلب]

ثم رحلنا وسلكنا بين جبال وأودية وثلوج إلى أن وصلنا إلى موش(٢١٤) والحال كما سبق ، ثم رحلنا منها وبتنا بجانب الفرات في مفازة ، ثم منها إلى وادي ملش كرد ، ومرينا على ظهر ونزلنا بمفازة ، ووجدنا بها أيضاً حطباً كثيراً وأوقدنا على العادة . ورحلنا منها بعد صلاة / الصبح إلى أن وصلنا إلى [ص٨٩]
حبق‌حور ، ومن ذلك فارقنا الثلوج ، فكان جملة مسيرنا في الثلوج على الصفة المذكورة ستة أيام .

ثم منها إلى مدينة حين ، ثم منها إلى قرية من قرى آمد ،ومنها إلى مدينة آمد نهار الأربعاء ،وأقمنا بها إلى نهار الخميس ، ورحلنا منها بعد الظهر .

وفي ظهر يوم الأحد ثاني عشر جماد الأول ، وصلنا إلى مدينة الرُّها(٢١٥) ، وأقمنا بها إلى صبيحة نهار الثلاثاء . ورحلنا منها ووصلنا إلى مدينة البيرة ، ولاقانا نائبها الأمير أردبش ، وأنزلنا بالقلعة ، وأكرمنا إكراماً بالغاً ، فالله يجازيه عنا كل خير .

---

(٢١٤) موش : ذكر ياقوت أنها بلدة من ناحية خلاط بأرمينية . وقال شمس الدين سامي صاحب قاموس الأعلام التركي : أنها مركز لواء في الشمال الغربي من بتليس وسكانها أكراد . (انظر موقعها على المصور ١) .

(٢١٥) الرُّها : التعليقة ١٨١ .

ثم رحلنا منها إلى جهة حلب المحروسة . وفي صبيحة نهار السبت تـاسع عشره دخلنا إلى حلب المحروسة .

[الرحلة إلى معسكر الأمير يَشْبَك]

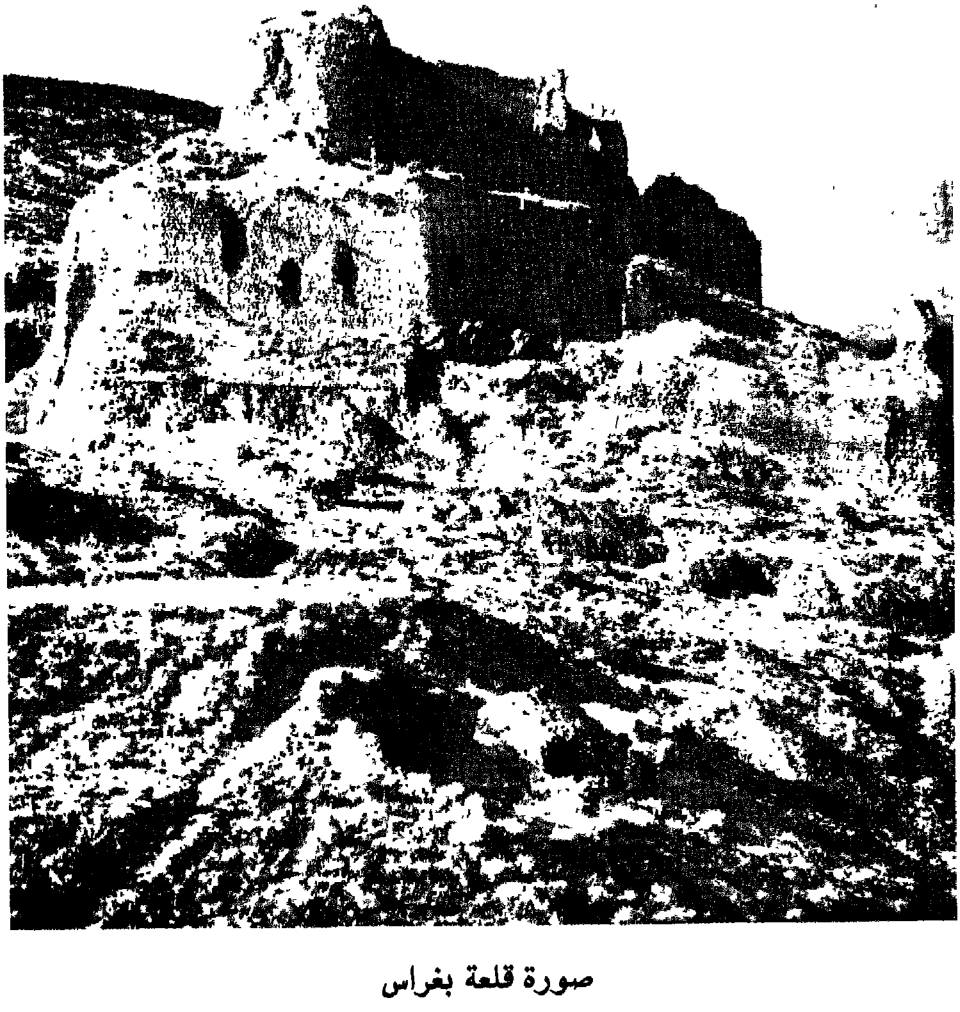
ثم رحلنـا منهـا يوم الخميس مستهـل شهر جمـاد الآخر ، ووصلنـا إلى العسكر المنصـور يـوم الاثنين خـامسـه بمكان يسمى الأكليسـة بـالقرص(٢١٦) / من أعمـال [ص ٩٠] حقراوة ، وقبل وصولنـا شـاهـدنـا مكان الحرب الـذي وقع بين المَقر الأشرف أمير يَشْبَك الدوادار وباش العساكر الإسلامية أعز الله أنصاره وبين المخذول شاه سوار . هذا ما كان من أمري .

[المؤلف يروي ما حدث أثناء غيابه]

وأما أمر العساكر الإسلامية ، فأخبرني من أثق بكلامه ، أنه لما انتهت عمـارة قلعة عينتـاب ، عيَّن لنيـابتهـا الجنـاب العـالي السيفي بهـادر ، دوادار السلطـان بـالشـام ، إلى أن تبرز المراسيم الشريفـة لمن يستقر بهـا ، فلم يـوافـق على ذلـك ، فاعتقله المَقَر الأشرف بالقلعة ثلاثـة أيـام ، فحضر جميع الأمراء والكفلاء ، وتراموا على مراحم باش العساكر المنصورة ، فعفى عنه واستقر به نائباً بها ، وأضاف إليـه فرج بن مقبل أمير كبير صفد ، وأقباي الحططي الحاجب بطرابلس ، ومن جنـد الحلقة إلى أن كمل مأتي نفر ، وأودع فيها زردخانة وقمحـاً وشعيراً ودقيقـاً وبـاروداً وجميع ما يحتاج إليه .

---

(٢١٦) أكليسة بالقرص : لعلها كلّيس بالقرص وقد مر الكلام على كلّيس . وأما قرص فتـدعى قـارص الدلغادرية ، وهي مركز قضاء في ولاية أذنة نسبت إلى الدلغادرية تفريقـاً لهـا عن قـارص في القفقاس ولأنها كانت من أملاك الـدلغـادريـة . ولعل كلّيس كانت تـابعـة لهـا (راجع جغرافي لغاتي) .



صورة قلعة بغراس

فلما / كمل ذلك توجه الركاب الكريم العالي إلى جهة العمق ، وكان توجهه [ص٩١]
في يوم السبت رابع عشر ربيع الأول . وفي يوم الخميس تاسع عشره ، نزل على القناطر بالعمق ، ورحل منها ونزل على أنطاكية .

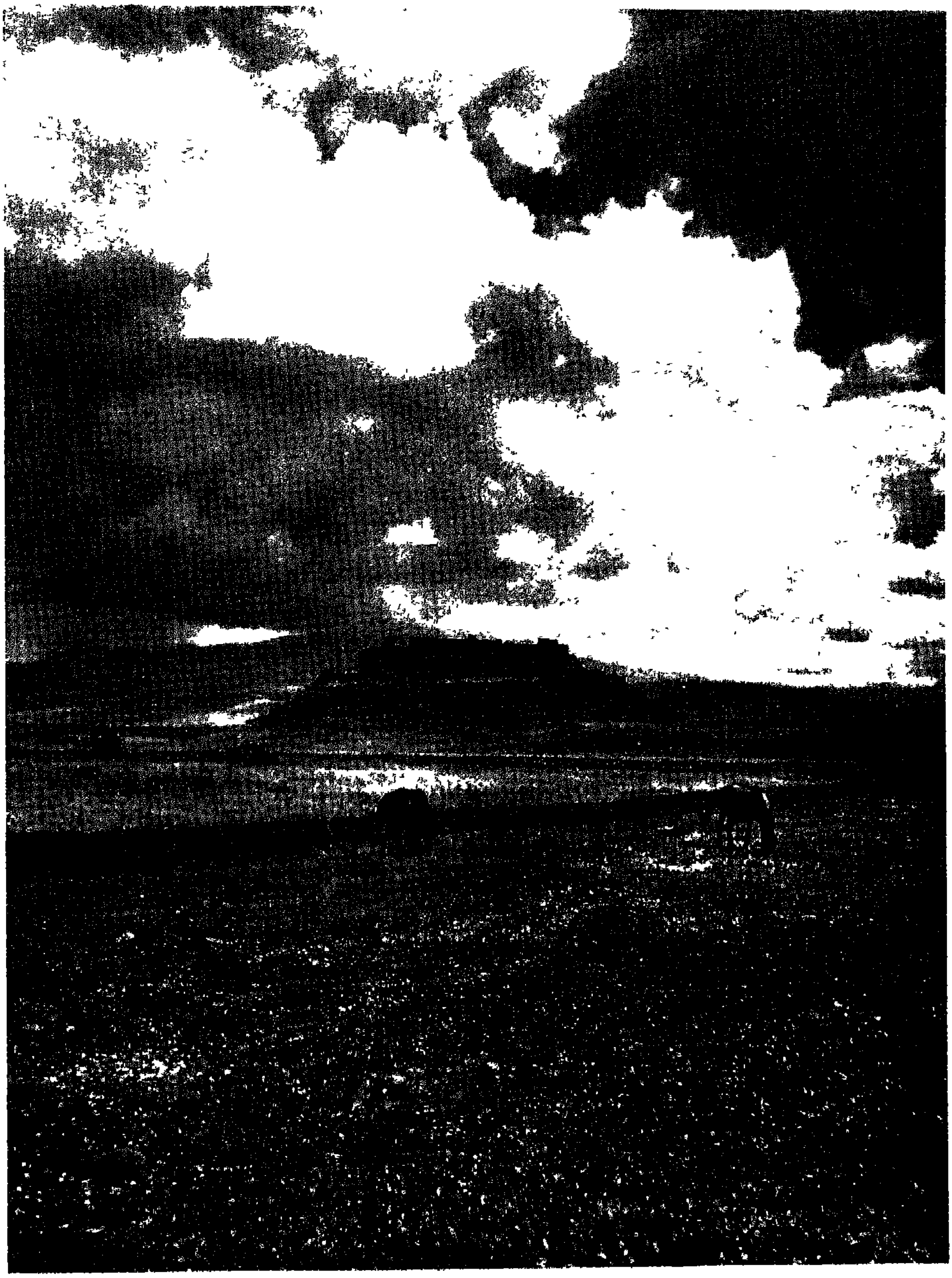
وفي يوم الجمعة سابع عشرين شهر تاريخه ، تسحب الأمير موسى بن قراجا ، فأكرمه المَقَر الأشرف غاية الإكرام ، وأنعم عليه بألف دينار ، وألبسه كاملية مفرية سموراً طرشاً وفرساً بكنبوش وسرج ذهب ، وأوعده عن الصدقات الشريفة بكل خير ، وأحضر معه رعيته ومن يلوذ به ، وقيل إنه فرّق الألف عليهم كل أحد على قدر مرتبته ، والتزم بدخول أهل البلستين ومرعش للطاعة الشريفة .

وفي ثاني عشرين شهر ربيع الآخر ، دخل المَقَر الأشرف باش العساكر المنصورة بمن معه من العساكر ، وعدّى عقبة بغراص[٢١٧] وكان يوماً شديداً على الجمال ثم منها وعدّا باب الملك / ثم منها إلى مدينة إياس ، وفرّق بها عليق شهر [ص٩٢]
جمادى الأول . وفي مستهله حضر الأمير سلمان بن دَلغادر أخو شاه سوار المخذول ، فأقبل عليه المَقَر الأشرف باش العساكر المنصورة وألبسه كاملية مفرية سموراً طرشا ومركوب خاص بقماش ذهب وأنعم عليه بخمسمائة دينار .

وفي يوم الخميس بلغ المسامع الكريمة أن المشاة قصدهم أن يتسحبوا ، فجهز جماعة من مماليكه لربط الطرقات ، فتوجهوا تلك الليلة ، وربطوا لهم الطرقات ، فحصّلوا منهم جماعة كثيرة ، وأحضروهم في يوم الجمعة ثالث شهر تاريخه ، فخرج منهم عدة اثنين وثلاثين نفراً ، ولولا فعل ذلك لتسحب جميع المشاة وتعطل أمر المهم الشريف .

---

(٢١٧) بغراص : اسم لقرية وقلعة مبنية فوق جبل شاهق في جبال الأمانوس بلواء اسكندرونة تشرف على ممر بيلان الذي يجتاز الأمانوس ويمر منه طريق أنطاكية اسكندرونة ، تطل على وادٍ عميق ، وهي الآن خربة وأطلالها شاخصة وقد تردد ذكر القلعة في التواريخ العربية (انظر موقعها على المصور ٤) .



صورة تل حمدون

وفيه حضروا الكواخي[٢١٨] بحلب فأودعهم المَقر الأشرف أعز الله أنصاره الحديد ، وضرب بعضهم بالمقارع ، وكتب عليهم التزاماً وأطلقهم .

وفي يوم الثلاثاء حضر حدادار أخو سوار المخذول فألبسه كاملية / مفرية [ص٩٣] سموراً طرشاً ومركوباً خاصاً بقماش ذهب وأنعم عليه بمئتي دينار .

وفي يوم الخميس رحل الركاب العالي بمن معه من العساكر ونزل بتل حمدون[٢١٩] وأقام به يوم الجمعة عاشره .

وفي آخر النهار أجهر النداء لجميع العسكر المنصور بالركوب باكراً لنهار يوم السبت ، فركبوا في اليوم المذكور ، ورتب كافل المملكة الشامية في الميمنة ، وأضاف إليه الأمير خاير باك ومضافاته ونائب طرابلس وحماة وصفد وجعلهم ست صفوف . وفي الميسرة كافل المملكة الحلبية ، وأضاف إليه الأمير برسباي ومضافاته وجميع التركمان والأكراد . وركب المَقر الأشرف باش العساكر الإسلامية في وسط العسكر وصحبته الأمير تمراز الشمسي ، ومشاة جبل نابلس وأولاد بشارة ، وترك المخيم الكريم في تل حمدون ، واستمر سائراً إلى أن وصل إلى نهر جيحون[٢٢٠] . كل ذلك إرهاباً للعدو المخذول فلم يجد به أحداً ، فعاد / فلحقه [ص٩٤] جماعة من العسكر ، وهو في أثناء الطريق قبل وصوله إلى المخيم ، وأخبروا أن جماعة من السوارية حضروا إلى نهر جيحون بالمكان الذي وصل إليه الركاب

---

(٢١٨) الكواخي : جمع كيخيا المحرفة عن كتخدا وهو القيّم على المزرعة أو القرية أو القصر .

(٢١٩) تل حمدون : اسم لقرية وقلعة تقعان في شرقي سهل أضنة على التلال التي تتقدم جبال الأمانوس في سفوحها الشمالية الغربية وصفها أبو الفداء في تقويمه ٢٣٠ : وقلعة تل حمدون حصينة لها سور جيد حسنة البناء وهي على تل عالٍ ولها ربض وبساتين ونهر يجري عليها . (المصور ١) .

(٢٢٠) جيحون : والصواب جيحان وهو من أنهار الأناضول الكبرى وله روافد كثيرة ، ويصب في خليج اسكندرونة بالبحر المتوسط (انظر موقعه على المصور ١) .

الكريم ، فرجع في الحال إلى أن وصل إلى المكان المذكور فلم يجد به أحداً ، فما أمكنه العود بعد ذلك ، فرسم بإحضار المخيم الكريم ونصبت على نهر جيحون ، وأوقع الترسيم على الأمير بيبرس أمير كبير طرابلس بسبب انقطاعه عن المهم الشريف ، فترامى الكفلاء والأمراء على مراحم المَقر الأشرف باش العساكر المنصورة فعفى عنه وأطلقه .

وفي ليلة يسفر صباحها عن خامس عشر جماد الأول ، عيَّن المَقر الأشرف باش العساكر الإسلامية الأمير إينال الأشقر رأس نوبة النوب إلى قلعة أدنة ، وجهز صحبته جميع ما يحتاج إليه من الزردخاناه لمحاصرة القلعة .

وفيه جهَّز نائب حلب المحروسة جماعة من مماليكه والتركمان كشافة ، فوقعوا في جماعة السوارية / وقطعوا منهم خمسة رؤوس . [ص ٩٥]

وفيه حضر عادل فقيه وأقاربه ومعهم مفتاحين لقلعتين ، فألبسهم كوامل وسلاريات(٢٢١) وأنعم عليهم بنفقات ، وفيه ضرب جماعة من التركمان ، وأجهرهم بواسطة تعديتهم إلى ذلك البر ، فإنه كان أجهر النداء أن أحداً لا يعدي خوفاً عليهم ألا يقع بهم أحداً من جماعة المخذول سوار فيحصل نقص للحرمة الشريفة .

وفي اليوم العشرين من شهر جماد الأول ، حضر الأمير (٢٢٢) أخو المخذول سوار ، فألبسه كاملية سموراً طرشاً ومركوباً بقماش ذهب ، وأنعم عليه بنفقة مأتين دينار .

وفي الثالث عشرين من شهر تاريخه ، عيَّن المَقر الأشرف باش العساكر المنصورة أعز الله أنصاره وأيده ، جماعة من المماليك السلطانية وجماعة من مماليكه

---

(٢٢١) سلارية : نسبة إلى سالار وهو الآمر الأعلى أو الرئيس . وسالار اسم أمير من المماليك قتله المنصور محمد بن قلاوون . ولعل هذا اللباس مما أحدثه هذا الأمير .

(٢٢٢) فراغ في الأصل .

وجعل باشاً عليهم الجناب السيفي قانباي / رأس نوبة وأعطاه شطفة وطبلاً [ص ٩٦]
وزمراً ، وتوجهوا إلى قلعة أدنة عونة لمن بها إرهاباً للعدو المخذول ، وورد من الجناب العالي السيفي إينال رأس نوبة النوب ، يذكر أنه ركب المكحلة على قلعة أدنة ، ورمى بها وأخرب البرج ، واحتاج إلى بارود وزردخاناه ، ففي الحال عين الجناب العالي جانم الزردكاش(٢٢٣) وصحبته الزردخاناه التي طلبها .

وفي خامس عشرينه وسادس عشرينه استمرت الأمطار ليلاً ونهاراً .

وفي سابع عشرينه حضر شاه سوار المخذول إلى نهر جيحون ، ومعه عسكر عظيم . فركب المَقَر الأشرف باش العساكر المنصورة وتوجه إليه . فلما وصل إلى شاطئ النهر وجد العساكر المنصورة مفرقة على غير الهيئة التي رتبها ، فحصل عنده تغير خوفاً عليهم ، فأجهر النداء بالعود ، وعاد إلى مخيمه الكريم ونزل به ،
وكان ذلك مكيدة للعدو المخذول حتى طمع وحضر الجميع إلى النهر ، / فلما عاين [ص ٩٧]
ذلك ركب من وقته في عصر ذلك اليوم ، وتلاقى الفريقان ، فحصلت النصرة على العدو المخذول من وقته وساعته ، وولوا مدبرين هو وجميع عسكره ، وقتل منه خلق كثير لا يعلم عددهم إلا الله تعالى ، ولولا حال الليل بين الفريقين لما كان نجا منهم أحد .

وعاد المَقَر الأشرف أمير الدوادار ونظام الملك الشريف وباش العساكر المنصورة إلى مخيمه الكريم بعد أذان العشاء بعشرين درجة مؤيداً منصوراً مسروراً بما منحه الله من النصر العظيم والفتح المبين . وأجهز النداء لجميع العساكر المنصورة بأنَّ من كان معه رأس أو أسير يحضر به ، فأحضروا الرؤوس فاسْتُعِدَّتْ فكان عدتها خارجاً عما ترك بالأودية والجبال ثلاث مئة وعشرين رأساً ، ورسم بتجهيزها إلى القلاع وإلى حلب والشام وإلى قلعة أدنة .

---

(٢٢٣) الزردكاش : المسؤول عن صنع السلاح وصيانته .

[ص ٩٨] واسْتُعِدَّت الأسراء / فكان عدتهم مئة نفر ونفرين .

وفي يوم الثلاثاء المبارك بعد الفجر ركب المَقَر الأشرف باش العساكر المنصورة بمن معه وتتبع آثار العدو ، ونزل الأمير تمراز الشمسي أحد المقدمين بالمخيم .

وفيه حضرت بشارة أدنة ودخولها في الحوزة الشريفة .

وفي يوم الأربعاء استمر في أثره إلى أن وصل إلى قلعة(٢٢٤) فأدخلها للحوزة الشريفة ، ونهبت العساكر ما كانت بها من الغلال والدقيق والزبيب والمشمش والنحاس ، فحملوا ما أمكن حمله وحرقوا الباقي . وصعد إليها المَقَر الأشرف باش العساكر المنصورة ومن معه من الأمراء ، وأذن فيها وأقيم الصلاة وشعائر الإسلام .

وعاد في يوم الخميس المبارك مستهل شهر جماد الآخرة ونزل بجبل القرص(٢٢٥) ، وبات هناك هو وجميع العساكر ، وجهَّز الأمير موسى بن قراجا إلى جهة المرعش . وكل من وجده من الأسرى فلاحاً أطلقه .

[ص ٩٩] / وفي يوم الجمعة انتقل الركاب الكريم بمن معه من العساكر المنصورة ونزل على نهر صورون .

وفيه حضر إليه الجم الغفير من الكواخي والأمراء ، وسألوا في الأمان فأجابهم ، وأخلع عليهم خلعاً ورسم لبعضهم بنفقات تليق بهم ، ورسم لكل طائفة أن يجمع قومه وينزل بالأماكن الجاري لهم بها عادة ، ففعلوا ذلك وتزايدت أدعيتهم في الصحائف الشريفة . وفي أثناء ذلك حضر صارندار(٢٢٦) سوار ، وسأل في الأمان ، فأجابه وأمنه وأخلع عليه ورسم له بنفقة . وبعده حضر أمير

---

(٢٢٤) فراغ في الأصل .

(٢٢٥) جبل القرص : لعله بغراص التي مر شرحها .

(٢٢٦) صارندار : بمعنى محافظ الخزينة وربما حرفت عن سرحدار بمعنى محافظ الحدود .

آخوره[227] وصحبته دشار[228] المخذول سوار وعدته مئة وستين فرساً .

وفي يوم الأحد جهّز إلى قلعة سيس الجناب العالي السيفي سودون العلائي وجماعة من الخاصكية وخازندار سوار المخذول يعرض عليهم الدخول للطاعة الشريفة ويحذرهم عن السطوات / الشريفة فعاد من غير طائل . ثم جهز المَقَرّ [ص ١٠٠] المشار إليه كافل المملكة الحلبية بعسكر حلب ، وكافل المملكة الشامية ، وكافل المملكة الحموية ، مع عسكرهما ليحاصروا القلعة ، وينظروا في أمرها ، فحضر يوم الخميس ثامن شهر جماد الآخر المجلس الناصري محمد دَوَادار كافل المملكة الحلبية مبشراً بأن دولات باي مملوك سوار المخذول النائب بقلعة سيس أذعن لتسليم القلعة وسلمها ، ولابد من حضور الركاب الكريم .

[وصول المؤلف إلى المَقَر العالي]

ووصلت إلى خدمته الكريمة من عند حسن باك صاحب العراقين في يوم الأثنين خامس شهر تاريخه ، فركب عصر يوم الخميس وتوجه إلى جهة سيس ونزل بها بعد العشاء ليلة الجمعة . ثم أصبح يوم الجمعة وصعد القلعة وطلب دولات باي المذكور ، وألبسه خلعة وأعطاه نفقة جليلة ولبقية الأمراء بسيس . وصعدت معه إلى القلعة وشاهدتها ، فإذا هي من أعظم القلاع ، وفي وسطها / قلعة أخرى [ص ١٠١] تسمى القُلّة ، ورأيتها قلعة حصينة لو كان فيها رجال يحفظوها ما أمكن أخذها بالحصار لصعوبتها وعلوها . ومن الاتفاق الغريب أن سيس كان أخذها المرحوم عاشق تمر كافل المملكة الحلبية في أيام الأشرف شعبان سنة ست وسبعين وسبعمائة من الأرمن وبقيت في الحوزة الشريفة .

---

(٢٢٧) أمير آخور : المسؤول عن اصطبل السلطان أو الأمير ، وما فيه من حيوانات .

(٢٢٨) دشار : محرفة عن جشار ومعناها مرعى الخيل ، وأطلق هنا على مايحتويه الجشار من الخيل .

ثم استولى عليها سوار المخذول مرتين ، وأخذها منه المَقَرُّ الأشرف المشـار إليـه في سنة ست وسبعين وثمان مئة .

ثم عزم المقرُّ الأشرف نظـام الملـك الشريف أعـز الله أنصـاره ، بـأن يتـوجـه بأُناس قلائل ليكشف مدينة أدنة وقلعتها التي بناهـا سوار المخـذول عنـد استيلائـه عليها ، ثم منها إلى قلعة إيـاس ، ورسم للأمير تمراز الأشرفي أنـه يقيم بـالمخيم الكريم إلى أن يعود ، فتوجه وصحبتـه كافل الشـام والأمير برسبـاي قرا وبعض الأمراء ،
[ص ١٠٢] الجميع على جرائـد الخيل / ورسم لي بـأن أتوجـه إلى حلب وأشتري لـه الميرة بهـا ، وأختـار لـه مكاناً للنزول ، وعزم أن يشتي بهـا . وجهَّـز الأمير قـانبـاي صلـق إلى الأبواب الشريفة بالأخبار مفصلاً .

ورحلنا عصر الجمعة من سيس وتوجـه إلى جهـة أدنـة ، وتوجهت إلى حلب ، ووصلت إلى حلب المحروسة يوم الأحـد ثـامن عشر جمـاد الآخر ، ووقع اختيـاري على بيت قاضي القضاة الشافعي ابن الشحنة لحسن تكوينها وكثرة منافعها .

[المؤلف يطنب الأمير يَشْبَك بالمديح]

وفي رابع عشرينـه ، وصل الركاب الكريم العـالي إلى حلب المحروسـة ، وكان لـدخولـه مـوقـع عظيم ، ودعــاء كثير من الرعيــة لمــا كان حصـل لهم من القهر للإنكسار لمن سبق من العساكر المتوجهين لسوار . وأقام بحلب وهو مؤيـد منصور ومسرور بمـا مَنَّ الله عليـه من قهر العـدو المخـذول وتشتيت شملـه وتفريق جموعـه
[ص ١٠٣] وأخذه للقلاع وعودها للحوزة الشريفـة في هـذه المـدة اليسيرة ، / واتفق لـه من السعد وانقياد الأمور له كما يحب ويريد . وكل ذلك بحسن نيته وطويتـه وقصـده العز للرعية وخلاص حق المظلوم من الظـالم . خصوصاً من المماليـك السلطـانيـة الـذي جرت العـادة على أنهم يفعلوا الأمور المشهورة عنهم من أخـذ أمـوال النـاس وهتك حريمها .

ومن بعض محاكماته أن جماعة من المماليك السلطانية كبسوا مكاناً كان فيه أمرد وفعلوا فيه الفعل القبيح ثم أطلقوه ، فجاء إليه وتشكى وتظلم ، فطلبهم في الحال فغيبوا منه . وظفر بشخص من أهل حلب كان معهم ، وربما هو الذي كان دلَّهم عليه ، فضربه أولاً بالعصي من رأسه إلى قدمه ، ثم ضربه بالمقارع وأشهره بالمدينة ثم حبسه . وبقي يتطلب المماليك وهم يدوروا على الأمراء ويطلبوا الترامي على مراحمه ، فكل من يشفع فيه لا يجيبه إلا أن يقول له : « لو فرضنا أن هذا الصبي لو كان ابنك أو قرابتك كان يهون عليك ، إلى أن تعب الأمراء في الصفح عنهم / فلم يسمع لأحد منهم شفاعة بل كلما تكلم أحد بسببهم زجرهم [ص ١٠٤] وأسمعهم ما يكره وقطع رواتبهم وجوامكهم من الديوان السلطاني .

وأما اجتهاده في خلاص حقوق المسلمين فشيء لا يمكن وصفه ، فالله سبحانه وتعالى يجازيه عن المسلمين كل خير ، فإنه أيَّد الدين الحنيفية وفرح المسلمون بطلعته السعيدة وتيمنوا قدومه المبارك عليهم ، خصوصاً أهل حلب فإنهم كانوا يظنوا أن العساكر إذا أقامت عندهم تغلى الأسعار كما جرت العادة قديماً في إقامة العساكر ، فكان من الاتفاق الغريب أنه من حين دخل حلب لم تزل الأسعار تتراخى وتنزل يوماً فيوماً وجميع الأشياء موجودة وكثيرة ، وهذا لم يتفق لأحد ممن سبقه ولله الحمد على ذلك . ولم يزل مقيماً بحلب يأمر وينهى ويعطي الكثير لمن يقصده من القصاد والوراد والتركمان وغيرهم عطاء من لا يخاف الفقر . وأعرف شخصاً واحداً / وهب له في مدة يسيرة ألفين ديناراً . وأما المئة والمئتين [ص ١٠٥] وما دونها فشيء لا يحصر . ورأيت بعيني يوم وصول الأمير موسى بن قراجا أخلع عليه وعلى الجماعة الذين حضروا معه من أكابر الدلغادرية أربعة وتسعون خلعة في ساعة واحدة . وكنت أرى عطاياه الجزيلة وكثرتها حتى أني ما كنت أشك أن رزقه نصره الله مبروك فيه لكثرته .

وفرّق ليلـــة النصف على الفقراء من أهــل العلم ، وخصهم على غيرهم من الفقراء لما يعلم أنهم يقدموا على غيرهم من الفقراء في يوم واحد خمسمائة أشرفياً منها ثلاث مائة على يـدي . فـالله يجزل ثوابـه ويجعل لنـا منـه حظـاً ونصيبـاً . وكان سبب ذلك أني تذاكرت معه ليلة الرابع عشر من شعبان في فضائل ليلـة النصف ، وقلت إن بعض المفسرين ذكر في تفسير قـولـه تعـالى : ﴿ فيهـا يفرق كل أمر
[ص ١٠٦] حكيم ﴾ أنها ليلة النصف من شعبـان ، وأن الله يقسم فيهـا / الأرزاق والأعمـار ، ولابأس أن تتصدقوا بشيء في هذه الليلة الشريفة ، فرسم إذ ذاك بخمسمائة دينار . فانظر إلى حسن تلقيه واعتقاده وانقياده لفعل الخيرات . ومـا علمت مـدة إقـامتي في خدمته أن مظلوماً تظلم له ولم يخلِّص حقه ، اللهم إلا أن يكون لذلـك ضرورة يحتـاج لتـأخيرهـا لـوقت آخر ، ومن ذلـك أن شخصـاً من أهـل حمـاة اشتكى على استادار نائب حمـاة بـأنـه قتل ولـده ، وأنـه يريـد مكاتبـة للنـائب بجمع القضـاة وإثبات حقه ومقابلته بما يثبت عليه شرعاً ، فتوجَّـه الشـاكي ورجع بغير طـائل ، وانتهى أن نائب حمـاة لم يخلص حقـه ، وكان طلب نـائب حمـاة للتوجـه إلى المهم الشريف ، فالتزم الأيمان الشرعية أنه لا يمكن الاجتماع بـه ولا يرى وجهـه إلى أن يرضي الشاكي بأي وجه كان ، فانظر إلى هـذا التجلـد في خلاص الحق حرسـه الله بملائكته الكرام .

[ص ١٠٧] وأما تفاصيل مكارم أخلاقه وبشـاشتـه / وعقلـه وتـدبيره ، فشيء أعجز عن وصفه .

[استئناف الحديث عن الرحلة]

وأقـام بحلب إلى أن مضى الشتـاء ، وحكم الربيع ، وخرج منهـا يـوم الأحـد سادس عشرين شهر شوال في أحسن أهبة وهيبة ، وقد ألبس مماليكه بعدة كاملة ، والخوذ على رؤوسهم تلمع كالبرق ، ورمـاحهم بـأيـديهم ، وألـزمهم بحمـل رمـاحهم بأيديهم ، ونادى بأن غلاماً حمل رمح أستاذه قطعت يـده ، فحصل بـذلـك الرفق

للغلمان وزيادة هيبة للعساكر المنصورة ، فمن حينئذ اقتدى به جميع الكفلاء ونزل بالأنصاري[٢٢٩] .

وتوجه يوم الاثنين إلى جهة العمق ورسم لي بالإقامة بحلب لأمور تتعلق به ، ثم بعد أيام جهّز لي كتاباً يذكر فيه أنه وجد مكاناً بالقرب من بغراص على الطريق ، ويحصل به مشقة عظيمة للمسافرين من الصخور التي على الطريق ، وطلب حجارين لقطع ذلك ، فجهزت إليه جماعة من المعلمين وزالت عن الطريق وحصل للمسلمين بذلك رفق / عظيم ولله الحمد ، وأصرف على ذلك [ص ١٠٨] جملة .

ثم رحل من العمق إلى جهة يغرا[٢٣٠] وأقام بها أياماً ، ووصل إليه الأمير علاء الدين علي بن ططر من شاه سوار ، ومعه مكاتبة منه أنه سلم قلعة درندة لابن صاروخان ، وكان توجه لذلك ، وأنه يترامى على الصدقات النظامية ليدخل للطاعة الشريفة ويكون مملوكه ومملوك الأبواب الشريفة ، ويعفى عما صدر منه .

وكان رسم له أنه إذا حضر وداس البساط الشريف يلبسه تشريفاً شريفاً . وحلف المَقَرُّ الأشرف النظامي له بعدم التشويش عليه بوجه من الوجوه ، فأجاب عن ذلك بأنه يعرف ما وقع منه من الأمور ، وأن وجهه بذلك أسود ، ويختشي أنه إذا حضر بأمان يحصل عليه نكد . فقبل عذره في الظاهر ، وجهز ابن ططر المذكور إلى الأبواب الشريفة يوم الثلاثاء تاسع عشر شهر ذي قعدة ، ثم رحل من يغرا ونزل بمكان يسمى [ ][٢٣١] / ثم منها إلى مكان بالقرب من فم الأسد . [ص ١٠٩]

---

(٢٢٩) الأنصاري : كانت قرية قريبة جداً من حلب ، وهي الآن أحد أحيائها .

(٢٣٠) يغرا : اسم قرية قديمة في شمال سهل العمق في لواء اسكندرونة على بحيرة تنسب إليها ، وفيها كانت لنور الدين وقعة مع الصليبيين هزمهم فيها .

(٢٣١) فراغ في الأصل .

وأقمت بحلب إلى سادس عشرين شهر ذي قعدة ، ورحلت منها يوم الثلاثاء . وأدركته يوم الجمعة وهو نازل على مكان يسمى آغ دكرمان .

ثم رحل منها يوم السبت سلخ شهر تاريخه ونزل بكينول[٢٣٢] ، فرأيت الهلال على وجهه الكريم أيَّده الله بملائكته ، وأنشدته بيتين للصولي[٢٣٣] حين رأى الهلال وهو واقف عند المتوكل من بني العباس وقضيته مشهورة بين أهل التاريخ وهو قوله :

رَدَّ قولي وصَدَّقَ الأقوالا وأطَاعَ الوشاةَ والعذالا
أتراه يكون شهر صدود وعلى وجهه رأيت الهلالا

وأخبرته بالحكاية من أولها إلى آخرها فأعجبه . ثم رحل من كينول نهار الأحد وصعد الجبل المشهور بتكلي بلي ، ولقي العساكر به مشقة عظيمة من كثرة الأحجار وصعوبة المسلك خصوصاً الجمال ، ونزل على النهر الأزرق[٢٣٤] وانقطع
غالب الجمال / المحملة ، وباتوا في الطريق ، وأقام يوم الأثنين ينتظر المنقطعين [١١٠]
إلى أن تكملوا .

---

(٢٣٢) كينول : والصواب كينوك وهي من بلاد الروم من أعمال آسيا الصغرى . كان العرب يسمونها الحدث الحمراء لأن سيف الدولة بناها بحجارة حمراء (النجوم الزاهرة ١٦٧/٧) .

(٢٣٣) الصولي : هو إبراهيم بن العباس بن محمد بن صول الصولي ١٧٦ ـ ٢٤٣ هـ ، أصله من أتراك جرجان ، نشأ في بغداد ، وتأدب بها ، فكان كاتب العراق في عصره ، كتب للمعتصم والواثق والمتوكل وتنقل في الأعمال والدواوين ، قال عنه ياقوت : كان إبراهيم إذا قال شعراً اختاره وأسقط رذله وأثبت نخبته ، ومن مؤلفاته : ديوان رسائل ، ديوان شعر ، كتاب العطر ، كتاب البطيخ .

(٢٣٤) النهر الأزرق : ويسمى بالتركية كوكصو ، وهو نهر يجري في ولاية أدنة (كيليكية) ويصب في البحر المتوسط غرب خليج مرسين (انظر موقعه على المصور ١) .

[فتح قلعة خرمان]

ووقع من الإتفاق الغريب أنه لم ينكسر بها جمل واحد من فضل الله تعالى وسعده ، فالله يعطيه من الخيرات ما يؤمله . ثم رحل منها رحلة واحدة إلى ألبلستين ونزل بها ، وكان سبقه نائب الشام بعسكره ، والأمير برسباي قرا بمن معه من المضافين إليه من المماليك السلطانية ، فلما نزل بها رسم لنائب الشام والأمير برسباي بالرحيل إلى جهة خرمان(٢٣٥) ، وأقام هو إلى ظهر يوم الأربعاء ، ورحل منها إلى أن وصل قلعة خرمان أذان المغرب ، فإذا هي قلعة حصينة .

فلما أصبح المقر الأشرف نظام الملك الشريف نصره الله ، جهز إليهم شخصاً يذكر لهم أنهم يسلموا القلعة وهم آمنون على أنفسهم وأموالهم ، فلم يرضوا وربما كلموه كلاماً قبيحاً . ثم أرسل إليهم الأمير أردوانه(٢٣٦) فأجابوه مثل ذلك ورموا عليه سهاماً ، فرجع بغير طائل .

فلما شاهد المَقَرُّ الأشرف ذلك منهم / ما وسعه إلا أنه ركب بنفسه وتولى حصار [ص ١١١] القلعة . ولم يزل يوم الخميس القتال يعمل بين الفريقين إلى المغرب وجرح جماعة منها . وبات المَقَرُّ الأشرف تلك الليلة وهي ليلة الجمعة في مكان بالقرب من السور وصنف شيئاً غريب الشكل يدخله أربعة أنفار من الخشب ، ولا زال به إلى أن التصق ودخل فيه النقابون ، ونقبوا من أسفل السور إلى أن قربوا إلى داخله ، واستمر العمل إلى ظهر يوم الجمعة ، وتحقق أهل القلعة أنهم مأخوذون فما أمكنهم إلا أنهم أذعنوا للصلح وطلبوا الأمان ، فلم يجبه المَقَر الأشرف المشار إليه ، وقال : أنا

(٢٣٥) خرمان : لم نعثر على وصفها في المصادر التي قلبناها . ويبدو أنها في شمال ألبستان .

(٢٣٦) أردوانه : هو شقيق شاه سوار .

عرضت عليهم الأمان أولاً فلم يرضوا ، والآن حين أيقنوا بـالبوار يطلبون الأمـان . فحضرت الأمراء ولا زالوا يترامون على مراحمـه ويسـألوه العفو والصفح عنهم إلى أن أمّنهم على أنفسهم وأموالهم ، ومـا كان من اللبوس والقماش / وآلات القلعـة وذخـائر [ص ١١٢] سوار المخذول فهو للخزائن الشريفة ، فرضوا بذلك .

وبرز المرسوم الكريم لـلأمير خـاير بـاك الأشرفي أحـد المقـدمين بـالقـاهرة للصعود إلى القلعة والإقامة بها ، وتسليم ما بها من اللبوس والغلال وغيرها . وجهّز معه السنجق السلطاني ، ودقت البشائر بـالقلعـة ، ودخلت في الحوزة الشريفـة . ووجد بالقلعة من الغلال واللبوس وبعض القماش الذي نهب لمن تقدم من العساكر المصرية مع المَقَر الأتابكي أزبك الظاهري ، فأنعم بالغلال على الأمير خاير بـاك ، ومـا كان من السلاح فسلم لـلأمير جـانم الـزردكاش . ووجـد بهـا أيضـاً مكحلتين فجزهمـا المَقَرُّ الأشرف إلى قلعـة زمنطـوا(٢٣٧) ، وهـذا شيء لا ينهض بـه أحـد لأن طريق خرمان إلى زمنطوا في غاية الوعر والصعوبة ، وكل هـذا لسعـادتـه وحسن طـويتـه ونيّتـه ، فـالله يجـازيـه عن المسلمين خيراً . وأقـام أيـده الله بقلعـة خرمان / إلى يوم الأحد تاسع شهر ذي الحجة ورحل منهـا ونزل بخـان السلطـان [ص ١١٣] وهي ذات مروج وميـاه ، ورحـل منهـا يـوم الاثنين فنزل بمكان يسمى(٢٣٨) ، ثم رحل منها ونزل برأس العين ، وإذا هي مكان ذات مروج وأزهـار وأنهـار ، ولقـد شاهدت رأس العين هذا وهو في غاية الأعجوبـة ، يتـدفق المـاء من أسفل كالزلال وبجوانبهـا أشجـار . وفي الوادي بـالقرب من العين الكبير عيـون صغـار ، ويجتمـع الكل ويصير نهراً كبيراً وهو أصل قزلجـا أرمـق(٢٣٩) الـواصـل إلى أدنـة . وأقـام بهـا الثلاثاء والأربعـاء ورحل بكرة نهـار الخميس ثـالث عشره ونزل على قلعـة زمنطوا وأقام بها ليلة .

---

(٢٣٧) زمنطوا : التعليقة ٨١ .

(٢٣٨) فراغ في الأصل .

(٢٣٩) قزلجا ارمق : يتألف نهر جيحان الـذي يصب في خليج اسكنـدرونـة من عـدة أنهـار منهـا نهر =

[حصار قلعة زمنطوا]

وفي صبيحة نهار الجمعة انتقل إلى مكان بالقرب من سور القلعة بجانب الزاوية المشهورة والتربة ، وكان المَقَرُّ الأشرف المشار إليه يذكر لم يزل ويسأل عن آلة أخشاب برسم الستائر للحصار ، ويقال له : إن الآلة مفقودة بزمنطوا / وليس بقربها شيء . فلما وصل إلى القلعة شاهد غوطة بالقرب منها ، [ص ١١٤] فسأل عنها فقيل إن هذا من وقف المشايخ ولا يتعرض له أحد ، فتوكل على الله وطلب النجارين والنشارين وقطع منها أشجاراً كثيرة ، وكل ذلك وهو واقف على قدمه يباشر الأمور بنفسه ، ومماليكه ومحبيه ومن يلوذ به ، والأمراء والنواب يترددون إلى خدمته ، وبات بها تلك الليلة والصناع يسهرون في العمل . فانظر إلى هذه الهمة العالية والغيرة على أهل الإسلام . لأن الأذى الذي حصل من سوار للرعية والبلاد لم يحصل من تمرلنك ، وهو أن تمرلنك كانت إقامته مدة يسيرة ، وهذا تطاول أذاه وتمادى إلى خمس سنين .

وأما عموم الغلاء في المملكة الشامية فما رأينا ولا سمعنا في التواريخ ، وكان المسلمون في شدة عظيمة لسببه من عدم الأمن والغلاء والتشتيت عن أوطانهم .

وفي يوم الجمعة رابع عشره وصل قاصد من عند / السلطان أبو يزيد بن [ص ١١٥] عثمان ومعه هدية ، ويذكر في مكاتبته أنه حصل له سرور بقدوم العساكر المنصورة ، وأنه يسأل في تجهيز ما يتجدد من الأخبار أولاً بأول . ومهما دعت الضرورة إليه من الغلال والمآكل يجهز ذلك .

= آق صو الذي ينبع من شمال قضاء بهسني ، ويمر بالقرب من مرعش حيث يلتقي بنهر يجري في طرفها ، وربما كان أحد النهرين هو النهر الذي شاهده المؤلف . مع العلم أن النهر الذي يمر بأدنة هو نهر سيحان .

وفي يوم السبت خامس عشره ، بدأ في عمل الستائر ، وعين الأمير خاير باك بالوقوف على المكحلة مع الزردكاش ، والرمي متصل بين أهل القلعة والمحاصرين من غير أن يلزم أحد بالحصار لأن قصد المَقَر الأشرف أعز الله أنصاره كان سكب مكاحل كبار ويشرع في الحصار .

فلما كان ليلة الاثنين سابع عشره ، نزل من القلعة واحدٌ من مماليك سوار المخذول هارباً منه وهو ينادي الله ينصر السلطان ، فوصل إلى الجماعة المحاصرين فأخذوه وأحضروه للمَقَر الأشرف نظام الملك الشريف أعز الله أنصاره . فلما مثل بين يديه أخبره عن حال أهل القلعة وعن ماهم فيه من القلق وقلة الزاد والماء وعدة من بها / . وأخبر أن سوار المخذول بالقلعة ومعه من خواصه ستون نفراً . [ص ١١٦]
وأما النساء والأطفال فإنهم ينوفوا عن ثلاث مئة نفس ، فكرر عليه أمر سوار ، فالتزم الأيمان الشرعية أنه بالقلعة وإن لم يكن كذلك فيكون دمه حلالاً . فلما تحقق المَقَر الأشرف ذلك حصل له من الفرح والسرور مالا مزيد عليه . وركب في الحال وقبض على الأمير أردوانه شقيق سوار ، وعلى خشقدم النائب ، كان أولاً بدرندة ثم انتقل إلى خرمان ، وكان بها حين سلمت ودخلت للحوزة الشريفة وعلى جماعة من أتباعها ، ونهبت خيولهم وقماشهم ، وفي الحال احتاط بقلعة زمنطوا من أسفلها وزاد الحرس ولم يدع مكاناً إلا وأقام من يحفظه ، وبات تلك الليلة هو بنفسه بالقرب من سور القلعة خوفاً من أن سوار يتسحب منها ليلاً ، وأصبح يوم الاثنين في عمل .

وفرق أمراء التركمان في الأماكن التي كانت خالية ، ورتب كل أمير في مكان ، ورسم لهم أن يكونوا في غاية اليقظة / [240] / كنت ما سمعت إذ ذاك [ص ١١٧
فاسمع الآن حيث تحققت أني نصحتك وحصل كلام كثير بينه وبين الأمير تمراز . و ١١٨]

---

(٢٤٠) الصفحة ١١٧ ناقصة من أصل مصورة المخطوطة .

وآخر الحال تقرر الأمر على أنه ينزل إلى المخيم الكريم بشرط أن يأخذ رهايناً عنده . ثم صعدت إليه ثانياً بأنه يحلف بدخوله للطاعة الشريفة ، وأنه يكون عدواً لعدو مولانا السلطان وصديقاً لصديقه ، ويحضر متى طلب للخدمة الشريفة والمهمات الشريفة وإلى غير ذلك من الشروط اللازمة فحلف على الشرط المذكور وقال : شرطي أن الرهائن تكون الأمير خاير باك والأمير إينال الأشقر وكافل المملكة الحلبية وأخيه أردوانه ، يقيموا بالقلعة إلى أن يعود من المخيم الكريم لابساً خلعة الاستمرار ببلاده .

فلما عرضت ذلك على المسامع الكريمة النظامية توقف ولم يرض وبقي الحال بين نعم ولا إلى ظهر يوم الأربعاء ، فجدد القتال والحصار ، وشدد الأمر ، والمكاحل ترمي من الجانبين والحرس متصل / ليلاً ونهاراً خوفاً من أن يتسحب [ص ١١٩] من القلعة ويغير صورته .

وفي يوم الخميس العشرين من شهر ذي الحجة توجّه الهجان إلى الأبواب الشريفة بخبر حصول سوار في القلعة وحصاره .

[مفاوضات استسلام شاه سوار]

ولما كان ليلة الاثنين الثالث والعشرين من شهر ذي الحجة ، جهّز سوار بطلب الأمان وطلب الأمير تمراز الأشرفي بأنه يصعد إلى القلعة ، وأن الأمير دَوَادار نصره الله ينصب خيمته بالقرب من القلعة حسبما تقدم ، فتوقف في ذلك المشار إليه ، فجهز خلفي كافل المملكة الشامية وقال : بلغني أن الأمير دَوَادار نصره الله توقف فيما سأله سوار على لسان الأمير تمراز ، والرأي عندي أنه يسمع ذلك الكلام ولا يعرض عنه .

وكان قصد المَقر الأشرف أمير دَوَادار أخذ قلعة زمنطوا وقبض سوار عنوة لا عن طلب أمان وصلح ، فإن مرؤته لا تطاوعه أن يعطي أماناً ثم يقبض عليه .

[ص ١٢٠] فبقي متحيراً ولا زالوا به إلى أن رضي بما سأله الأمير تمراز / وهو أثقل عليه من الجبال الرواسي ، والله لقد شاهدت ذلك في وجهه مراراً ، ورأيته يكره ذلك كراهة تحريم ، ولكن الضرورات تبيح المحظورات ، فحين رضي بما سألوه تعين قبضه امتثالاً للمراسيم الشريفة لأنها كانت وردت بذلك .

ولما كان نهار الثلاثاء ، حضر قاصد سوار يطلب نجاز ما وعد به الأمير نصره الله من نصب خيمته بالمكان المذكور ، فجهَّز جماعة الفراشين ونصبوا خيمته في المكان المذكور ، وصعد إلى القلعة وفي صحبته من الأمراء المقدمين الأمير برسباي قرا ، ومن الأمراء العشراوات جماعة وكاتبه .

ولما وصل إلى الخيمة نزل بها وتبعه جماعة من الخاصكية فردَّهم . وكان من جملة ما شرط سوار على أن لا يكون مع الأمير الدَوَادار أعز الله أنصاره سوى عشرة أو عشرين نفراً . فلما رأى كثرة المتوجهين صحبة الركاب العالي جهَّز من [ص ١٢١] القلعة نائبه جراق يقول : إنَّ الإتفاق تم على عشرة / أو عشرين نفراً ، وسأل الصدقات الكريمة في صرف غير العدد المذكور ، فرسم المشار إليه للحاضرين بأنهم ينزلوا لوطاقهم ، فنزل ناس وبقي آخرون ، وتكرر سؤال سوار في ذلك ، فأخذ المَقَر الأشرف بيده قوساً ورمى بعض الناس به ، وتفرق بعضهم يمنة ويسرة . فجاء قاصد ثان وثالث بأن المقيمين عنده كثير ، فتغير خاطره الكريم لذلك وطلب جواده وركب مغضباً ، ولحقه الأمير تمراز وترامى عليه إلى أن ردَّه ، فكان غيظه نصره الله موافقاً لسعده ، لأن سوار تحقق أنه لا يصيبه منه شيء ، لأن لو كان له غرض تام لصبر إلى أن يصل مقصوده .

فلما رجع بدخول الأمير تمراز وجلس في خيمته ، نزل سوار ومعه مقدار ثلاثين نفراً من أعيان جماعته قد لبسوا دروعهم ، فرسم لي أن ألاقيه بظاهر الخيمة فلاقيته . فلما وصل إلى المَقَر المشار إليه ، دخل تحت ذيله وقبَّل قدمه

المبـارك / ثـلاث مرات ومرتين فطيَّب خـاطره . وبش في وجهـه وكلمـه بكـلام [ص ١٢٢]
أسكن روعـه ، ثم طلب إفطـاراً أعـده لـذلـك المجلس فـأُحْضِرَ وأكل معـه ، وبقي يحادثـه ، ثم ذكر لـه أشيـاء صـدرت منـه على سبيل العتـاب ، ثم طلب المشروب فأسقاه ، ثم رسم بإحضار الخلعة المعدّ له فألبس .

ورسم بمركوب خاص بسرج ذهب وقماش فـأحضر فـأركبـه وقـال : الواجب أنك تنزل وتسلم على كافل المملكـة الشـاميـة ، فركب هو أيضـاً ، ودقت البشـائر وكان وقتاً عظيماً ، ونزل وهو في خـدمتـه إلى أن وصل إلى خيمتـه وسلَّم عليـه . ثم توجه لوطاق نائب الشام ومعه الأمير تمراز وكاتبه وجماعة من الأمراء العشراوات ، إلى أن وصلنـا لخيمـة كافل المملكـة الشـاميـة ونزلنـا ، فقـام الكافل ولاقى سـوار ، وأجلسه عن شمالـه والأمير تمراز عن يمينـه ، ثم التفت إليَّ وقـال : إن الأمير دوادار هو باش العساكر / وأنا تابعه مدة سنة وشهرين . وفي هذا اليوم واجب عليـه أن [ص ١٢٣]
يتبعني فيما أشير به ، وقد ورد لي مرسوم شريف بذلك .

ثم قال لسوار : ما أنا في عينك بشر ، تحالفتم وحـدكم وأكلتم وشربتم وحـدكم ، يا سبحان الله كذا يكون .

ثم قـال لـه الأمير تمراز خـلِّ هـذا الكـلام وهـات مـا عنـدك من الطعـام والشراب .

فقال : بسم الله . ثم نادى بأعلى صوته وهو يضحك : هاتو الزنجير .

فظننت أنه يمزح . ثم قلعوا عنه خلعته ، وقبضوا عليه وعلى جماعتـه الـذين نزلوا معه بعد أن قتل منهم أربعة أنفار امتنعوا عن القبض .

ولما رسم بالقبض قـام الأمير تمراز من مكانـه وأراد المنع من الوصول إليـه فمنع هو من الوصول وربما ناله من بعض المماليك بما حصل به البهـدلـة ، ولم يُلْتَفَتْ إلى كلامه .

[تولية شاه بداق الإمارة الدلغادرية]

وفي ثاني يوم قبض عليه وهو يوم الأربعاء ، صعد السنجق السلطاني ونصب على قلعة زمنطوا . وفيه توجَّه الأمير قانباي صلق(٢٤١) مبشراً / لمولانا السلطان [ص ١٢٤] خلَّدَ الله ملكه ، ودقت البشائر وأُلْبِسَ الأمير شاه بداق بن سليمان بن دلغادر أخو سوار إمرة الدلغادرية على جاري عادة من تقدمه من أسلافه ، وتسلَّمَ القلعة ، وأنزل حريم سوار من القلعة وجواره وماله من القماش ، ولم يمكِّن أحداً من التعرض لشيء من ذلك ، وسفرها الأمير تمراز مع جماعته إلى بلاد الروم ، وكان ذلك خطأً عظيماً .

وفي يوم الخميس رحل العساكر المنصورة من قلعة زمنطوا ونزلوا بجانب قزلجا أرمق وأقام بها الخميس والجمعة .

وفي يوم السبت توجهت إلى الأمير بداق وحلفته الأيمان الشرعية على العادة .

[الرحيل إلى درندة]

وفي يوم الأحد سلخ سنة ست ، رحل ونزل على مكان يسمى صاروز(٢٤٢) بالقرب من جبل أوذكلي ، ثم رحل منها ونزل على عين أرتلو أبكار . ثم رحلنا منها وأصبحنا على قلعة خرمان ومرينا عليها من غير نزول إلى الظهر نزل المَقَر

---

(٢٤١) صلق : والصواب صولاق ، وهو جندي البريد السريع .

(٢٤٢) صاروز : لم نعثر على مكان اسمه صاروز . إلا أن الاسم القديم لنهر سيحان قبل الإسلام كان « سارس » فلا يبعد أن يكون ثمة مدينة قديمة على اسم النهر .

الأشرف بجانب النهر الواصل إلى جهان[٢٤٣] وركب / منه وقت العصر [ص١٢٥]
جريدة[٢٤٤] ، ومعه بعض أمراء وبعض مماليك لكشف قلعة درندة والنظر في أحوالها ، وركبت معه ونزل بعد العشاء على عين بجانب مزرعة خالية من السكان ورحل منها في الثلث الأخير .

ووصلنا إلى مدينة درندة قبل الظهر ، فرأيناها قلعة شاهقة وليس لها صور إلا في بعض أماكن قليلة جداً ، ولها باب وبرج فقط ، لكنها في غاية المنعة ، ويجري بأسفل منها نهر عظيم في غاية البرودة والحلاوة .

ودرندة بلدة صغيرة ، ولها بساتين وكروم ، وهي كثيرة الفواكه والخيرات ، وهي في واد ونحوها جبال من كل الجهات ، وأقمنا بها إلى قريب العصر ، ورحلنا منها ووصلنا إلى أبلستين في الثلث الأول من ليلة الخميس رابع شهر الله المحرم ، ورأينا الوطاق رحلوا فأقمنا إلى الصباح ثم رحلنا منها ونزلنا على النهر الأزرق ، ثم منه نزلنا برأس جبل تكلي بلي .

[رحلة العودة إلى حلب]

ثم نزلنا يوم الأحد على مدينة كينول[٢٤٥] ثم منها / على عين ماء بالقرب من [ص١٢٦]
بلدة خالية من السكان . ثم سلكنا جبالاً وأودية إلى أن نزلنا على عين دلوك بالقرب من عينتاب ، ثم نزلنا عينتاب بكرة النهار .

ورحلنا منها بعد العصر ونزلنا بقرية نصقرغين ، فبلغ المَقَر الأشرف أن المَقَر الكريم قانصوه اليحياوي كافل المملكة الحلبية تخلف بأبلستين ، وما قصده

(٢٤٣) جهان : صحيحها جيحان وهو النهر المشهور في ولاية أضنة الذي مر ذكره .
(٢٤٤) جريدة : المقصود أنه سافر بسرعة .
(٢٤٥) كينول : الصواب كينوك وقد تقدم شرحها .

الإجتماع بالعساكر بحلب لأمر خاف منه وتخيله . وكان قبل ذلك جهَّز كتاباً يحثه في سرعة الحضور ، فزاد خياله فرأى المصلحة في إطابة خاطره وإزالة خياله وجهزني إليه ، وحملني مشافهة أبديها له وأخوفه من عواقب الأمور ، وأن المصلحة في سرعة حضوره وإلى غير ذلك ، فكان ذلك من لطف الله فتوجهت إليه من زغزغين ووصلت إليه بأبلستين . فلما بلغه حضوري جهز إليَّ جماعة المهمندارية ولاقوني . فلما قربت من أبلستين ركب وبقية العسكر الحلبي ولاقوني وتوجهت
[ص١٢٧] معه إلى مخيمه ، وتكلمت معه فيما فيه صلاح حاله ، وصرحت بأنه لا بد / من حضوره واجتماعه بالعساكر المنصورة ، ولا زلت به أكرر معه الكلام إلى أن رضي بالتوجه معي إلى حلب . وبات جميع العسكر تلك الليلة في أسَرِّ حال فإنهم كانوا قطعوا إياسهم منه ، وربما كان قصد منهم جماعة للتسحب واللحوق بالعساكر المنصورة ، وكان ذلك بهدلة عظيمة لعسكر الإسلام بعد هذا الفتح المبين . فالله ستر الإسلام برجوعه عما قصده من خوفه ولله الحمد .

ونصب تلك الليلة صيواناً وأنزلني أحسن منزل ، وبعث الأسمطة وجهز لي بغلة بيضاء كان يحبها في الغاية . ثم رحل من أبلستين وأنا في خدمته إلى أن وصلنا إلى كينول ، ففارقته بعد أن ألبسني كاملية مفرية سموراً طرشا .

ووصلت إلى حلب نهار الجمعة خامس عشرين شهر الله المحرم سنة سبع وسبعين وثمان مئة .

ودخل كافل المملكة الحلبية نهار الاثنين ثامن عشرينه ، فلاقاه المَقر الأشرف
[ص١٢٨] أمير دَوَادار أعز الله أنصاره بشاش وقماش / ونزل بالميدان الأخضر وكان نائب الشام نازلاً به .

[المراسيم السلطانية بالتعيينات الجديدة]

وكان حضر مقدم الهجانة من الأبواب الشريفة ، ومعه مراسيم شريفة بتولية الأمير دولات باي الخازندار [نيابة] ملطية ، والأمير جانم الخازندار المشهور بخازندار نائب جدة في نيابة عينتاب ، والأمير يلبغا في نيابة إياس ، والأمير إينال الحكيم في أمرة الكبرى بطرابلس ، والأمير دولات باي النجمي في أمرة الكبرى بحلب ، فقرئ المرسوم الشريف وأخلع على الجميع .

ثم توجّه المَقَرُّ الأشرف باش العساكر المنصورة والجميع في خدمته ، وركب نائب الشام ونائب حلب ، ودخلوا لمدينة حلب ، وأوصلوا كافلها لدار العدل بها ، فكان يوماً مشهوداً .

وفي يوم الأربعاء أمر باش العساكر المنصورة بإجهار النداء بأنهم يحضروا لقبض جوامكهم ، وأذن للمَقَر الكريم برسباي قرا بأن يتوجه مع مضافيه أولاً على عادته ، فرحل يوم الخميس ثاني شهر صفر الخير بمن معه .

[رحلة العودة من حلب]

ثم رحل الأمير خاير باك / يوم الجمعة بعد الصلاة ، ورحل الأمير تمراز يوم [ص ١٢٩]
السبت ، وفي بكرة نهار الاثنين رحل كافل المملكة الشامية في أهبة عظيمة ، وأنزل شاه سوار من القلعة وتسلمه على بابها وتوجه ، وكان يوماً مشهوداً .

وفي بكرة نهار الثلاثاء رحل المَقَرُّ الأشرف أمير دوادار حرسه الله ونصره ، ونزل بالعين المباركة وأقام . ورحل يوم الأربعاء ووصل إلى حماة بكرة نهار



صورة قلعة شيزر

الجمعة ، وأقام بها السبت وخلع على نائبها والأمير كبير بها وعلى الأمير محمود بن سقلسيز نائب شيزر[٢٤٦] وأخيه وعلى نائب طرابلس وأمير كبير بها إينال الحكيم .

ثم رحل بكرة نهار الأحد ونزل بالرستن ثم منها إلى حمص بكرة نهار الاثنين خامس عشر شهر تاريخه ، ثم رحل منها يوم الثلاثاء وضحى بخان منجك[٢٤٧] وبات بمدينة قارا ، ثم صلى الصبح بها ورحل ونزل بالنبك .

[الأمير يَشْبَك في دمشق]

وفيه وصل الأمير خشكلدي الظاهري الخشقدمي أحد المقدمين الألوف كان بالقاهرة . ثم رحل منها وقت العشاء ونزل بالقطيفة / صبيحة نهار الخميس . [ص ١٣٠]
وفيه وصل الأمير شادبك الجلباني أمير كبير الشام والقاضي ناظر الجيش ابن المزلق وأقام بها إلى العصر ورحل منها فلاقاه كافل المملكة الشامية . وكان قد سبق حمله وصحبته أولاده والقاضي قطب الدين الخضيري ، ونزل بمصطبة السلطان[٢٤٨] خارج دمشق المحروسة بالقرب من القابون بعد العشاء وأصبح يوم الجمعة مقيماً بها ، فهرع أهل دمشق للسلام عليه .

---

(٢٤٦) شيزر : قلعة عربية حصينة على جبل الزاوية المشرف على نهر العاصي تقع إلى الشمال الغربي من حماة (انظر موقعها على المصور ٤) .

(٢٤٧) خان منجك : لا أثر لهذا الخان اليوم ، ولعله خان حسيا .

(٢٤٨) مصطبة السلطان : كان لدمشق في العصر المملوكي طريقان عظيمان ، أحدهما طريق مصر وهو أعظمها ، فإذا قدم السلطان أو النائب إلى دمشق صحبتها المواكب الرسمية حتى قبة يلبغا في قرية القدم ـ وقد امحى أثرها ـ جنوب دمشق .
والطريق الآخر طريق حلب ، وكان في سهل القابون إلى الشمال من دمشق صفّة سماها أهل دمشق مصطبة السلطان ، بقي أثرها إلى ما قبل نصف قرن ثم هدمت وسويت ، وكان السلطان أو النائب إذا كان قادماً إلى دمشق أو ذاهباً منها إلى جهة حلب تصحبه المواكب الرسمية إلى هذه المصطبة .

وفي نهار السبت ثامن عشر شهر تاريخه ، ألبس كافل المملكة الشامية مماليكه وبالغ في ذلك إلى أن ظن أنّ طلْبه لا يشبهه شيء ، وكان نصره الله عبّى تلك الليلة طلْباً ما شوهد مثله من مثله وترتيباً عجيباً ، فلما مر طلْب كافل المملكة الشامية ، مشى طلب المشار إليه ، فلما شاهد كافل المملكة الشامية ذلك ظهر أثر الخجل في وجهه ، ودخل دمشق وكافل المملكة الشامية عن يمينه والأمير إينال

[ص ١٣١] الأشقر عن يساره ، وبقية الأمراء والقضاة يمنة ويسرة ، وتغالى الناس / في كري أماكن الفرجة ، وبنوا مصاطب وأمكنة صرف عليها جملة ، كل ذلك رغبة لرؤية سوار في تلك الحالة . فلما وصل الموكب لتجاه القلعة ، حضر نائب القلعة ومن معه من نقيب القلعة والبحرية ، فتسلموا سوار وإخوته الأربعة ، وأولاد قرا وخليل بن بوزجا وثلاثة عشر نفراً من أعيان جماعة سوار .

ثم رجع المَقَر الأشرف باش العساكر المنصورة إلى مخيمه الكريم بالميدان الأخضر(٢٤٩) ، ونزل بالقصر ومدّ له كافل المملكة الشامية سماطاً عظيماً ، وأقام بدمشق إلى نهار الاثنين ، عمل كافل المملكة الشامية ضيافة عظيمة ، وعزم على جميع المقدمين وهم : المَقَر الأشرف أمير دَوَادار ، والأمير إينال الأشقر رأس نوبة النوَب ، والأمير تمراز الأشرفي ، والأمير برسباي قرا ، والأمير جانم الزردكاش ، وبعض أمراء من العشراوات ، وكان مجلساً حافلاً ، وخلع على المَقَر الأشرف أمير

[ص ١٣٢] دَوَادار أعز الله أنصاره كاملية تمساح بفرو سمور / وطراز زنته ألف مثقال ، وعلى بقية المقدمين بكوامل طرش سمور ، وعلى الأمير جانم الزردكاش بكاملية ، ولي كاملية ، وجهز لكل من المذكورين تقدمة تليق به ، وقام في إكرام العسكر المنصور أتم قيام . ويكفيك من وصفه أنه لم يسبقه أحد بمثله .

وفيه وصل الأمير جانم الدوادار بخدمة المَقَر الأشرف باش العساكر المنصورة

(٢٤٩) الميدان الأخضر : يقع إلى الغرب من متحف دمشق الحالي بين نهري بردى وبانياس ويقام فيه معرض دمشق الدولي .

والقاضي شرف الدين بن غريب استادار الديوان الشريف ومهما[٢٥٠] بطيخ صيفي وسكر وحلاوة وعشرة أجمال من ماء النيل ، ففرق جميع ذلك على العساكر المنصورة ، وعلى كافل المملكة الشامية وأمرائها ومباشريها حتى لم يدع لنفسه من ذلك البطيخة الواحدة مع كره ذلك ، فانظر إلى هذا الكرم النفس الذي أعطاه الله تعالى .

[العودة إلى القاهرة]

فرحل يوم الثلاثاء الأمير برسباي قرا ، ثم رحل الأمير خاير باك يوم الأربعاء ، والأمير تمراز يوم الخميس ، والأمير إينال الأشقر بكرة نهار الجمعة ، والمَقَر الأشرف باش العساكر المنصورة رحل يوم الجمعة / ، واستمر يرحل وينزل [ص ١٣٣] من منزلة لأخرى إلى أن وصل إلى الصالحية نهار الأربعاء ثاني عشر شهر ربيع الأول سنة سبع وسبعين وثمان مئة .

وفيها وصل الأمير قانباي صلق ومعه فرس بقماش وذهب من المقام الشريف خلَّد الله ملكه ، ورحل منها ونزل بالخطارة[٢٥١] ، ودخل المَقَرُّ الأشرف الوطاق وهو راكب الفرس بالقماش الذهب ، ثم رحل منها ونزل بمدينة بِلْبيس . وفيها وصل لملاقاة المَقَر الأشرف باش العساكر المنصورة أركان الدولة كالقاضي كاتم الأسرار والدوادار الثاني والقاضي ناظر الجيوش المنصورة ، ولم يتخلف أحد سوى المقدمين الألوف ، ثم رحل منها ونزل بخانقاه سرياقوس ، وبها وصل القضاة الأربع وغيرهم من الأعيان . ثم رحل منها صبيحة نهار الأحد سابع عشر شهر تاريخه ونزل بالريدانية ، وتلقاه المقدمين إلى المطرية ، وأقام بها / إلى صبيحة [ص ١٣٤] الاثنين ثامن عشره ، دخل المَقَر الأشرف باش العساكر المنصورة ونظام الملك

---

(٢٥٠) ومهما : كذا في الأصل والصحيح ومعها .

(٢٥١) الخطارة : التعليقة رقم (٩٥) .

الشريف والعسكر في خدمته من باب النصر . كما توجّه منه مسروراً بما منحه الله من النصر العظيم والظفر بالعدو .

[الدخول إلى القاهرة والاحتفال بالنصر]

فأول الأطلاب كان طُلْب الأمير برسباي قرا أحد المقدمين الألوف ، ويتلوه طلب الأمير تمراز الشمسي العزيزي الأشرفي ، ثم يتلوه طلب الأمير إينال الأشقر رأس النوبة النوب ، ثم طلب المَقر الأشرف باش العساكر الإسلامية ، ثم المَقر الأشرف وبقية الأمراء والمقدمين المسافرين ، وعلى رأسه الشطفة السلطاني ، وأمامه سوار المخذول وبقية إخوته وأمرائه .

واصطف الرجال والنساء والولدان من مخيمه بالريدانية إلى القلعة ، وتكاثرت الخلائق في الطرقات وازدحمت ، والمدينة زيِّنت ، والألسن بالدعاء قد انطلقت . وعليّ / وعلى المَقر الأشرف باش العساكر المنصورة الخلعة التي خلعها [ص ١٣٥] عليه كافل المملكة الشامية ، والمقدمين كذلك ، ما خلا الأمير تمراز الشمسي فإنه لم يلبس الخلعة ، وكان يوماً مشهوداً . وعلى سوار المخذول قباء مخمل أحمر مزنر مذهب . ومرَّ على داره من مدرسة أُلجاي اليوسفي .

وقد احتفل السلطان بالموكب في القصر الأبلق بقلعة الجبل ، وعمل الموكب صفين من باب البيمارستان العتيق الذي تحت الصوة إلى القصر المذكور فدخل المَقر الأشرف باش العساكر المنصورة إلى القصر وفي خدمته الأمراء ، وقبّلوا الأرض بين يدي المَقر الشريف خلَّد الله ملكه وعزه ونصره ، فرحب بهم وأكرمهم ودعى لهم وشاوروه على سوار ، فلم يأذن له بالدخول . ثم خلعوا الخلع التي عليهم ليلبسوا خلع السلطان .

[ص ١٣٦] ثم انتقل مولانا السلطان خلَّد الله ملكه / إلى الإيوان الناصري الذي كان أشرف على الدثور والخراب ، بل صار معداً لرمي التراب . جدده وزهره مولانا

السلطان خلَّد الله ملكه ، فصار في غاية ما يكون من الحسن والنضارة ، فجلس على رأس السلالم من الإيوان المذكور ، وقد نصبت على رأسه سحابة من الذهب الإبريز ، في غاية الابتهاج والتعزيز ، وفرش تحت السلالم زوج بسط ، ووقف الأتابكي أزبك من الجانب الأيمن ، ثم بقية الأمراء على العادة ، ثم حضر الأمراء المسافرين ، فقبلوا الأرض وعليهم الخلع السلطانية .

[سوار بين يدي السلطان]

ولما تكامل هذا الأمر حضر شاه سوار المخذول ، فلما قرب منه رسم أن يتوجهوا به إلى الحوش السلطاني ، فجلس مولانا السلطان خلَّد الله ملكه على الدكة تحت المقعد السلطاني ، ووقف الأمراء أيضاً في مراتبهم ، فحضَّروا المسافرون ولم يقبلوا / الأرض وأحضر سوار المخذول وإخوته وجماعته وبقية [ص ١٣٧] المسوكين وكذا أخويه المسجونين بالبرج .

فلما قبَّلَ سوار الأرض قال له السلطان خلَّد الله ملكه : أهلاً ومرحباً . وكلمه كلمات ، ثم أخروه ، ونزل المَقر الأشرف باش العساكر المنصورة والأمراء في خدمته ما خلا الأمير تمراز الشمسي أحد المقدمين فإنه لم يركب في خدمته لِما تقدم .

[إعدام سوار وجماعته]

فلما نزل الأمراء من القلعة رسم مولانا السلطان خلَّد الله ملكه ، أن يشنكل سوار وإخوته الثلاثة بباب زويلة ، والثلاثة بباب النصر ، ويوسطوا جماعته هناك ، فرُكِّبوا جمالاً فسُمِّروا جميعاً ما خلا سوار ، فإنه أُرْكِبَ هجيناً وفي رقبته في أعلى الجنزير حديدة طويلة وفيها جرس ، فلما وصلوا إلى باب / زويلة ، [ص ١٣٨] فبطح سوار أولاً وشنكل ، ثم كاور يحيى ، ثم أردوانه ، ثم خداداد ، ووقعت

الشفاعة في الثلاثة من إخوته وهم : عيسى ويونس وسالم ، الذي كان رسم بشنقهم في باب النصر ، فأنزلوا من الجمال ، فوسطوا الباقي وهم : اثني عشر نفراً ، واستمر سوار المخذول وإخوته المشنكلين معه معلقين والخلائق يزدحمون للتفرج عليهم ، وهم يستغيثون فلا يغاثون ما خلا شاه سوار فإنه ساكت ساكن ومات سوار في آخر يومه .

فلما كان يوم الثلاثاء تاسع عشره ، صعد المَقَر الأشرف الأمير دَوَادار إلى القلعة ، واجتمع بمولانا السلطان ، ثم نزل وجاز من باب زويلة ، ليعود المقر الأشرف السيفي ثم المحمدي أمير حاجب الحجاب لضعف كان عرض له بعد أن
[ص ١٣٩] تكلم مع مولانا السلطان في إطلاق أردوانه الأحدب / أخو سوار ، فلما وصل إلى باب زويلة وجد سواراً ميتاً .

ثم إن أردوانه شكا له وتضرع فرسم للوالي بإطلاقه ، فأطلق في الحال ، وتوجهوا به إلى بيت صاحب الشرطة فسقاه وأطعمه ، وطلب له المزينين ليصلحوا حاله بالعلاج فمات في ليلته .

وفي يوم الأربعاء أنزلوهم وغسلوهم وكفنوهم وصلي عليهم ودفنوهم بمقابر المسلمين . وأراح الله البلاد والعباد منهم بفضله ومنه .

والحمد لله وحده ، والصلاة والسلام على من لا نبي بعده ، محمد وآله وصحبه ، وسلم تسليماً كثيراً وحسبنا الله تعالى فنعم الوكيل .

[استنسختُ هذه الرحلة السياسية بطريق الفتوغرافية لنفسي من الكتاب (نمرة ٢٦٨) المحفوظ بالمكتبة السلطانية بسراي طوب قبو بالقسطنطينية في يوم ٢٥ رمضان سنة ١٣٢٧ و ٩ أكتوبر سنة ١٩٠٩ .

أحمد زكي

سكرتير ثاني مجلس النظار المصري]

نصوص وإضافات على الرحلة

٢

طمع الدول المجاورة بالمماليك ونهاية يَشْبَك الدوادار

- تحرش حسن الطويل بالمماليك .
- إرسال تجريدة لحربه وانسحابه من الحدود .
- تعيين يَشْبَك الدوادار لتأديب أمير عرب آل الفضل .
- طمعه في الاستيلاء على بلاد حسن الطويل .
- نهايته وهزيمة جيشه .

طمع الدول المجاورة بالمماليك ونهاية يَشْبَك الدوادار

تحرش حسن الطويل بالمماليك[٢٥٢]

في رمضان سنة ٨٧٦ هـ[٢٥٣] قدم إلى القاهرة قاصد من عند حسن الطويل ، وعلى يده هدية للسلطان قايتباي ومكاتبة فيها أشياء سرية ، فلم ينشرح السلطان لقدوم هذا القاصد ولم يُعلم مافي المكاتبة .

وفي جمادى الأولى سنة ٨٧٧ هـ ، جاءت الأخبار من عند نائب حلب بأن حسن بك الطويل ملك العراقين ، قد جمع من العساكر مالا يحصى ، وهو زاحف على بلاد السلطان ، وقد بعث ولده محمداً مع عسكر ثقيل وصل إلى الرُّها . فكثر التقوُّل بين الناس بسبب ذلك إذ لم يكن قد مضى أكثر من أشهر معدودة على عودة العسكر وانتهاء فتنة سوار حتى ظهرت فتنة حسن الطويل . فقلق السلطان والعسكر لهذا الخبر .

تعيين تجريدة لرد حسن الطويل

وفي جمادى الآخرة عين السلطان تجريدة إلى حسن الطويل ، وعين بها من الأمراء المقدمين ثلاثة وهم جاني بك قلقسيز أمير سلاح ، وسودون الأفرم ، وقراجا

(٢٥٢) جمعت معلومات هذا الملحق والذي يليه من كتاب بدائع الزهور في وقائع الدهور لابن إياس .

(٢٥٣) بمقارنة هذا التاريخ مع مغادرة القاضي ابن أجا تبريز في ٢٠ ربيع الآخر سنة ٨٧٦ هـ يكون قد مضى أكثر من أربعة أشهر على مقابلة القاضي لحسن الطويل .

الطويل الإينـالي ، وعـدة من الأمراء الطبلخـانـات والعشرات ، ومن الجنـد نحو خمس مئة مملوك ، وأنفق عليهم وأمرهم بالمسير إلى حلب بسرعة من غير تأخير .

رسائل تهديد من حسن الطويل

وفي جمـادى الآخرة أيضـاً ، جـاءت الأخبـار من حلب بـأن عسكر حسن الطويل قد استولى على كختا وكركر ، وبعث مكاتبة مكتوبة بماء الذهب إلى شاه بضـاع صـاحب الأبلستين ، بـأن يسلم إليـه القـلاع التي حـولـه ، ولا يخرج عن طاعته ، وأرسل له في المكاتبة ألفاظاً مزعجـة بمـا معنـاه ﴿ وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم ﴾ ثم هَدَّده في مكاتبته بـأنـه متى خـالفـه يحصل لـه منـه مـاهـو « كيت وكيت » . فـأرسـل شـاه بضـاع المكاتبـة للسلطـان ، فلمـا قرأهـا السلطان وعلم مافيها انزعج لذلك وتأثر .

وفيه أيضـاً أرسل نـائب الشـام مكاتبـة حسن الطويل إلى السلطـان ، وكان أرسلَ يهدده في هذه المكاتبة ويـأمره بـأشيـاء عـديـدة ، وكتب في صـدر المكاتبـة ﴿ يا أيها الذين آمنوا إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم ﴾ فانزعج السلطـان لهذا الخبر .

التجريدة الكبرى لقتال الطويل

ثم عيَّن السلطان الأمير يَشْبَك الدوادار باش العساكر ، وعيَّن تجريدة أعظم من الأولى التي عينها قبل ذلك : فعيَّن بها من الأمراء المقدمين : يَشْبَك الدوادار ، وإينال الأشقر ، وبرسباي قرا ، ومن الأمراء الطبْلخانات والعشرات عدة وافرة ، وكتب من الجند فوق ألفي مملوك . ثم أنفق عليهم وأخـذوا في أسبـاب الخروج إلى السفر ، فخرجت التجريـدة الأولى قبل ذلـك ، وكان بـاش عسكرهـا جـاني بـك قلقسيز أمير سلاح ومن معه من الأمراء .

فلما رحل من الريدانية خرج الأمير يَشْبَك ومن معه من الأمراء ، فرُجَّت لهم القاهرة وكان لهم يوم مشهود .

وفي رجب سنة ٨٧٧ هـ رحل الأمير يَشْبَك هو وعسكره من الريدانية ، وكان مصروف السلطان على هذه التجريدة فيما أنفقه مبلغ أربعمائة وعشرين ألف دينار خارجاً عن أشياء كثيرة بعثها للأمراء . فلما وصل يشبك إلى الخانقاه(٢٥٤) نزل إليه السلطان وودّعه هناك ، واجتمع إليه في خلوة ، وعرض عليه مكاتبة حسن الطويل التي بعثها إلى نائب الشام .

وفيه حضر قاصد نائب حلب ، وأخبر أن نائب حلب قبض على عثمان بن أُغلبك وشخص آخر كان استاداراً على تقدمة حسن الطويل التي كانت بحلب ، وقبض على جماعة آخرين نحو أربعين نفراً نُسِبَ إليهم المواطأة مع حسن الطويل ، وكانوا يكاتبونه بأخبار المملكة ، فأمر نائب حلب بشنقهم .

وفي شهر رمضان جاءت الأخبار من حلب بأن الأمير يَشْبَك الدوادار دخل إلى حلب وكان له يوم مشهود ، فلما استقر بحلب قدم عليه قاصد من عند حسن الطويل وعلى يده مكاتبة يطلب فيها فك أسر جماعته الذين أسروا وسجنوا بحلب مقابل إطلاق سراح ما عنده من الأسرى ، وكان عنده دولت باي النجمي الذي كان نائب ملطية وجماعة آخرون ، فلم يلتفت إليه يَشْبَك ولا أجابه عن ذلك بشيء .

تعيين جاني بك قلقسيز نائباً للشام

وفيه أرسل السلطان خلعتين : إحداهما إلى جاني بك قلقسيز أمير سلاح بأن

(٢٥٤) يقصد بها الخانقاه السرياقوسية ـ راجع التعليقة رقم ٧٤ .

يستقر في نيابة الشام[255] عوضاً عن برقوق[256] بحكم وفاته ، وكان المشار إليه بالتجريدة ، فاتجه إلى الشام واستقر بها ، وأما الخلعة الثانية فبعث بها إلى إينال الأشقر بأن يستقر في آمرية السلاح عوضاً عن المذكور .

وفي ذي القعدة جاءت الأخبار من حلب بأن الأمير يَشْبَك بعث جماعة من العسكر إلى البيرة لقتال عسكر حسن الطويل ، وقد بلغه أن حالهم تلاشى إلى الفرار ، وأن حسن الطويل أرسل يكاتب الإفرنج على قتال المسلمين ليعينوه .

السلطان محمد الفاتح يعرض المساعدة

وفيه جاءت الأخبار بأن ابن عثمان ملك الروم أرسل قاصده إلى الأمير يشبك بأن يكون عوناً للسلطان على قتال حسن الطويل ، فأكرم القاصد وأرسل صحبته القاضي شمس الدين بن أجا قاضي العسكر ، بأن يتوجه إلى ابن عثمان ، وعلى يده هدية حافلة ومكاتبة بأن ينشئ بينه وبين السلطان مودة بسبب أمر حسن الطويل .

---

(٢٥٥) جاني بك قلقسيز : تولى نيابة دمشق أثناء رحلته مع يَشْبَك الدَوَادار لحرب حسن الطويل ودخل دمشق في الخامس عشر من جمادى الآخرة سنة ٨٧٨ هـ وبقي فيها حتى وفاته سنة ٨٨٣ هـ ودفن بتربة أنشأها في باب الصغير (راجع إعلام الورى بمن ولي نائباً من الأتراك بدمشق الشام الكبرى لابن طولون تحقيق محمد أحمد دهمان) .

(٢٥٦) برقوق : هو برقوق الظاهري ، تولى نيابة دمشق ودخلها في السابع والعشرين من ربيع الأول سنة ٨٧٥ هـ ورافق يَشْبَك الدَوَادار في حملته ضد شاه سوار ، وهو الذي غدر به وألقى القبض عليه ، ثم خرج مع يَشْبَك الدَوَادار في حملته ضد حسن الطويل سنة ٨٧٧ هـ وتوفي أثناء ذلك ، ويقول ابن طولون في إعلام الورى : إنه قد دُسَّ عليه السم في عنب أكله فسقطت مخاشمه ومات ، ودفن بالصوة في القاهرة سنة ٨٧٧ هـ .

انتصار الأمير يَشْبَك على عسكر الطويل

وفيه وصل إلى السلطان مكاتبة من عند ابن الصوَّا[٢٥٧] من حلب يخبر فيها بأن الأمير يَشْبَك قد انتصر على عسكر حسن الطويل ورحَّلهم عن البيرة ، وأن ولد حسن الطويل قد جرح جراحات بالغة ، وآخر من أولاده أصيب في عينه ، ووقع بين الفريقين مقتلة شديدة ، وقتل في المعركة شخص من الأمراء العشرات يقال له قرقماس المصارع المعروف بالعلائي أمير آخور رابع ، وكان إنساناً حسناً ديناً خيراً موصوفاً بالشجاعة والفروسية ، علاَّمة في رمي النشاب والصراع ، أصيب بسهم في صدغه فمات لوقته ، ولم يقتل في هذه المعركة أحد سواه .

ثم رحل عسكر حسن الطويل من البيرة وقد خذلهم الله تعالى بعد ما عدوا من الفرات وطرقوا البلاد الحلبية من أطرافها فردهم الله تعالى عن المسلمين . وقد قالت الشعراء في هذه النصرة عدة مقاطع . فمن ذلك قول شمس الدين القادري :

أيا حسن الطويل بعثت جيشاً   كأغنام وهنَّ لنا غنائم
فنار الحرب قد سبكت سواراً   وأنت لسبكها لا شك خاتم

محاولة حسن الطويل التحالف مع الفرنج

وفي شهر ذي الحجة سنة ٨٧٧ هـ قدم قاصد من عند ابن عثمان ملك الروم ، وقد أتى من جهة البحر ، فأكرمه السلطان وأحضر صحبته مكاتبة حسن الطويل إلى ملوك الإفرنج بأن يمشوا على ابن عثمان وسلطان مصر من البحر وهو يمشي عليهم من البر[٢٥٨] وقد ظفر هذا القاصد بقاصد حسن الطويل وهو ذاهب نحو

(٢٥٧) ابن الصوَّا : هو محمد بن حسن بن الصوَّا الحلبي وكيل السلطان بماردين .

(٢٥٨) في كانون الأول سنة ١٤٦٣ م وافق مجلس الشيوخ البندقي على خطة التحالف مع أوزون حسن (حسن الطويل) وأرسل كويريني إلى بلاد فارس لتنفيذ هذا الغرض . وفي ٣ آذار (مارس) =

بلاد الإفرنج فقبض عليه في أثناء الطريق وهو في مركب وأسره ، ثم إن القاصد أقام بمصر أياماً ، وأذن له بالسفر وخُلِعَ عليه .

حجاج حسن الطويل يثيرون الفتنة في الديار المقدسة

وفيه أيضاً حضر مبشر الحاج إلى القاهرة ، وأخبر بأنه لما وصل المحمل العراقي ودخل المدينة الشريفة ، كان أميرهم شخص يقال له رستم ، وصحبته قاض يقال له أحمد بن وجيه ، فضيقوا على قضاة المدينة وأمروهم بأن يخطبوا في المدينة باسم الملك العادل حسن الطويل خادم الحرمين الشريفين .

فلما خرجوا من المدينة وقصدوا التوجه إلى مكة ، كاتَبَ أهل المدينة أمير مكة بما وقع منهم ، فخرج إليهم الشريف محمد بن الشريف بركات ولاقاهم قبل أن يدخلوا إلى مكة وقبض على رستم أمير ركب المحمل العراقي ، وقبض على القاضي الذي صحبته وعلى جماعة من أعيانهم وأودعهم في الحديد ليبعثهم إلى السلطان ثم أطلق بقية من كان في ركبهم من الحجاج ولم يتعرض لهم .

وفي الشهر المحرم سنة ٨٧٨ هـ وصل الحاج وصحبتهم ابن أمير مكة والقاضي برهان الدين بن ظُهيرة الشافعي وولده أبو السعود وأخوه ، وأحضروا صحبتهم رستم أمير الحاج العراقي والقاضي ، اللذين بعث بهما حسن الطويل وصحبتهما كسوة الكعبة المشرفة ، وأمر أهل المدينة والكعبة بأن يخطبوا فيهما باسم العادل حسن الطويل . فسجن السلطان رستم والقاضي في البرج الذي بالقلعة .

وفي ربيع الأول ، أطلق السلطان رستم أمير الحاج العراقي ، وأطلق القاضي الذي في صحبته ، وخلع عليهما وبعثهما إلى بلادهما ترضّياً لخاطر حسن الطويل . وقد أشار بذلك الأمير يَشْبَك الدوادار .

= ١٤٦٤ م وصل أول مبعوث من قبل أوزون حسن يدعى مامناتزب إلى البندقية وأمضى بها ستة أشهر وفي عام ١٤٦٥ م وصل قاسم حسن وبيده رسالة من أوزون حسن .

وفيه جاءت الأخبار بأن ابن عثمان بعث عسكراً لمحاربة حسن الطويل ، فسرَّ السلطان بذلك .

عودة الأمير يَشْبَك إلى القاهرة

وفيه حضر من الجند جماعة كثيرة ممن كان في التجريدة صحبة الأمير يَشْبَك الدوادار ، فلما حضروا اختفوا بالقاهرة ولم يظهروا .

وفيه كان دخول الأمير يَشْبَك إلى القاهرة وقد عاد من التجريدة ، فكان يوم دخوله يوماً مشهوداً ،فخلع عليه السلطان ، ونزل إلى داره في موكب حافل .

وفي الشهر المحرم سنة ٨٧٩ هـ ، قدم قاصد حسن الطويل وعلى يده مكاتبة تتضمن الاعتذار عما كان منه ، وأنَّ ذلك لم يكن باختياره ، فأكرم السلطان ذلك القاصد وأظهر العفو عما جرى منه .

وكان قد أشيع عن حسن الطويل أنه قتل . وأظهر بعض التركمان قميصه وهو ملطخ بالدم . ثم ظهر كذب هذه الإشاعة ، وقد ذكر موته غير ما مرة ثم يظهر أنه كذب .

ابن حسن الطويل يستعدي المماليك على أبيه

في ربيع الآخر سنة ٨٨٠ هـ ، جاءت الأخبار من حلب بأن أُغرولو بن حسن الطويل قد وقع بينه وبين أبيه خلاف ، وبعث يستنجد بنائب حلب على أبيه ، فجهز نائب حلب جماعة من عساكر حلب ، وجعل عليهم باش إينال الحكيم أتابك حلب ، وجانم السيفي ، وجاني بك نائب جدة وكان يومئذٍ نائب البيرة ، ودولات باي المحوجب ، وآخرين من أمراء حلب ، فلما خرجوا إلى عسكر حسن الطويل تقاتلوا معهم ، فانكسر عسكر حلب ، وجرح أُغرولو

جرحاً بليغاً ورجع إلى حلب في خمسة أنفار وفقد إينال الحكيم في المعركة وأسر دولات باي وقتل من عسكر حلب جماعة كثيرة .

فلما بلغ السلطان هذا الخبر تشوش له ، وعيَّن جماعة من الأمراء منهم الأتابكي أزبك ، ويَشْبَك الدوادار ، وتمراز رأس نوبة النوب ، وأزدمر الطويل حاجب الحجاب ، وبرسباي قرا ، وخاير بك من حديد ، ووردَبَش . وعيَّن من الأمراء الطبلْخانات والعشرات عدة وافرة ، وأمرهم بأن يتجهزوا ويكونوا على يقظة حتى يَرد عليهم من أمر حسن الطويل ما يكون ، فاضطربت أحوال العسكر .

فبينما هم على ذلك ، ورد كتاب من ابن الصوَّا يخبر فيه بأن عسكر حسن الطويل عاد إلى بلاده ولم يحصل منه ضرر ، فانشرح السلطان لهذا الخبر وبطلت التجريدة التي تعينت إلى حسن الطويل .

وفي جمادى الأولى سنة ٨٨٠ هـ ، وصل القاضي شمس الدين بن أجا قاضي العسكر ، وكان قد توجَّه قاصداً إلى حسن الطويل ، فأخبر بأن الطاعون قد هجم على بلاده ، ومات من عسكره ما لا يحصى ، وقد تلاشى أمره ، فسُرَّ السلطان بهذا الخبر .

وفيه قدمت إلى القاهرة زوجة حسن الطويل أم ولده محمد أُغرولو ، تستجير لولدها محمد بالسلطان بأن يشفع له عند أبيه ويصلح بينهما ، فلما قدمت أكرمها السلطان وأنزلها بدور الحريم .

الحملة إلى حماة ونهاية يَشْبَك الدوادار

في صفر سنة ٨٨٥ هـ جاءت الأخبار بوقوع فتنة كبيرة بحماة ، قتل فيها نائب حماة أزدمر من أزبك قريب السلطان ، وسبب ذلك أن سيف أمير آل فضل خرج عن الطاعة ،فحاربه أزدمر نائب حماة فقتل في المعركة وقتل معه جماعة من أمراء حماة ، فانزعج السلطان لهذا الخبر .

وفي ربيع الأول عيَّن السلطان الأمير يَشْبَك الدَوَادار للخروج إلى حماة ، وعين معه من الأمراء المقدمين : برسباي قرا ، وتاني بك قرا ، وعدة من الأمراء الطبلخانات والعشرات ، وعدة وافرة من الجند . وهذه السفرة كانت آخر العهد بالأمير يَشْبَك ولم يعد منها إلى مصر وكذلك الأمراء الذين خرجوا معه .

وكان الأمير يَشْبَك قد سأل السلطان بنفسه الخروج بهذه المهمة إذ كان له غرض خاص بالسفر إلى حماة ومنها إلى دياربكر . ذلك أن خلافاً قد وقع بين يَشْبَك وبين جلبان السلطان بسبب جانم الشريفي ، وقد اتهم بأنه سمَّه سماً بطيئاً فحصل بينهم تهديد ، وقصدوا قتله غير مرة . فحسَّن له بعض الأعاجم أن مملكة حسن الطويل سائبة وأن العسكر مختلف على ابنه يعقوب ، ومتى حاربهم لا يستطيعون الصمود أمامه ، ويتسلم مملكة العراق قاطبة . فانصاع الأمير يَشْبَك لهذا الكلام ، وسأل السلطان السفر بنفسه ، حتى يجعل الله لكل شيء سبباً لنفوذ القضاء والقدر كما قيل في المعنى :

أتطمع من ليلى بوصلٍ وإنما ... تُقَطِّعُ أعناق الرجال المطامعُ

فلما عيَّن السلطان الأمراء ، وعرض بعد ذلك الجند وكانوا نحو خمسمائة مملوك أنفق عليهم ، وأمرهم بسرعة التجهيز والخروج صحبة الأمير يَشْبَك ، فبلغت النفقة عليهم زيادة عن المئة ألف دينار .

وفي ربيع الآخر خرج الأمير يَشْبَك الدَوَادار إلى التجريدة من غير طلْب لذلك . وكان عليه خمدة زائدة ، فتفاءل الناس بعدم عودته إلى مصر وكذا جرى . وكان الناس يقولون : خرج لسيف وكان هذا فألاً عليه .

وفي رجب من السنة نفسها جاءت الأخبار بأن الأمير يَشْبَك الدوادار لما دخل الشام أخذ معه نائب الشام قانصوه اليحياوي ، وتوجه إلى حلب ، وأن قانباي صلق توفي بحلب ، وكان صحبة الأمير يَشْبَك وهو من مماليك شادبك الجكمي ، ارتقى حتى أمير طبلخاناه ، ورأس نوبة ، وكان لا بأس به ، ورأى غاية العز في دولة الأشرف قايتباي .

الأمير يَشْبَك يحاصر مدينة الرُّها

وفي شوال سنة ٨٨٥ هـ جاءت الأخبار من الرُّها بوقوع كائنة عظيمة طامة قتل فيها الأمير يَشْبَك الدوادار وانكسر العسكر قاطبة ، وقتل الأكثر منهم .

وكان سبب ذلك أن الأمير يَشْبَك لما دخل إلى حلب كان صحبته نائب الشام ، ونائب حلب ، ونائب طرابلس ، ونائب حماة ، والعسكر الشامي والحلبي والمصري ، وغير ذلك من العساكر .

فلما استقر بحلب بلغه أن سيف أمير آل فضل الذي خرج بسببه ،فرَّ وتوجه نحو الرُّها فقوي عَزْمُ الأمير يَشْبَك بأن يُعَدّي من الفرات ، ويتبع سيفاً في أي مكان فيه ، فكان كما قيل في المعنى :

وكم من طالب يسعى لشيءٍ وفيه هلاكه لو كان يدري

فعدّى من الفرات هو والعساكر ، فاجتمع معه فوق العشرة آلاف إنسان ، فلما عدّى توجَّه إلى الرُّها ، وكان المتولي أمرها يومئذٍ شخص يقال له بايندُر أحد نواب يعقوب بك بن حسن الطويل . فحاصر الأمير يَشْبَك مدينة الرُّها أشد المحاصرة ، فلما أشرف على أخذها ، أرسل بايندُر يتلطف بالأمير يَشْبَك ويقول له : ضمانُ مَسْكٌ سَيْفٍ عليّ . وأرسل يقول له : ارحل من الرُّها وأنا أجمع لك من المدينة مالاً له صورة[٢٥٩] . فأبى الأمير يَشْبَك من ذلك لمّا رأى من كثرة العساكر التي كانت معه ، فطمعت آماله في أخذ مدينة الرُّها ، والزحف بعد ذلك على ملك العراق كما حَسَّنوا له ذلك .

هزيمة يَشْبَك وأسره

فزعق النفير وركب العسكر قاطبة ، فبرز بايندُر ومن معه من العسكر وتحارب معهم ، فلم تكن إلا ساعة يسيرة وانكسر عسكر مصر قاطبة ، وأسر الأمير يَشْبَك وهو راكب على ظهر فرسه فأتوا به إلى بايندُر .

وأسروا نائب الشام قانصوه اليحياوي ، ونائب حلب أزدمر ، ونائب حماة جانم الجداوي ، وقتل بُردُبك قريب السلطان نائب طرابلس . وأسر برسباي قرا حاجب الحجاب وتاني بك قرا أحد المقدمين ، وقتل من الأمراء العشرات ومن أمراء الشام وحلب ما لا يحصى عددهم .

وكانت حوافر الخيل لا تطأ إلا على جثث القتلى من العسكر ، فكان ممن قتل من أعيان العسكر أيضاً طقطمش الخشقدمي أحد الأمراء بحلب ، وسليمان بك من أقارب سوار ، وقانصوه البواب الإينالي أحد الأمراء العشرات ورؤوس النوب ،وقرقماس المحمدي الظاهري أحد العشرات ورؤوس النوب .

---

(٢٥٩) مال له صورة : أي مبلغ كبير من المال .

وأما الذي قتل من الخاصكية والمماليك السلطانية فما ضبط لكثرتهم ، وقتل من العساكر الشامية والحلبية وغير ذلك ما لا يحصى عددهم ، وكانت مصيبة عظيمة مهولة قلَّ أن يقع مثلها لعسكر مصر .

مقتل الأمير يَشْبَك

وأما ما كان من أمر يَشْبَك الدوادار ، فإنه أقام في الأسر ثلاثة أيام . ثم حضر إليه في اليوم الرابع عبدٌ أسود من عبيد التركمان قطع رأسه في الليل وأحضرها بين يدي بايندُر .

وقيل إنه حز رأسه بالسيف عدة مرات وهي لا تنقطع ، فقطعها بسكين صغير وعذبه غاية العذاب .

فلما طلع النهار وجدوا جثته بغير رأس وهي مرمية على قارعة الطريق وعورته مكشوفة حتى ستره بعض الغلمان بحشيش من الأرض . وقد أرسلَ رأسه إلى بلاد العجم عند يعقوب بن حسن الطويل « وقد حشي سلخة الرأس تبناً »[٢٦٠] فكان له يوم مشهود بمدينة ماردين[٢٦١] وطافوا بها بلاد العجم وهي على رمح وألبسوا رأس الأمير يَشْبَك تخفيفته الكبيرة لما طافوا به .

وطافوا بالنواب والأمراء الذين أسروا وهم في قيود وجنازير ، والمماليك الذين أسروا مشاة وأرسل بايندُر إلى يعقوب بن حسن بجميع ما نهبه من مالٍ وخيول وسلاح وقماش وبَرْك وغير ذلك مما لا يحصى . وكانت هذه الكسرة على عسكر مصر من الوقائع الغريبة .

---

(٢٦٠) يقول ابن طولون في مفاكهة الخلان ٢٨/١ : أن محب الدين بن الفرفور صاحب ديوان الجيش قد أخبر عند عودته إلى دمشق : أن الباش ضربت رقبته بعد أن مسك على هيئة بشعة ، وحشي سلخة الرأس تبناً ،ومعه رأس ابن بداق ، وأرسلا لتوريز لابن حسن باك .

(٢٦١) ماردين :مدينة في جنوب شرق تركيا (المصور ١) .

وكانت قتلة الأمير يَشْبَك في العشر الأخير من رمضان سنة ٨٨٥ هـ بالرُّها .

وفي ذي القعدة من سنة ٨٨٥ هـ ، وصلت إلى القاهرة جثة الأمير يَشْبَك الدوادار من الرُّها وهي في سحلية ، جثة بدون رأس ، فوقع الشك فيها هل هي جثته أم لا ؟ فوجدوا إمارات تدل على أنها جثته فكفنوها ودفنوها في تربته التي أنشأها عند زاوية كهنبوش وتحقق موته ، وانقطعت الإشاعات بأنه على قيد الحياة . وحضر صحبة جثته قانصوه دَوَاداره ، وأخبر بحقيقة موته وكيفية أمر الواقعة ومن أسر من الأمراء . وأخبر بقتل جانم قريب السلطان الذي كان أتابك العسكر بحلب .

ترجمة يَشْبَك

كان الأمير يَشْبَك أميراً جليلاً معظماً في سعة المال ، ذا شهامة زائدة وحرمة وافرة ، وكلمة نافذة ، وكان أصله من مشتريات الظاهر جَقْمَقْ ، وكان يعرف بيَشْبَك من مهدي . ورقي في دولة الأشرف قايتباي حتى صار الحل والعقد بالديار المصرية ، واجتمعت فيه عدة وظائف سنية منها : الدَوَادارية الكبرى ، وأُمرية السلاح ، والوزارة ، والاستادارية الكبرى ، وكاشف الكشاف ، ومدبر المملكة ، وغير ذلك من الوظائف ، فعظم أمره جداً ، ووقع له أشياء غريبة لم تقع لغيره من أبناء جنسه في عصره ، ومات وله من العمر نحو ست وخمسين سنة وقد وكزه الشيب قليلاً .

وكان صفته : أبيض اللون ، مدور الوجه ، أشهل العينين ، أشقر اللحية ، طويل القامة ، ملئ الجسد .

وأنشأ أشياء كثيرة من العمائر بالديار المصرية ما بين ربوع وحوانيت ، ودور جليلة ، وصهاريج ومغسل ، وأسبلة ، وزوايا ، وأنشأ قبة بالمطرية ، وقبة

برأس الحسينية ، وكان له في كل سنة عدة شقادف[٢٦٢] محملة على جمال ، ومعها الزاد والماء ، تلاقي الحجاج من العقبة بسبب المنقطعين من الحجاج ، وله غير ذلك أشياء كثيرة من وجوه البر والمعروف ، وكانت له محاسن ومساوئ ، وفيه الخير والشر . وقد ساقه أجله حتى خرج في هذه التجريدة بسبب سيف أمير آل فضل فكانت منيته بالرُّها .

وكان الأمير يَشْبَك باغياً على بايندُر ، فإنه قصد محاربته من غير سبب ولا موجب .

نهاية الأزمة بين السلطان ويعقوب بن حسن الطويل

وقصد السلطان السفر إلى حلب بنفسه ، ليقيم بها خوفاً من عسكر يعقوب بن حسن أن يطرق بلاد حلب والشام ، فإن النواب قاطبة كانوا في الأسر عند يعقوب بن حسن ، ثم إن السلطان عيَّن الأتابكي أزبك إلى حلب ، وعيَّن معه وردبش أحد المقدمين ، وخلع عليه وأقره في نيابة حلب عوضاً عن أزدمر ، وعيَّن من الأمراء العشرات والطبلخانات عدة وافرة منهم : جاني بك حبيب أمير آخور ثاني وآخرين من الأمراء .

ثم عرض الجند وكتب منهم جماعة ، واستحثهم على الخروج بسرعة قبل أن تهجم عساكر الشرق على حلب ، ولولا فعله هذا لخرج من يده غالب جهات حلب .

ثم بعد أيام خرج الأتابكي أزبك من القاهرة هو والعسكر في تجمل زائد ، وكان لهم يوم مشهود .

---

(٢٦٢) شقادف : جمع شقدف وهو صندوق خشبي ذو شقين يوضع على ظهر الجمل .

وفوَّض السلطان أمر البلاد الشامية والحلبية للأتابكي أزبك ، وجعل له التكلم في أمور المملكة من ولاية وعزل .

ولما أراد الرحيل من الريدانية نزل إليه السلطان وودعه وجلس عنده ، وتشاوروا فيما يكون فيه المصلحة بسبب هذه الكائنة . ثم سافر الأتابكي أزبك .

وفي شهر صفر من سنة ٨٨٦ هـ جاءت الأخبار من حلب بأن الأتابكي أزبك لما وصل إلى حلب ، وجد أمر الفتنة التي وقعت بين عسكر مصر وبين بايندُر[٢٦٣] قد سكن ، وأن يعقوب بن حسن الطويل شق عليه ما فعله بايندُر من سرعة قتله للأمير يَشْبَك الدَوَادار ولامه على ذلك .

ثم إن الأتابكي أزبك أرسل جاني بك حبيب قاصداً إلى يعقوب بن حسن ، فتلطف به في الكلام ، وكان الأمير جاني بك حبيب سيوساً درياً حلو اللسان ، فأكرمه يعقوب وأجَلَّه ، ثم أطلق من كان عنده من الأسرى من النواب والأمراء وغير ذلك ، فسلمهم للأمير جاني بك حبيب ، فأتى بهم إلى حلب صحبته ، فلما بلغ السلطان هذا الخبر سُرَّ به جداً .

---

(٢٦٣) بايندُر : وردا سمة في الضوء اللامع : بايندر (١١٣/٣) .

نصوص وإضافات على الرحلة

٣

تردّي العلاقات بين المماليك والعثمانيين

- أسباب النزاع العثماني المملوكي
- ثورة علي دولات
- بدء العراك بين المماليك والعثمانيين

تردّي العلاقات بين المماليك والعثمانيين

أسباب النزاع العثماني المملوكي

بعد هزيمة شاه سوار ، وإعدامه في القاهرة سنة ٨٧٧ هـ ، أعاد السلطان قايتباي شاه بضاع ـ شاه بداغ أو بداق ـ إلى تزعم الإمارة الدلغادرية وحكم ألبستان ـ الأبلستين ـ إلا أن شقيقه علي دولات ـ علي بن خليل بن قراجا بن دلغادر علاء الدين الأرتقي التركماني ـ استطاع طرد شاه بضاع سنة ٨٨٦ هـ وذلك بتأييد من السلطان العثماني بايزيد الثاني ـ أبو يزيد ملك الروم ـ ويعود تأييد بايزيد لعلي دولات إلى عدة أسباب :

فبعد وفاة السلطان العثماني محمد الفاتح سنة ٨٨٦ هـ / ١٤٨١ م ، تولى ابنه بايزيد الثاني يلدرم وقد نازعه على السلطة شقيقه جم ـ جمجمة بن أبي يزيد بن عثمان ـ لكن جم لم يستطع الصمود أمام قوات بيازيد ففر من الأناضول وقدم إلى طرسوس ، وطلب من نائب حلب أزبك السماح له بدخول حلب ، فاتصل أزبك بالسلطان قايتباي الذي أذن له بالحضور إلى القاهرة مع قليل من عسكره ، ووصلها في شعبان سنة ٨٨٦ هـ وقد خرج الصاحب خوشْقَدَم إلى ملاقاته ، فمد له أسمطة حافلة وخرج الأمراء المقدمون ورؤوس النوب والحجاب لاستقباله ، فكان هذا الاستقبال في منتهى الحفاوة وقد أحضر معه والدته وأولاده وعياله ، وأقام في القاهرة حتى جمادى الأولى سنة ٨٨٧ هـ ، وسمح له السلطان خلال إقامته بزيارة الأماكن المقدسة وأداء فريضة الحج ـ وكان هدف جمجمة من الحج كسب التأييد له في نزاعه من أخيه ـ .

لقي جم أثناء إقامته في القاهرة الترحيب الكبير وحسن المعاملة من

السلطان ، وعندما طلب من السلطان الخروج إلى بلاده ليحارب أخيه ، تردَّد السلطان في ذلك ثم سمح على كره منه ـ وكان ذلك عينَ الخطأ ـ ، وقد ندم السلطان على ذلك فيما بعد ، فعندما خرج جم أرسل له أخوه قوة عسكرية هزمته وفرَّ هارباً ، وأصبح واضحاً لبايزيد أن جمجمة إنما استأنف تمرده بتشجيع ـ أو على الأقل بموافقة ـ السلطان قايتباي مما أثار نقمته .

ويضيف ابن إياس في بدائع الزهور ٣ / ٢١٥ سبباً آخر وذلك في حوادث صفر سنة ٨٩٠ هـ هذا نصه :

« والذي استفاض بين الناس أن سبب هذه الفتنة الواقعة بين السلطان وبين ابن عثمان ، أن بعض ملوك الهند أرسل إلى ابن عثمان هدية حافلة على يد بعض تجار الهند ، فلما وصل إلى جدّة ، احتاط عليها نائب جدّة وأحضرها صحبته إلى السلطان وكان من جملة تلك الهدية خنجر قبضته مرصعة بفصوص مثمنة ، فطمع السلطان في تلك الهدية وأخذ الخنجر ، فلما بلغ ابن عثمان ذلك حنق ، وجاء في عقيب ذلك أن علي دولات ترامى على ابن عثمان وشكا له من أفعال السلطان وما يصدر منه ، فتعصب لعلي دولات وأمده بالعساكر واستمرت الفتنة تتسع .

وقد طمع غالب ملوك الشرق في عسكر مصر بموجب ما وقع لهم من سوار وباينذُر .

ثم إن السلطان أرسل إلى ابن عثمان ذلك الخنجر والهدية التي بعث بها ملك الهند ، وأرسل يعتذر لابن عثمان عن ذلك ولكن بعد فوات الأوان » .

علي دولات وثورته

في جمادى الآخرة سنة ٨٨٨ هـ جاءت الأخبار إلى القاهرة بأن علي دولات بن دلغادر قد أتى إلى ماطية في جمع كبير من العساكر ، وقد حاصر البلد أشد المحاصرة فانزعج السلطان لهذا الخبر ، وعَيَّنَ تجريدة إلى حلب وبها من

الأمراء : أزدمر أمير مجلس[٢٦٤] وكان نـائبـاً لحلب ، والأمير تغري بردي ططر حاجب الحجاب ، وعدداً من الأمراء الطبلخانات ومن الجند نحو خمسمائة مملوك وأنفق على الأمراء والجند أكثر من سبعين ألف دينار . وقد غادرت هذه التجريدة القاهرة في شهر رجب .

في الشهر المحرم من سنة ٨٨٩ هـ عين السلطان تجريدة ثانية تقوية للتجريدة الأولى وضع عليها تمراز الشمسي أمير سلاح وأمده بنحو أربعمائة مملوك من المماليك السلطانية وكان سبب هذه التجريدة أن السلطان قد بلغه أن ابن عثمان ملك الروم قد أمدّ علي دولات بعساكر كثيرة ، وهذا أول تحرك لابن عثمان على بلاد السلطان .

الهزيمة الأولى للمماليك :

وفي ربيع الأول سنة ٨٨٩ هـ جاءت الأخبار بأن العسكر الذي خرج من القاهرة قد تقاتل مع علي دولات ، وقد كسر العسكر وقتل منهم جماعة كثيرة من الجند ومن الأمراء .

وفي ربيع الآخر وزع السلطان النفقة على الجند المعين لتجريدة جديدة قررها وعلى رأسها الأمير تمراز أمير سلاح وأزبك اليوسفي أحد المقدمين وبلغ عدد الجند نحو ألف مملوك خرجوا في جمادى الأولى .

الهزيمة الثانية للمماليك :

وفي رمضان جاءت الأخبار من حلب بأن وردبش نائب حلب خرج في جمع من العساكر ، واتقع مع علي دولات ، وقد أمده ابن عثمان بجمع كبير من

(٢٦٤) أمير مجلس : هو الأمير الذي يتولى أمر مجلس السلطان أو الأمير ، كما يتحدث عن الأطباء والكحالين (صبح الأعشى : ٤/١٨ ، ٥/٤٥٥) .

عساكره ، فلما التقى العسكران وقع بينهما وقعة كبيرة ، فانكسر العسكر الحلبي ، وقتل ورد بش نائب حلب وجماعة كثيرة من العسكر الحلبي والمصري منهم ألماس نائب صفد وأمراء أخر .

لم تكن تجريدة تمراز قد شاركت في هذه المعركة ، فلما حصلت هذه الكسرة ركب الأمير تمراز وأزدمر أمير مجلس ، والعسكر المصري وتوجهوا نحو علي دولات ، فاتقع معه وانكسر علي دولات هو وعسكر ابن عثمان ، ونهب جميع بركهم وأخذت صناجق ابن عثمان ، ودخل الجند بها إلى حلب وهي منكسة .

وفي ذي الحجة حضر إلى القاهرة جماعة من الجند ممن كان أسر عند علي دولات ، وقد قطع أصابع جماعة منهم من حدّ إبهامه وأطلقه ، فجمع السلطان الأمراء وتشاوروا في أمر ابن عثمان وتعصبه لعلي دولات ، فأشار الأتابكي أزبك وغيره من الأمراء بأن يرسل السلطان هدية إلى ابن عثمان لتزول الوحشة بينهما ، فعين السلطان الأمير جاني بك حبيب أمير آخور ثاني ، ـ وكان حلو اللسان سيوساً سبق أن توجه إلى يعقوب بن حسن الطويل ونجح بمهمته ـ قاصداً إلى ابن عثمان ، وقد سافر إليه بحراً من الاسكندرية في صفر سنة ٨٩٠ هـ حاملاً هدية حافلة في نحو عشرة آلاف دينار أو تزيد . إضافة إلى تقليد من الخليفة إلى ابن عثمان بأن يكون مقام السلطان على بلاد الروم وما سيفتحه الله تعالى على يده من البلاد الكفرية ، وأرسل إليه الخليفة أيضاً مطالعة تتضمن تخميد هذه الفتنة التي قد انتشت بينه وبين السلطان وفيها بعض ترقق له .

ولم يلبث السلطان أن عيَّن تجريدة أخرى إلى علي دولات ، وبها من الأمراء برسباي قرا رأس نوبة النوب ، وتاني بك الجمالي أحد المقدمين ، ورسم لهم بأن يتقدموا جاليش العسكر إلى أن يخرج الأتابكي أزبك ، وبلغت النفقة على هذه التجريدة أكثر من مائة ألف دينار وخرجت التجريدة من القاهرة في ربيع الآخر دون الأتابكي أزبك .

وفي جمادى الآخرة جاءت الأخبار من حلب بأن عسكر ابن عثمان قد استولى على قلعة كولك بالأمان بعد أن حاصروها وأسلمها لهم طوغان الساعي أحد مماليك السلطان .

وفي شعبان سنة ٨٩٠ هـ أرسل أزدمر نائب حلب يستحث السلطان بخروج تجريدة ثقيلة أو يخرج السلطان بنفسه وذلك بعد أن توسع ابن عثمان في أطراف البلاد ، فانزعج السلطان لهذا الخبر ونادى العسكر للعرض ، ثم عرض الجند بحضرة الأتابكي أزبك ، وكان هو المشار إليه في تعيين الجند بما يختاره منهم ، ثم عرض القرانصة(٢٦٥) وأولاد الناس ، وسمح للذي لا يرغب بالسفر منهم أن يقدم بديلاً كاملاً بفرس ولباس كامل ، أو يدفع مائة دينار ، وكادت تحدث فتنة كبيرة عندما أطلق المماليك المعيَّنون للسفر النار على الناس ونهبوا دوابهم ، حتى دواب الطواحين التي تعطلت إلى أن تدخَّل السلطان وأعاد الدواب إلى أصحابها .

وخرجت التجريدة في شوال وعلى رأسها الأتابكي أزبك ، ومعه قانصوه خمسمائة أمير آخور كبير ، وتاني بك قرا حاجب الحجاب ، وتغري بردي ططر أحد المقدمين الألوف ، إضافة إلى مقدمين أخر ، وبلغ جملة الأمراء المقدمين تسعة وعدد الجنود ثلاثة آلاف مملوك .

الصلح مع علي دولات

وفي ذي الحجة من سنة ٨٩٠ هـ جاءت الأخبار من نائب حلب بأن علي دولات أرسل يسأل في الصلح ، وكان جاني بك حبيب الذي توجه قاصداً إلى ابن عثمان بحراً قد عاد براً في ذي القعدة وأخبر السلطان عن أحوال ابن عثمان وإصراره

(٢٦٥) المماليك القرانصة : هم مماليك الأمراء والسلاطين السابقين ، ورغم أن خبرتهم كانت أكبر من الجلبان إلا أن السلاطين لم يكونوا يأمنون لهم .

على اعتداءاته فلم ير منه إقبالاً على الصلح . وبذلك يكون علي دولات قد خرج من الفتنة وبقي ابن عثمان .

النصر الثاني للمماليك على العثمانيين

وفي ربيع الأول سنة ٨٩١ هـ وصل دَوَادار نائب حلب إلى القاهرة مبشراً بنصرة العسكر المصري على عسكر ابن عثمان ، وأسر أحمد بك بن هرسك وهو من أجلّ أمراء ابن عثمان ، وعدد من الأمراء أيضاً ، وغنم العسكر المصري ما لا يحصى من الخيول والسلاح ، واستولوا على مائة وعشرين صنجقاً ، وقد قطعت عدة وافرة من رؤوس عسكر ابن عثمان ، وسيحضرون صحبة قيت الساقي الخاصكي .

وقد وصل قيت الساقي في ربيع الآخر من حلب ، ومعه عدة رؤوس من عسكر ابن عثمان ، عدتها ما يزيد على مائتي رأس ، محمولة على الرماح ، فلما دخل القاهرة زينت له زينة حافلة ، واصطف الناس لمشاهدته ، وذهب إلى القلعة وضربت له البشائر وخلع عليه السلطان كالعادة .

وفي جمادى الآخرة جاءت الأخبار بأن عسكر ابن عثمان ، بعد أن حصلت لهم تلك الكسرة ، تجمع جيشاً كثيفاً وعاد للحرب ثانية ، مما اضطر عسكر السلطان للعودة إلى كولك بعد أن قدم إلى حلب ، فانزعج السلطان لهذا الخبر ونادى بالعسكر للعرض ، فعرض عليه فعين جماعة من الأمراء المقدمين والجند ، فكانوا نحو خمسمائة مملوك ، وعليهم يشبك الجمالي الزردكاش الكبير أحد المقدمين ، ثم أنفق عليهم واستحثهم على الخروج إلى حلب .

وضاق الأمر بالسلطان حتى قصد أن يخرج إلى التجريدة بنفسه ، وأرسل إلى كرتباي الأحمر كاشف البحيرة بأن يجمع له من طائفة العربان الذين بالبحيرة ما يستطيع ، لا بل إنه عرض على الزعر أن ينفق على كل واحد منهم ثلاثين ديناراً ليخرجوا صحبته .

اضطراب الأحوال

وفي شوال من السنة نفسها ، جاءت الأخبار من حلب بأن العسكر قد ثار على الأتابكي أزبك وقصد العودة إلى القاهرة ، فتشوش السلطان وأرسل يطلب من الأتابكي أزبك بأن ينفق على كل مملوك خمسين ديناراً ، ففعل ذلك أزبك وسكنت الفتنة .

وفيه أيضاً وصل قيت الساقي الخاصكي ، وكان قد توجه ـ بعد عودته من حلب ـ قاصداً يعقوب بن حسن الطويل في العراق ، وعاد على جناح السرعة ومعه مكاتبة بإظهار التودّد وصدق المحبة للسلطان .

وفي ذي القعدة حضر جماعة من الجند من حلب دون إذن من السلطان وقصدوا الإخراق بالأتابكي أزبك باش العسكر وهو بحلب فقال لهم : الذي يقصد الرواح إلى مصر فليذهب ويقابل أستاذه ، فأخذوا يتسللون .

وتزايدت الإشاعة بوقوع فتنة كبيرة ، وأخذ جماعة من المماليك الجلبان يعترضون الأمراء طالبين منهم أن ينفق السلطان عليهم ، مهددين بالفتنة ومغلظين بالقول .

ثم حضر الأتابكي أزبك وبقية الأمراء والجند إلى القاهرة ، فدخلوها بمدخل حافل ، وأمامهم الأسرى من عساكر ابن عثمان وهم مشاة في زناجير ، وصناجقهم منكسة ، وصحبتهم أمراؤهم بزناجير على خيول ، وبينهم الأمير أحمد بن هرسك راكباً وفي عنقه زنجير ، فلما قابلوا السلطان وهو بالحوش ، عاتب ابن هرسك ووبخه بالكلام ، ثم سلمه إلى الأمير قانصوه خمسمائة أمير آخور كبير ، ثم وزع بقية الأسرى على جماعة من المباشرين حتى قضاة القضاء ، ثم خلع على الأتابكي أزبك وبقية الأمراء .

وعـادت الفتنـة لتظهر من المماليـك الجلبـان ، فقـد ثـار جمـاعـة منهم على السلطـان ولبسوا للحرب وأشهروا السلاح فـاضطربت الأحوال وأغلقت الأسـواق وجاء الزعر ، وكان ذلـك بسبب رفض السلطـان الإنفـاق عليهم بعـد نصرتهم على عسكر ابن عثمان . واستمر الأمر على هـذا الحـال حتى ذي الحجـة ، وبعـد تـوسـط الأمير أزبك لـدى السلطـان تقرر صرف خمسين دينـاراً لكل مملوك في أول السنـة الجديدة وهدأت الفتنة . وتم توزيع النفقة مع الجامكية ـ الراتب ـ بمعـدل خمسين دينـاراً للمماليـك الجلبـان وخمسـة وعشرين دينـاراً للقرانصـة ، ومن لم يخرج للتجريدة لم ينل شيئاً .

ومع حلول السنة الجديدة ٨٩٢ هـ استمرت الأحوال مضطربة في مصر ، فقـد تضاءل الخبز والطعام وغلت الأسعـار وتضاعفت ، وزاد طغيـان المماليـك ، وكثر ضرر العربان البـدو على حـدود الصحراء ، وأخبـار ابن عثمان تتوارد بتحركـه نحو البلاد الحلبية ، مما أكثر من المصادرات لتجريـد حملـة جـديـدة ، وانقسم المماليـك الجلبان إلى فرقتين : فرقة مع قانصوه خمسمائة وفرقة مع أقبردي الدوادار .

ويبدو أن السلطـان قـد عزم على الصلح مع ابن عثمان ، فلم يعـد من السهل إخراج تجريدة جديدة أمام هذه الأحوال ، فأمر بفك قيد أحمد بن هرسك وبقية الأسرى ، وتجهيزهم للسفر إلى بلادهم .

وفي رجب من سنة ٨٩٢ هـ طلب السلطان من كاسباي المحتسب جميع أعيان التجار ، ولما تم ذلك ، طلب منهم السلطان مسـاعـدتهم على خروج تجريـدة بمبلغ أربعين ألف دينار ، فضجوا وأبدوا عجزهم عن تأمين المطلوب ، فظل يخفض منـه حتى بلغ اثني عشر ألف دينار يدفعها التجار إذا خرجت التجريدة .

وتزايـدت الأحوال سوءاً ، ففي شوال من السنـة نفسهـا ، جـاءت الأخبـار بفرار شاه بضاع بن دلغـادر ـ شقيق علي دولات ـ وكان مسجونـاً بقلعـة دمشق ،

فلما بلغ السلطان ذلـك أمر بشنق نـائب القلعـة ، ثم تواردت الأخبـار عن وصول شاه بضاع إلى ابن عثمان الذي أكرمه وأقام عنده .

وفي شهر ذي الحجـة قويت الإشـاعـات في القـاهرة بقيـام فتنـة بين المماليـك الجلبان ، فنقل غالب الأمراء وأرباب الدولـة أمتعتهم من الـدور خوفـاً من نهبهـا عند وقوع الفتنـة ، وعزم السلطـان على مجابهـة الأمر ، فخرج إلى صلاة الجمعـة ثم جلس بالحوش ، وأحضر أعيان المماليك الجلبان وكلمهم كثيراً ووبَّخهم ؛ ومما قاله : إذا كان قصـدكم قتلي فـدونكم ذلـك ، فـاسْتَغْفَروا لـه ، ثم آل الأمر إلى صلحهم مـع السلطان ، فلما خرجوا من عنده عادوا لمـا كانوا عليـه من الفتنـة ، حتى أشيع بين الناس أن السلطان قد تهيأ للفرار بنفسه .

ومـا إن حلت سنـة ٨٩٣ هـ حتى تـواردت الأخبـار في الشهر المحرم بـأن ابن عثمان بعث بعساكر عظيمة ، وقصد المحاربة لعسكر مصر فانزعج السلطان . فـأزمع السلطـان على تجهيز تجريـدة جـديـدة فـاستـدعى في ربيع الأول بَتْرَك النصـارى ورئيس اليهود وفرض عليهم مالاً بسبب التجريدة وجدَّد بذلـك بـاب المصـادرات للناس .

ولم تلبث الأخبار أن وردت في جمادى الأولى من حلب بأن عسكر ابن عثمان قد وصل إلى أدنة ، فاضطرب السلطان ونادى بالعرض ، وحضر الأتابكي أزبك ، وعين لـه تجريـدة جـديـدة ، ضمت من الأمراء المقـدمين أحـد عشر أميراً ، ومن الأمراء الطبلخـانـات والعشرات أكثر من ستين أميراً ، ومن الجنـود نحـو أربعـة آلاف مملوك وعُدَّت هذه التجريدة لضخامتها من النوادر .

وأرسل السلطان ثلاثـة من الخـاصكيـة على الهجن لكشف أخبـار عسكر ابن عثمان على عجل ، وأمرهم بإرسال الأخبار بمنتهى السرعـة ، ولم تلبث الأخبـار أن حملت سقوط قلعة إياس بيد عسكر ابن عثمان دون قتال .

وفي جمادى الثانية خرجت التجريدة بقيادة الأتابكي أزبك من القاهرة ، وقد بلغت تكلفتها قرابة مليون دينار - ألف ألف دينار - فعد ذلك من النوادر .

النصر الثالث على العثمانيين

وفي رمضان جاءت الأخبار بأن الأتابكي أزبك استولى على باب المَلِك ، واستخلصه من عسكر ابن عثمان ، بعد أن أتوا إليه في نحو ستين مركباً محملة بالمقاتلين والأسلحة ، وقد اضطرب العسكر المصري أولاً ثم هبت ريح عاصفة أغرقت معظم هذه المراكب ومن فَرَّ مِنَ العثمانيين وصعد إلى البرقُتِل .

النصر الرابع على العثمانيين

وفيه أيضاً التقى العسكران المصري والعثماني بمعركة ضخمة ، قتل فيها عدد كبير من الفريقين ، وكانت النصرة فيهـــا للعسكر المصري ، ووصــل الخبر إلى القاهرة ودقت البشائر .

وفي شوال وصل مغلباي البجمقدار إلى القاهرة ، وصحبته رؤوس عديدة من العثمانية ، عدتها نحو مائتي رأس ، موضوعة على الرماح ، فدخل المدينة في موكب حافل فخلع عليه السلطان .

وعاد عسكر ابن عثمان بعد هزيمتهم ثانية إلى أدنة ، فحاصرها العسكر المصري وفتحها بالأمان بعد ثلاثة أشهر من الحصار .

تنازل السلطان عن السلطنة وعودته إليها

وفي ربيع الأول سنة ٨٩٤ هـ بلغ السلطان أن المماليك الذين حضروا من التجريدة قصدوا إثارة فتنة كبيرة ، ويريــدون نفقــة بسبب نصرتهم ، وبلغ السلطان أيضاً أنهم قالوا : إن لم يعطنا السلطان نفقة قتلنا الأمراء والمماليك الذين كانوا بمصر ولم يسافروا .

فلما تحقق السلطان ذلك أخذ في أسباب تحصيل المال ، فاجتمع بالقضاة الأربعة ، وذكر لهم : « أن الخزائن نفد ما كان فيها من المال ، وأن المماليك يقصدون نفقة وإن لم أنفق عليهم شيئاً أثاروا فتنة كبيرة » ، فاتفق الحال على أن يفرضوا على أرباب الأملاك والأوقاف التي بمصر والقاهرة أجرة شهرين مساعدة للسلطان على النفقة ، فانفضَّ المجلس على ذلك . ثم إن السلطان أمر تغري بردي الاستادار بأن يتكلم في ذلك هو وناظر الخاص ابن الصابوني ، فاقتسموا التصرف في ذلك وشرعوا في جباية المال .

ثم بعد أيام دخل الأتابكي أزبك ومن كان معه مسافراً في التجريدة من الأمراء وبقية العسكر وكان لهم يوم مشهود ، ومن العجائب أنه في حالة دخولهم إلى القاهرة أشيع بين الناس عودهم إلى حلب عن قريب ، ذلك أن عسكر ابن عثمان قد استولى على سيس وعلى طرسوس وغير ذلك من البلاد الحلبية ، وحضر صحبة الأتابكي أزبك جماعة كثيرة من عسكر ابن عثمان ، أتوا طائعين باختيارهم فأنزلهم السلطان في ديوانه وقرر لهم الجوامك ، وهم باقون في الديوان ويسمون بالعثمانية ثم قويت الإشاعات بوقوع فتنة كبيرة ، وأن المماليك قد صمموا على أخذ النفقة لكل واحد منهم مائة دينار ، فقلق السلطان واشتد عليه الأمر .

وفي أوائل ربيع الآخر جلس السلطان على الدكة بالحوش وأرسل خلف القضاة الأربعة وسائر الأمراء فلما تكامل المجلس ، قال السلطان للقضاة والأمراء : « هؤلاء المماليك يريدون مني نفقة ، وقد نفد جميع ما في الخزائن من المال على التجاريد ، ولم يبق بها شيء من المال » . ثم أقسم بالله أنه نفد منه على التجاريد من حين وَلِيَ السلطنة إلى الآن سبعة آلاف ألف دينار ومائة وخمسة وستون ألف دينار ، ثم قال للأمراء : « اختاروا لكم من تسلطنوه غيري » . وأحضر فرس النوبة بالسرج الذهب والكنبوش ، وأحضر القبة والطير(٢٦٦) ، ثم قام وقال

للقضـاة : « اشهـدوا على أني قـد خلعت نفسي من السلطنـة » . وشرع يفـك أزراره ، وقصد الدخول إلى قاعـة البحرة ، فتعلق بـه القضـاة ومنعوه من ذلـك ، وشرع قـاضي قضـاة المـالكيـة محيي الـدين بن تقي يبكي ، وأظهر التـأسف لهـذه الواقعة وصار يتفارش ويتترب .

ثم إن الأمير تمراز أمير سلاح صـار يمشي بين الجلبـان وبين السلطـان في عمل المصالحة ، فكثر القيل والقـال في ذلـك ، وضج العسكر ، وترددت الوسـائـط بين السلطان وبين الجلبان ، ثم تقرر الحال بعد جهد كبير على أن ينفق السلطان على الجلبـان خمسين دينـاراً لكل منهم ، يـدفـع أربعين معجـلاً ، وينفـق عليهم عشرة دنـانير بعـد شهرين ، كما ينفـق على القرانصـة خمسـة وعشرين دينـاراً ، فسكن الاضطراب قليلاً .

ثم أرسل السلطان خلف الخليفـة المتوكل على الله عبـد العزيز وكان سـاكنـاً عنده بالحوش ، فلما حضر جدد له مبايعة ثانيـة بحضرة القضـاة الأربعـة ، فكانت مدة سلطنته في هذه المرة الأولى إلى يوم خلعه نفسه اثنتين وعشرين سنة إلا ثلاثة أشهر .

عودة المناوشات

وفي الشهر نفسه ـ ربيع الآخر ـ جاءت الأخبار بأن شـاه بضـاع بن دلغـادر حضر الأبلستين ومعـه طـائفـة من عسكر ابن عثمان ، وكبس على أخيـه علي دولات ، وقبض على اثنين من أولاده ، فلما بلغ السلطان ذلك تنكد لهذا الخبر .

وفيه أيضاً أرسل السلطان خلعة إلى عبـد الرزاق أخي علي دولات ، وقرره في أتابكية حماة عوضاً عن ابن طرغل ونقل ابن طرغل إلى نيابة طرسوس .

---

(٢٦٦) القبة والطير : في حدائق الياسمين ما يلي : (المظلة) ويعبر عنها بالجتر ، ويقال لها القبة والطير ، وهي هيأة قبة من الحرير الأصفر مزركشة ، على أعلاها صفة طائر من فضة مموهة =

كما جاءت الأخبار من عند نائب حلب ، بأن عسكر ابن عثمان ، لما بلغهم رجوع العسكر المصري ، طمع في أخذ البلاد الحلبية . وأرسل النائب يستحث السلطان في خروج تجريدة بسرعة لحفظ مدينة حلب ، فلما بلغ السلطان ذلك عرض العسكر وعين التجريدة ، وجعل الباش على هذه التجريدة قانصوه الشامي أحد المقدمين الألوف ، وضم إليها عدداً من الأمراء وأنفق عليهم وعلى الجند ، وأمرهم بسرعة الخروج ، وتم خروجها في جمادى الآخرة ، وقد بلغت النفقة عليها مائة وخمسين ألف دينار غير جامكية أربعة أشهر وثمن الجمال .

وفي جمادى الآخرة قدم قاصد من عند داود باشا وزير ابن عثمان ، يشير على السلطان بأن يبعث قاصداً إلى ابن عثمان لعله يفلح في إقامة الصلح ، فأعيد له الجواب : إذا أطلق تجار المماليك الذين عنده وبعث مفاتيح القلاع التي أخذها ، كاتبناه في أمر الصلح وأرسلنا له قاصداً .

وفي شعبان دخل القاهرة اسكندر بن جيحان أحد أمراء ابن عثمان ، وقد أسره بعض النواب ، وكان علي دولات هو القائم في القبض عليه ، فكان له بالقاهرة لما دخل يوم مشهود ، وأسر معه جماعة من العثمانية ، فلما عرضوا على السلطان رسم بسجنهم .

وفي الشهر المحرم سنة ٨٩٥ هـ قدم إلى القاهرة شاه بضاع بن دلغادر ، وقد تقدم القول بأنه هرب من قلعة دمشق وتوجه إلى ابن عثمان والتف على عسكره

= بالذهب تحمل على رأس الملك حين أخذه الملك وفي العيدين ، وتكون مع راكبِ فرسٍ ويحملها الأمير الكبير أو أخو السلطان أو ولده . وفي مملكة الشام وحلب (نيابة) يحملها نائبها يوم دخول السلطان . انتهى

وبعبارة عصرية نقول : القبة هي المظلة (الشمسية) تماماً غير أنها تكون أكبر منها بنحو ثلاث مرات ، وكانت من خصائص السلاطين فلا يحق لأحد استعمالها في المواكب غير السلطان .

وملك الأبلستين ، واستمر في عصيانه مدة طويلة ، ثم وقع بينه وبين ابن عثمان ، وقصد قتله ففرَّ منه ، والتجأ إلى السلطان ، فلما حضر أكرمه وخلع عليه .

وفي ربيع الأول جاءت الأخبار من عند علي دولات بأن ابن عثمان اهتم بتجهيز عساكر وقد وصل أوائلهم إلى كولك . فلما بلغ السلطان ذلك تنكد وجمع الأمراء وأخذ رأيهم في ذلك فوقع الاتفاق على خروج تجريدة صحبة أمير كبير .

ثم أخذ السلطان في أسباب جمع الخمس من نواحي الشرقية ، كما فعل عند خروج التجريدة الماضية لأجل فرسان العرب لتخرج صحبة أمير كبير باش العسكر ، فحصل للمقطعين بسبب ذلك غاية الأذى وقطع الخمس من خراجهم مرتين .

وفيه عرض السلطان أولاد الناس أصحاب الجوامك من ألف درهم فما دونه ، وكان أمرهم أن يتعلموا رمي البندق الرصاص قبل ذلك ، فلما عرضهم ورموا قدامه كتبهم في التجريدة ، وأنفق على كل واحد ثلاثين ديناراً ، وأشرك كل اثنين في جمل أعطاه لهما ، وخرجوا صحبة التجريدة .

وفيه نادى السلطان للعسكر بالعرض ، وأشيع أمر التجريدة إلى ابن عثمان . فلما عرضهم بادر إليهم بتفرقة النفقة . ثم وقع في ذلك اليوم بعض اضطراب من المماليك الجلبان ، وقام السلطان من الدكة ونزل وقال : « أنا أنزل لكم عن السلطنة وأمضي إلى مكة » فتلطف به الأمراء . ثم آل الأمر بعد ذلك إلى أن أنفق على كل مملوك مئة دينار كالعادة وجامكية أربعة أشهر وثمن جمل سبعة أشرفيات ، فأنفق في ذلك على عدة طباق واستمر على ذلك حتى أكمل النفقة . ثم حملت نفقة الأمراء المقدمين والطبلخانات والعشرات وقد تعينوا للسفر أجمعين ، ولم يبق بمصر سوى آقبردي الدوادار وأزدمر تمساح ، فكانوا على الحكم الأول كما تقدم ، فبلغت النفقة على الأمراء والجند نحو خمسمائة ألف دينار ، وكانت هذه التجريدة آخر تجاريد الأشرف قايتباي إلى ابن عثمان وغيره ولم يجرد بعدها أبداً .

ثم نادى للعسكر بأن لا يخرج منهم أحد قبل الباش فما سمعوا له شيئاً .

التجريدة الأخيرة

وفي شهر ربيع الآخر خرج أمير كبير أزبك من القاهرة قاصداً البلاد الحلبية ، وصحبته الأمراء ، وكانت عدتهم عشرة وهم على ما ذكرناه في التجريدة الماضية ، وأما الأمراء العشرات والطبلخانات فكانوا زيادة على الخمسين أميراً . وأما المماليك السلطانية فكانوا زيادة على أربعة آلاف مملوك ، فكان لهم يوم مشهود حتى رجَّت لهم القاهرة ، واستمرت الأطلاب تنسحب من إشراق الشمس إلى قريب الظهر ، وخرج مماليك الأمراء وهم باللبس الكامل من آلة السلاح فعدَّت هذه التجريدة من نوادر التجاريد . وقد طال الأمر بين السلطان وبين ابن عثمان في أمر الفتن .

وفي شهر جمادى الآخرة قويت الإشاعات بسفر السلطان بنفسه إلى حلب ، إذ نزل إلى الميدان وعرض الهجن وعيَّن جماعة من الخاصكية للسفر معه ، وأمر من بقي من العسكر بتجهيز أنفسهم وأن يكونوا على يقظة للسفر .

وفي شهر رجب وصل هجان من حلب ، وأخبر بأن العسكر قصد التوجه إلى بلاد ابن عثمان ، وقد أرسلوا ماماي الخاصكي رسولاً إلى ابن عثمان فلما أبطأ عليهم خبره ، زحف العسكر المصري على أطراف بلاد ابن عثمان ووصلوا إلى قيسارية ، وقتلوا بها ونهبوا عدة من ضياعها وأحرقوها ، ثم فعلوا مثل ذلك بعدة أماكن من بلاد ابن عثمان ، وانقسموا فرقتين : فرقة إلى ماوندة ، وفرقة مقيمة بكولك ينتظرون ما يكون من هذا الأمر . ثم حضر جان بلاط الغوري ، أحد مماليك السلطان ، وكان من الأمراء العشرات يومئذٍ ، وأخبر بأن العسكر في قلق زائد ، وأن العليق مفقود وأنهم قد عولوا على المجيء إلى مصر فما سر السلطان ذلك .

وفي شهر رمضان حضر هجان وأخبر بأن العسكر على حصار قلعة كوارة ، ومات في مدة المحاصرة قانصوه من فارس المعروف بقرا ، وهو من مماليك السلطان ، وكان من الأمراء العشرات ، ثم أخذت هذه القلعة فيما بعد وهدمت إلى الأرض .

وفي شهر ذي القعدة جاءت الأخبار بأخذ قلعة كوارة من يد عسكر ابن عثمان ، فسر السلطان بذلك ، ثم بعد مدة وردت عليه الأخبار بأن العسكر قلق ويطالب بالمجيء إلى مصر ، فتنكد السلطان وأرسل عدة مراسيم للأمراء بالإقامة فما سمعوا له شيئاً .

ثم جاءت الأخبار بأن أزبك أمير كبير قد دخل إلى الشام هو والأمراء والنواب والعسكر قاصدين الدخول إلى القاهرة من غير إذن ، وقد جاؤوا بنية وقوع فتنة وصرّحوا بذلك . ثم نودي من قبل السلطان بأن العسكر الذي قدم من التجريدة يصعد إلى القلعة ، فامتنع المماليك ولم يصعدوا إلى القلعة .

وفي الشهر المحرم سنة (٨٩٦ هـ) كان دخول أزبك أمير كبير ومن معه من الأمراء والعسكر ، ودخلوا إلى القاهرة في موكب حافل وكان لهم يوم مشهود . فلما طلعوا إلى القلعة خلع السلطان على أزبك أمير كبير وعلى بقية الأمراء ، ونزلوا إلى دورهم وهذه آخر تجاريد أزبك أمير كبير إلى البلاد الحلبية .

فرض الجباية

من الحوادث المهولة أن السلطان توجه في ربيع الأول إلى قبة يَشْبَك الدَوَادار التي في رأس دور الحسينية ، فجلس هناك وأرسل خلف القضاة الأربعة ، فحضر القاضي الشافعي زين الدين زكريا ، والقاضي الحنفي ناصر الدين الإخميمي ، والقاضي المالكي عبد الغني بن تقي ، والقاضي الحنبلي بدر الدين محمد السعدي ، فلما تكامل المجلس شرع السلطان في التكلم معهم ،

فذكر لهم « أن ابن عثمان ليس براجع عن محاربة عسكر مصر ، وأن أحوال البلاد الحلبية قد فسدت وآلت إلى الخراب ، وإن التجار منعوا ما كان يجلب إلى مصر من الأصناف ، وأن المماليك الجلبان يرومون مني نفقة ، وإن لم أنفق عليهم شيئاً نهبوا مصر والقاهرة وحرقوا البيوت ، ومتى رجع عسكر ابن عثمان إلى البلاد الحلبية لا يخرج العسكر من مصر حتى أنفق عليهم » .

ثم شرع يقسم بالله تعالى « أنه ما بقي في الخزائن شيء من المال لا كثير ولا قليل ، والقصد أن أفرض على الأوقاف والأملاك التي بمصر والقاهرة من أماكن وغيطان(٢٦٧) وحمامات وطواحين وأفران ومراكب وغير ذلك ، أجرة سنة كاملة أستعين بها على خروج التجريدة ، فسكت المجلس ساعة .

ثم قال القاضي الشافعي : « لعل الله يكفيكم مؤونة ذلك ، وقال القاضي المالكي إن أجرة سنة كاملة تثقل على الناس ولا يطيقون ذلك فإن كان لا بد من ذلك فلنفرض عليهم أجرة خمسة أشهر ، وقبل ذلك فرض عليهم أجرة شهرين ، فهذه سبعة أشهر وما يطيق الناس أكثر من ذلك » فتوقف السلطان .

ثم آل الأمر إلى ما قاله قاضي القضاة المالكي ، وانفض المجلس على ذلك . فلما بلغ الناس ما وقع اضطربت الأحوال وكثر القيل والقال في ذلك ، وأشيع عن السلطان أنه سيفرض على كل إنسان من ذكر وأنثى من كبير وصغير دينارين ذهب ، وتكلموا من هذا النمط بأشياء كثيرة .

ثم بعد أيام رسم السلطان لتغري بردي الاستادار بأن يكون متكلماً في جباية الأملاك من باب زويلة إلى دير الطين ، ورسم لابن الصابوني ناظر الخاص بأن يكون متكلماً في جباية الأملاك من باب زويلة إلى خارج الحسينية . فعند ذلك اضطربت الأحوال وتزايدت الأهوال ، وتوجهت الرسل الغلاظ الشداد ،

---

(٢٦٧) الغيطان : جمع غوطة وهي الأرض المزروعة زراعة كثيفة : ثمار خضار ...

ولم يراعوا الوداد ، وأكثر الناس صاروا رسلاً وطلبوا أعيان النـاس وانقطع الرجـاء باليـأس ، وصـار الإنسـان يخرج من داره ، فيرى أربعـة من الرسل في انتظـاره ، فيكون نهاره أغبر ، ويخرج في أذياله يتعثر ، فيقـدحوا فيـه الزنـاد ، ولا يرى لـه من اعتماد .

وفي شهر ربيع الآخر ثـار المماليـك الجلبـان على السلطـان فطلبوا منـه نفقـة بسبب هــذه النصرة التي وقعت لهم ، فلمــا رأى منهم عين الجــد أنفـق عليهم على العادة كما تقدم شرح ذلك .

الجباية من دمشق

وفي شهر ربيع الآخر أيضاً عيَّن السلطان قرقماس أمير آخور ثاني ليتوجـه إلى دمشق بسبب جبـايـة أملاك دمشق عن خمسـة أشهر كما وقع بمصر ، وعيَّن قـاصـداً أيضاً إلى ثغري الاسكندرية ودمياط ، وكانت هـذه المصيبـة عـامـة على النـاس ، حتى أخذ من أوقاف البيمارستان خمسة أشهر ، وانقطع معلوم الأيتام والضعفـاء في رواتبهم مدة خمسة أشهر ، وكذلك سائر أوقاف الجوامع والمـدارس والترب ، وقطع معلوم الصوفية والصدقات الجارية .

فلما توجه قرقماس المذكور إلى دمشق ، أظهر بها من المظالم أشياء كثيرة .

وقرقماس هذا هو الذي تولى نيابة حلب فيما بعد ، وقبض عليـه طومـان بـاي الدَوَادار لما خرج إلى الشام بسبب عصيـان قصروه نـائب الشـام ، فسجن قرقمـاس هذا بقلعة دمشق ثم عاد إلى مصر وقد تولى الأتابكية .

قاصد ابن عثمان والصلح

وفي شهر جمادى الآخرة حضر إلى الأبواب الشريفة قاصد من عنـد ابن عثمان صحبة ماماي الخاصكي الذي توجه قبل تاريخه إلى ابن عثمان ، وكان هذا القـاصـد

الـذي حضر من أَجَلّ قضـاة ابن عثمان وكان متوليـاً القضـاء بمـدينـة روسـة ، وهو شخص من أهل العلم يقال له علي حلبي ، فلما صعـد إلى القلعـة أكرمـه السلطـان وبالغ في تعظيمه جداً . وأحضر على يـديـه مفـاتيح القلاع التي كان ابن عثمان قـد استولى عليها ، فسلمها إلى السلطان وأشيع أمر الصلح فنزل القاصـد إلى مكان أُعِـدَّ له وهو في غاية الإكرام . ثم إن السلطـان أطلق اسكنـدر بن جيحـان الـذي كان أسر وسجن كما تقدم وأقام مدة طويلة ، فلما أطلقه السلطان أحسن إليه وكسـاه ، وكذلك أطلق الأسرى الذين كانوا مأسورين من عسكر ابن عثمان وكساهم وأحسن إليهم ، وتوجهوا إلى بلادهم صحبة القاصد لما سافر .

وبهذا تم أمر الصلح بين السلطان وبين ابن عثمان .

وفي شهر رجب خرج جان بلاط من يَشْبَك قاصداً من عند السلطان إلى ابن عثمان فظهر في تجمل زائد وموكب حـافل ، وجـان بـلاط هـذا هـو الـذي تـولى السلطنة فيما بعد بعشر سنين .

وفي ربيـع الأول سنـة ٨٩٧ هـ رجـع إلى دمشـق الأمير جـان بـلاط قـاصـد السلطان في الصلح إلى أبي يزيد ابن عثمان ، وقد أنعم عليه وعلى ستـة أنفـار معه بالخلع والمماليك والجواري والجمال والقماش الحرير والذهب وغير ذلك ، وأنـه راضٍ بما أراده السلطان منه ، وكانت غيبته نحو خمسة شهور ، وقد حصل للناس أمن في أوطانهم ، وتلقّاه أرباب الدولة على العادة . وقد أنعم عليه السلطان بتقـدمـة ألف بعد عودته .

انتهاء أعمال ابن عثمان

والظاهر أن ابن عثمان وجد له فريسة أسمن من الحكومة المصرية فقد أتاحت له الفرصة الاستيلاء على بلاد حسن بك الطويل (أوزون حسن) .

وفي شهر ربيع الآخر سنـة ٨٩٧ هـ جـاءت الأخبـار بـأن مملكـة حسن بـك الطويل في اضطراب وأن ابن عثمان قد أشرف على أخذها من يد أولاده . فلما بلغ السلطان ذلك قصد أن يخرج تجريـدة صحبـة حسين بن أُغرلو بن حسن الطويل الذي كان مقيماً بـالقـاهرة ثم آل الأمر إلى إهمـال خروج التجريـدة ومـات حسين فيا بعد لما حجَّ ودفن بالمدينة .

نصوص وإضافات على الرحلة

٤

تحسن العلاقات بين الدولتين المملوكية والعثمانية

- الهدوء والتقارب بين المماليك والعثمانيين .
- وفاة السلطان الأشرف قاتيباي .
- السلاطين الذين تولوا حتى قانصوه الغوري .
- العلاقات الحسنة بين المماليك والعثمانيين .
- اعتداءات الصفويين .

تحسن العلاقات بين الدولتين المملوكية والعثمانية

الهدوء والتقارب بين المماليك والعثمانيين

استمرت مدة الهدوء بين الدولتين قرابة ربع قرن (من ٨٩٧ هـ ـ ٩٢٢ هـ) اتسمت بقيام علاقات طيبة بينهما فكانت الوفود الرسمية (القصاد) تتبادل الزيارات بصورة مستمرة ، وكان هؤلاء القصاد يلقون الترحيب الدائم وحسن الاستقبال والحفاوة ، يحضرون و معهم الهدايا الثمينة ويعودون بهدايا أثمن .

إلا أن الأوضاع الداخلية في الدولة المملوكية كانت تسير من سيء إلى أسوأ ، ففي سنة ٩٠١ هـ توفي السلطان الأشرف قايتباي وكانت وفاته نقطة تحول خطير في تاريخ هذه الدولة ، ويمكن اعتبارها بداية النهاية ، فقد حكم الدولة من بعده خمسة سلاطين لم يطل حكم الأربعة الأوائل منهم خمس سنوات ، وكانت نهايتهم العزل والقتل ، واتسم حكمهم بالمنازعات واضطراب الأحوال الداخلية . وتلاهم السلطان قانصوه الغوري الذي حكم ست عشرة سنة حتى كانت معركة مرج دابق ، إلا أن أحوال الدولة الداخلية ـ وإن كانت المنازعات والاضطرابات قد توقفت ـ لم تشهد عهداً من قبله تزايدت فيه المظالم وسحقت فيه حقوق الناس وتضاعفت الضرائب وزيفت فيه النقود كما حدث في عهده ، وتزايدت الأخطار الخارجية أيضاً ، فقد توصل البرتغاليون إلى الهند وقطعوا تجارتها عن البلاد العربية وتأثر بذلك دخل الدولة ، وعندما حاول الغوري مجابهتهم بحرياً ، تحطم أسطوله ولقي الهزيمة ، وظهر خطر الصفويين في إيران وشنوا أكثر من غارة على الحدود الشمالية للبلاد .

وكان العثمانيون قد وصلوا إلى أوج قوتهم ، وفتحوا شبه جزيرة البلقان

وما إن اشتدت عليهم المقاومة الأوربية حتى وجدوا من الأنسب لهم الاتجاه نحو الشرق والجنوب إلى الدولتين الكبيرتين الصفوية والمملوكية .

وفي العرض التالي لمحة عن السلطان الأشرف قايتباي وعن خلفائه وذكر لأهم الحوادث التي حدثت في عهدهم .

١ ـ وفاة السلطان قايتباي

لما كان يوم الأحد السابع عشر من شهر ذي القعدة سنة إحدى وتسعمائة ، كانت وفاة السلطان الملك الأشرف قايتباي المحمودي الظاهري إلى رحمة الله تعالى بعد العصر ، ومات بالقلعة ، وأخرج صبيحة يوم الاثنين ثامن عشري ذي القعدة ، وتوفي وله من العمر نحو ست وثمانين سنة ، ومات وهو بعلة الدبيلة واعترته علة البطن أيضاً وامتنع عن الأكل مدة انقطاعه حتى مات .

وكانت مدة سلطنته بالديار المصرية والبلاد الشامية تسعاً وعشرين سنة وأربعة أشهر ووحداً وعشرين يوماً بما فيها مدة انقطاعه عند توعك جسده .

فإنه تسلطن يوم الاثنين سادس رجب سنة اثنتين وسبعين وثمانمائة وتوفي يوم الأحد سابع عشري ذي القعدة سنة إحدى وتسعمائة ، وهذه المدة لم تتفق لأحد من الملوك غيره قبله ، وعاش عمره كله وهو في عز وشهامة من حين كان خاصكياً إلى أن بقي سلطاناً وما نفي قط ولا سجن ولا تقيد .

وكانت عليه سكينة ووقار ، مهيب الشكل في العيون ، جميل الهيئة ، مبجلاً في موكبه ، كفؤاً للسلطنة ، وافر العقل ، سديد الرأي ، عارفاً بأحوال المملكة ، يضع الأشياء في محلها ، ولم يكن عجولاً في الأمور ، بطيء العزل لأرباب الوظائف ، يتروى في الأمور أياماً قبل تقريرها . وكان لا يخرج إقطاع أحد من الجند إلا بحكم وفاته ، ولا من أبناء الناس المقطعين إلا بحكم وفاته ، ويرسل من يكشف عليه وهو ميت حتى يصدق لموته .

وكانت صفته طويل القامة ، عربي الوجه ، مصفر اللون ، نحيف الجسد ، شائب اللحية .

تولى الملك وله من العمر أربع وخمسون سنة ، وكان موصوفاً بالشجاعة عارفاً بأنواع الفروسية ، ولا سيا في فن لعب الرمح ، علاّمة في فنه ، لكنه كان محباً لجمع الأموال ، ناظراً لما في أيدي الناس ، ولولا ذلك لكان من خيار ملوك الجراكسة على الإطلاق .

تحرك عليه في أيام سلطنته شاه سوار ، وحسن الطويل ، وابن عثمان ، وغير ذلك من ملوك الشرق . وجرّد عليهم تجاريد كثيرة وهو ثابت على سرير ملكه ، لم يتزحزح ، حتى قيل : ضبط ما صرفه على نفقات التجاريد التي جردها في أيام سلطنته إلى أن مات ، فكانت نحو سبعة آلاف ألف دينار وخمسة وستين ألف دينار ،خارجاً عما كان ينفقه عند عودتهم من التجاريد ، وهذا من العجائب التي لم يسمع بمثلها .

وكان مغرماً بشراء المماليك حتى قيل لولا الطواعين التي وقعت في أيامه لكان تكامل عنده ثمانية آلاف مملوك .

وكان تقياً في نفسه لم يشرب قط خمراً ، ولا كان يستعمل شيئاً من الأشياء المخدرة ، وكان له اشتغال بالعلم ، كثير المطالعة في الكتب ، وله أذكار وأوراد جليلة تتلى في الجوامع . وكان له اعتقاد في الفقراء ، ويعظم العلماء ، عارفاً بمقام الناس ، ينزل كل أحد منزلته ، وكان تابعاً لطريقة الصوفية في التقشف ، وكان لا يوصف بالكرم الزائد ، ولا بالبخل المفرط ، وكان له بر ومعروف ، ووَقَفَ عدة جهات على وجوه البر والصدقة .

وكانت محاسنه أكثر من مساوئه ، ولم يخلف من الأولاد سوى ولده محمد الذي تسلطن من بعده ، ولم يتزوج مدة عمره سوى فاطمة بنت العلائي علي بن خاص بك ، واستمرت معه إلى أن مات .

وأما ما أنشأه الأشرف قايتباي في أيام دولته من البنيان الفاخر فأشياء كثيرة ، منها أنه جدد عمارة المسجد الشريف النبوي على صاحبه أفضل الصلاة والسلام لما احترق ، وأنشأ هناك مدرسة مطلة على الحرم النبوي على صاحبه أفضل الصلاة والسلام .

وأنشأ مدرسة بمكة المشرفة عند باب السلام وعدة ربوع وأماكن بمكة المشرفة ، وأنشأ مدرسة ببيت المقدس ، ومدرسة وبيوتاً ودكاكين بدمشق ، ومدرسة بغزة ، ومدرسة بثغر دمياط ، ومدرسة بثغر الاسكندرية ، والبرج العظيم[٢٦٨] الذي أنشأه مكان الفنار القديم والبرج الذي بثغر رشيد .

وأما ما أنشأه من البنيان في الديار المصرية ، فالجامع الذي بالصحراء مكان تربته ، وجامع بالروضة ، وجامع برأس الكبش ، وجامع بباب الخرق عند الشيخ سلطان شاه والسبيل ، والمكتب الذي بقرب تحت الربع ، وجامع لطيف خارج باب القرافة ، وجدد عمارة قبة الإمام الشافعي رضي الله عنه ورحمه ، وأنشأ زاوية بالمرج والزيات ، والمدرسة بالخانقاه ، وغير ذلك من الجوامع والمدارس في أماكن شتى بالقاهرة وضواحيها . وأنشأ السبيل برأس سويقة عبد المنعم ، وأنشأ بالقاهرة عدة زوايا و سبل وصهاريج وغير ذلك ، وعدة ربوع وحوانيت في مواضع متفرقة ، وجعلها وقفاً على الدشيشة[٢٦٩] التي كان قررها بالمدينة الشريفة على صاحبها أفضل الصلاة والسلام .

وأما ما أنشأه بالقلعة فالمقعد داخل الحوش ، والمبيتان اللذان حوله ، والحواصل بجوار قاعة البحرة ، وجدد عمارة الإيوان الناصري بالقلعة ، وأنشأ مواضع كثيرة بالقلعة .

---

(٢٦٨) راجع كتاب في رحاب دمشق ، برج طرابلس ص ٢٣٣ تأخذ فكرة عن البروج الإسلامية في السواحل .

(٢٦٩) الدشيشة : حساء بهريس القمح واللحم .

وجدد عمارة قناطر أبي المنجا ، والقناطر التي بشبرمنت بالجيزة ، وأنشأ هناك رصيفاً حصل به غاية النفع في أيام النيل للمسافرين ، وجدد عمارة قنطرة باب البحر ، وجدد عمارة الميدان الكبير بجوار البركة الناصرية ، وصرف عليها جملة مال .

وجدد مقام سيدي أحمد البدوي وبناه بناء حافلاً ووسعه ، وجدد بناء زاوية الشيخ عماد الدين رحمه الله ، وجدد عمارة باب القرافة ، وأنشأ هناك الربوع ، وأنشأ مقعداً ومبيتاً وجنينة بدار البقاء تحت القلعة .

وجدد عمارة جامع الرحمة بغيط جاني بك نائب جدة ، وأنشأ عدة ربوع بالخشابين والبندقانيين ، وبالجامع الأزهر وغير ذلك ، وله عدة أماكن أنشأها وحصل بها النفع العام للمسلمين .

وأما ما أبطله في أيام سلطنته من شعار المملكة ، فخدمة القصر بالشاش والقماش ، وقد قررته الملوك السالفة لإقامة الحرمة ونظام المملكة ، وأبطل الرمايات التي تُعمل ببركة الحبش ، ودخول الملوك إلى القاهرة والعسكر أمامها بالشاش والقماش ليكون يوماً مشهوداً .

وأبطل لبس الصوف بالمطعّم ، وكان الملك يشق من القاهرة وهو لابس صوفاً هو والأمراء ويكون لهم يوم مشهود .

وأبطل المركب المسماة بالذهبية وكانت من شعار المملكة ولاسيا في يوم الوفاء بالنيل وكانت الملوك تتوجه فيها إلى المقياس وكان بها ستون مقذافاً .

وأبطل المركب(٢٧٠) المسماة بالدرمونة وكانت تحمل مغل الحرمين الشريفين وكانت غريبة الهيئة في شكلها .

---

(٢٧٠) المركب : ما يشبه العرض العسكري التجميلي .

وأبطل دوران المحمل[٢٧١] الرجبي في أيام سلطنته وما كان يعمل فيه .

وأبطل المسايرات التي كانت تعمل في تلك الأيام وكان ينفق في مدة دوران المحمل مالا ينحصر .

وأبطل في أيام سلطنته أشياء كثيرة من شعار المملكة لم نذكرها خوف الإطالة .

وكان آخر من مشى من السلاطين على النظام القديم مما ذكرناه الظاهر خوشْقَدم رحمه الله تعالى .

وأما ما عدله من المساوئ فإنه لما تولى السلطنة ، ندب يَشْبَك الدَوَادار لما تولى الوزارة ، فقطع لحوم[٢٧٢] جماعة من الناس كانت مرتبة لأيتام ونساء وأرامل ، وكانت تباع وتشترى من الناس من الديوان إلى آخر دولة الظاهر خوشْقدم .

ثم فعل مثل ذلك بالجوامك وقطع عدة جوامك لجماعة من أولاد الناس ، والذي أبقاه أخذ منه مائة دينار ممن له جامكية ألفي درهم ، وأخذ ممن له جامكية ألف درهم خمسين ديناراً ، وذلك بسبب بدل تجريدة سوار ممن لم يسافر للتجريدة .

وأخذ من أجرة الأملاك والأوقاف من الجوامع والترب بالقاهرة وغيرها أجرة سبعة أشهر ، وحصل بذلك للناس الضرر الشامل . وصادر اليهود والنصارى في أيامه مرتين . وصادر جماعة من أعيان التجار ومن تجار الأرياف . ورمى على البلاد التي بالشرقية شيئاً يقول له الخمس بسبب خيالة تخرج مع التجريدة إلى ابن عثمان ، وفعل مثل ذلك بعربان جبل نابلس ثم قطع هذا الخمس من خراج المقطعين .

ومنها أنه كان ولّى جماعة من مماليكه عوضاً عن جماعة العربان ، فجاروا أيضاً على الفلاحين وأخذوا منهم غير العادة أضعافاً . وكذلك الكشاف كان يقرر

(٢٧١) المحمل الرجبي : محمل يدار به في شهر رجب من قبيل العرض الشعبي في الأحياء الكبيرة في البلد .

(٢٧٢) المقصود : اللحوم التي كانت تمنح للأيتام صدقة .

عليهم الأموال فيجورون أيضاً على البلاد ويأخذون المال أمثالاً ، فمن يومئذ تلاشى أمر البلاد وانحط خراج المقطعين جداً .

ومنها أنه أحدث مكساً على بيع الغلال ، وجعل على كل أردب نصف فضة خارجاً عن ثمنه لمن يشتري أو يبيع ، وقد تزايد الأمر بعده في ذلك حتى صار على كل أردب نصفان .

وهو أول من أحدث تفرقة الجامكية بحضرته ، وضيق على الناس ، ولم يفعل ذلك أحد من الملوك وكان مقدم المماليك وأحد رؤوس النوب يتولى تفرقة الجامكية في الإيوان ، ولم يشعر السلطان بذلك ، فبطل ذلك واستمرت من يومئذ تنفق بحضرة السلطان .

ومنها أنه فعل بجماعة من المباشرين وغيرهم الأفعال الشنيعة ، منها شنق القاضي[٢٧٤] ابن المقسي ، وتوسيط مجد الدين بن البقري الاستادار ، وغير ذلك مما تقدم ذكره ، وقطع يد إبراهيم بن فريعين صيرفيّ الجامكية وكان في سن الشيخوخة ، وعاش بعد ذلك مدة طويلة وهو أقطع ، وقد رتب له السلطان ما يكفيه إلى أن مات .

ومن محاسن الأشرف قايتباي أنه كان في شدة غضبه يستحيل في الحال راضياً ويزول ما كان عنده من الحدة وهذه من أجمل الخصال .

وبالجملة كانت محاسنه أكثر من مساوئه وكان من خيار ملوك الترك بالنسبة إلى من جاء بعده من السلاطين ولو لم يكن عنده بعض طمع لكان أجلَّ ملوك الشراكسة وكان من خيارهم .

---

(٢٧٤) كان لفظ القاضي يطلق على بعض كبار الموظفين من غير القضاة الشرعيين .

٢ ـ الملك الناصر محمد بن قايتباي

تولى الملك الناصر محمد بن السلطان الملك الأشرف قايتباي بعد أبيه في ذي القعدة سنة ٩٠١ هـ وله من العمر خمسة عشر عاماً ، وكان فتى غراً طائشاً ، وصفه ابن إياس بأنه جاهل عسوف ، جريء اليد ، سفاك للدماء ، سيء التدبير ، كثير العشرة للأوباش من أطراف الناس ، وقع منه أمور شنيعة في مدة سلطنته ، وسار في المملكة أقبح سيرة ، ولم يقع من أبناء الملوك من السواقط ما وقع منه في سائر أفعاله حتى جاوز في ذلك الحد ، وليس له من المحاسن إلا القليل ، وكانت مدة سلطنته سنتين وثلاثة أشهر وتسعة عشر يوماً . وكانت أيامه كلها فتناً وشروراً وحروباً قائمة . قتل في ربيع الأول سنة ٩٠٤ هـ عندما تآمر عليه جماعة من الأمراء قرروا مع الأمير قانصوه خاله أنه إذا قتل الناصر يكون هو السلطان .

٣ ـ الملك الظاهر قانصوه من قانصوه الأشرفي

تولى بعد الملك الناصر سنة ٩٠٤ هـ ، واستمر بالحكم سنة وثمانية أشهر وثلاثة عشر يوماً ، وكانت أيامه أصلح من أيام الملك الناصر ، إذ كان هيناً لين الجانب قليل الأذى كثير البر والمعروف ، إلا أنه كان مسلوب الاختيار من الأمراء ، وقد اختفى بعد ثورة بعض الأمراء عليه في ذي القعدة سنة ٩٠٥ هـ ، جرى في عهده تبادل القصاد مع ابن عثمان ، ولم يخل عهده من تمرد بعض النواب والأمراء ، فقد تمرد قصروه نائب الشام في رمضان سنة ٩٠٥ هـ وخرج عن الطاعة . وتواطأ الدَوَادار طومان باي مع قصروه وتآمر مع بعض الأمراء على الملك الظاهر ليتسلطن بدلاً منه وتم له عزل الظاهر .

٤ ـ الملك الأشرف جان بلاط من يَشْبَك الأشرفي

وفي يوم الاثنين ثاني ذي الحجة ، صعد الأمراء العسكر إلى باب السلسلة

وتشاوروا فيمن يلي السلطنة ، وكان قصد الأمير طومـان بـاي أن يتسلطن ، وقـد ظهر ذلك فيما بعد ، ولكن كان يتقدمه الأتـابكي جـان بلاط ، وتـاني بـك الجمـالي أمير السلاح ، فلم يجسر أن يتسلطن ولم يكن مرضياً عنه من العسكر ، فمـا وسعـه إلا أن تعصب للأتابكي جـان بلاط وسلطنـه وتسمى جـان بلاط بـالملـك الأشرف واستمر في الحكم حتى جمـادى الآخرة ٩٠٦ هـ وكان قطيـع القلب ، عسـوفـاً ظـالمـاً حصل منه للناس غاية الضرر من المصادرات وأخذ الأموال ، ولو أقام في السلطنة لحصل للناس منه غاية المشقة من الظلم والأذى فعجل الله به .

وقد خنق وهو مسجون في البرج بالإسكندرية في شعبان ٩٠٦ هـ .

٥ ـ الملك العادل أبو النصر طومان باي الأشرفي

استمر نائب الشام قصروه بعصيانـه فسـافر إليـه طومـان بـاي وكان قـد تولى منصب أمير سـلاح دواداراً كبيراً ووزيراً واستـاداراً وكاشفـاً للكشـاف ومـدبراً للمملكة ، وتسلطن في دمشق وعاد وهو سلطان ، فدخل القاهرة وصحبته قصروه وبقية النواب ، وحاصر القلعة وألقى القبض على جان بلاط ، وتمت لـه السلطنـة في القاهرة في جمادى الآخرة سنة ٩٠٦ هـ وكان سفاكاً للدماء ، عسوفـاً ، ظـالمـاً ، وكانت سلطنته كلها شروراً وفتنـاً مع قصرهـا ، إذ لم تـدم أكثر من مئـة يوم غـدر بصديقه قانصوه فقتله وكان قانصوه سبب نصرته في الشام والقاهرة .

وقد عزم على الإيقاع بعدد من الأمراء يوم العيد وهم بـالجـامع ، فـانكشفت المؤامرة وهرب واختفى إلى أن قبض عليه وقطع رأسه .

٦ ـ سلطنة الملك الأشرف أبو النصر قـانصوه من بيبردي الغوري الأشرفي وصفاته .

ولي السلطنـة يوم الأثنين الأول من شوال سنـة ٩٠٦ هـ وهو كاره لهـا ممتنـع عنها ، ولقب بـالملـك الأشرف ، ولـه من العمر نحو ستين سنـة ، ولعل وصف ابن

إياس له ولفترة حكمه وأعماله توضح لنا بجلاء وضع الدولة والشعوب المحكومة في عهده .

« كانت مدة سلطنته بالديار المصرية والبلاد الشامية خمس عشرة سنة وتسعة أشهر وخمسة وعشرين يوماً ، فكانت هذه المدة على الناس كل يوم منها بألف سنة مما تعدون ، وكانت صفته طويل القامة ، غليظ الجسد ، ذا كرش كبير ، أبيض اللون ، مدور الوجه ، مشحم العينين ، جهوري الصوت ، مستدير اللحية ، ولم يظهر بلحيته الشيب إلا قليلاً .

وكان ملكاً مهاباً جليلاً مبجلاً في المواكب ملئ العيون في المنظر ولولا ظلمه وكثرة مصادراته للرعية وحبه لجمع الأموال لكان خيار ملوك الجراكسة بل وخيار ملوك مصر قاطبة . وكان يوكب يوم الاثنين والخميس بالحوش السلطاني ، ويوم السبت والثلاثاء بالميدان ، فينزل من السبع حدرات وقدامه طوالتين خيل بسروج ذهب وكنابيش وميـاتر زركش . وكان يكثر في الأسفار من ركوب الحجورة بالسروج البداوي والركب العراض ويشد في وسطه حياصة[٢٧٥] ذهب عوضاً عن الشد البعلبكي ويلبس في أصابعه الخواتم الياقوت الأحمر والفيروز والزمرد والماس وعين الهر .

وكان مولعاً بشم الرائحة الطيبة من المسك والعود والبخور ، تَرِفاً في مأكله ومشربه وملبسه ، يحب رؤية الأزهار والفواكه ، ويُميل إليه أبناء العجم ، وربما كان يَميل إلى مذهب النسيمية من ميله إلى معاشرة الأعاجم ، وكان مولعاً بغرس الأشجار ، وحب الرياضات ، وسماع الطيور المغردة ، ونشق الأزاهر العطرة والبخور ، وكان يستعمل الطاسات الذهب يشرب فيها الماء ، وكان نهماً في الأكل ، يغوى طيور السموع ، وكان يعرف بقانصوه من بيبردي الغوري .

---

(٢٧٥) الحياصة : الحزام الذي يوضع في وسط الجسم .

واستمر يرتع في ملك مصر على ما ذكرناه من التنعم والرفاهية وهو نافذ الكلمة وافر الحرمة ، والأمراء والنواب والعسكر في قبضة يده ، لم يختلف عليه اثنان إلى أن وقعت الوحشة بينه وبين سليم شاه بن عثمان ملك الروم فخرج إليه ، وجرت له الكاينة العظمى التي لم تقع قط لملك من ملوك مصر ولا غيرها من الملوك ، وكان ذلك في الكتاب مسطوراً ، وقد قلت في معنى ذلك :

طالع تواريخ الملوك فهل ترى ... سُمعت لهم بحوادث مما جرى
لا زالت الأيام يبدو فعلُها ... بعجائب وغرائب بين الورى
لكن هذا حادث ما مثله ... سبقت لسلطان ولا متأمرا
والأشرف الغوري كان مليكنا ... لكنه قد جار فينا وافترى
والموت أوجب هزمه مع جيشه ... قد كان ذلك في الكتاب مسطرا
أعماله ردت عليه بما جنى ... والدهر جازاه بأمر قدّرا

وكان للغوري محاسن ومساوئ ولكن مساوئه أكثر من محاسنه .

فأما ما عد من محاسنه : فإنه كان رضي الخلق ، يملك نفسه عند الغضب ، وليس له بادرة بحدة عند قوة خلقه ، ومنها أنه كان له الاعتقاد الزائد في الصالحين والفقراء ، ومنها أنه كان يُصَرِّف مقادير الناس على قدر طبقاتهم ، ومنها أنه كان ماسك اللسان عن السب للناس في شدة غضبه ، ومنها أنه كان يفهم الشعر ويحب سماع الآلات والغناء وله نظم على اللغة التركية ، وكان مغرماً بقراءة التواريخ والسيَّر ودواوين الأشعار ، وكان قريباً من الناس يحب المزح والمجون في مجلسه غير كثيف الطبع في ذاته ، وكان عنده لين جانب ورياضه بخلاف طبع الأتراك ، ولم يكن عنده شمم ولا تكبر نفس ولا رقاعة زائدة بخلاف عادة الملوك في أفعالهم .

وأما ما عدّ من مساوئه فإنها كثيرة لا تحصى :

فقد أحدث في أيام دولته من أنواع المظالم مالم يحدث في سائر الدولة من قبل ، منها أن معاملته في الذهب والفضة والفلوس الجدد أنحس المعاملات ، جميعها زغل ونحاس وغش لا يحل صرفها ولا يجوز في ملة من الملل .

ومنها ما قرره على الحسبة[٢٧٦] في كل شهر ، وهو مبلغ ألفين وسبعمائة دينار ، فكانت السوقة تبيع البضائع بما تختاره من الأثمان ، ولا يقدر أحد يكلمهم فيقولون : علينا مال للسلطان ، فكانت سائر البضائع في أيامه غالية بسبب ذلك .

وقرر على دار الضرب مالاً له صورة في كل شهر ، فكانوا يصنعون في الذهب والفضة النحاس والرصاص جهاراً ، فكان الأشرفي الذهب إذا صفوه يظهر فيه ذهب يساوي اثنى عشر نصفاً ، وقد سلم السلطان دار الضرب إلى شخص يسمى جمال الدين ، فلعب في أموال المسلمين ، وأتلف المعاملة وسبك ذهب السلاطين المتقدمة حتى صار لا يلوح لأحد من الناس منهم لا دينار ولا درهم ، فلما شنق جمال الدين قرر في دار الضرب المعلم يعقوب اليهودي ، فمشى على طريقة جمال الدين ، وقد استباح أموال المسلمين ، فكان النصف فضة ينكشف في ليلته ويصير من جملة الفلوس الحمر ، فاستمر الغش في معاملته في مدة دولته إلى أن مات ، وقد ورد في الحديث الشريف من غشنا فليس منا .

ومن مساوئه أنه كان سجن الريس كمال الدين بن شمس المزين بالمقشرة وأقام بها أياماً وكان من المقربين عنده .

ومن مساوئه أنه كان يضع يده على أموال التركات الأهلية ويأخذ مال الأيتام ظلماً ولو كان للميت أولاد ذكور وإناث فيمنعهم من ميراثهم ويخالف أمر الشرع الشريف .

---

(٢٧٦) الحسبة تعادل في عهدنا وظيفة البلديات وتشمل مراقبة النظافة والأسعار والصحة والبيع والشراء .

ومنها أنه كان يولي الكشاف ومشايخ العربان على البلاد ، ويقرر عليهم الأموال الجزيلة فتتفرد الكشاف ومشايخ العربان على بلاد المقطعين والأوقاف ، فيأخذ كل منهم المثل أمثال ، فضعف أمر الجند من يومئذ وتلاشى حال البلاد .

وكذلك كان يولي النواب على أعمال جهات البلاد الشامية والحلبية ويقرر عليهم الأموال الجزيلة في كل سنة بقدر معلوم ، فيأخذونه من الرعية بالظلم والعسف ، فكان كل واحد منهم يتمنى الرحيل من بلاده إلى غيرها من عظم الظلم الذي يصيبهم من النواب ، ولا سيا ما حصل لعربان جبل نابلس بسبب المال الذي أفرده عليهم لأجل المشاة عند خروج التجريدة ، فما حصل على أهل البلاد الشامية بسبب ذلك خير .

وكان حسين نائب جدة يأخذ العشر من تجار الهند المثل عشرة أمثال ، فامتنع التجار من دخول بندر[٢٧٧] جدة وآل أمره إلى الخراب ، وعز وجود الشاشات[٢٧٨] من مصر والأرز والانطاع وخَرُبَ البندر ، وكذلك بندر الاسكندرية وبندر دمياط ، فامتنع تجار الفرنج من الدخول إلى تلك البنادر من كثرة الظلم ، وعز وجود الأصناف التي كانت تجلب من بلاد الفرنج .

وكان كل أحد من الأرازل يتقرب إلى خاطر السلطان بنوع من أنواع المظالم ، فقرر على بيع الغلال قدراً معلوماً يؤخذ على كل أردب ، وهي ثلاثة أنصاف من البائع والشاري ، وكذلك على البطيخ والرمان ، حتى صرح على بيع الملح .

وجدد في أيامه عدة مكوس من هذا النمط ، ولم يفته من أعيان التجار أحد حتى صادره وأخذ أمواله ، ولا سيا ما جرى على الشيرازي والحلبي التاجر وغيره من التجار .

---

(٢٧٧) البندر : الميناء .

(٢٧٨) الشاشات : جمع شاشة وهي ما يلف على الرأس من قماش .

وصادر حتى أمير المؤمنين المستمسك بالله يعقوب وأخذ منه مـالاً لـه صورة ، ودخل في جملة ديون حتى أورد ما قرر عليه .

وأما من مات تحت عقوبته بسبب المال : منهم القاضي بدر الـدين بن مزهر كاتب السر ، ومنهم شمس الدين بن عوض ، ومعين الدين بن شمس ، وعلم الدين كاتب الخزانة ، وغير ذلك جماعة كثيرة من المباشرين والعمال ، مـاتوا في سجنه بسبب المال والمصادرات .

ومن أفعاله الشنيعة ما فعلـه مع أولاد النـاس من خروج أقـاطيعهم ورزقهم من غير سبب وأعطى ذلك إلى مماليكه الجلبان .

ومنها قطع جوامك الأيتام من الرجال والنساء والصغار ، فحصل لهم الضرر الشامل بسبب ذلك .

ومنها أنه فك رخام قـاعـة نـاظر الخـاص يوسف التي تسمى نصف الـدنيـا ، فوضع ذلك الرخام في قاعة البيسرية التي بالقلعة .

ومنها أنه قطع المعتدّات(٢٧٩) التي كانت تسامح بهـا النـاس من الـديون المفرد من تقادم السنين ، وجدد أخذ الحمايات(٢٨٠) من المقطعين من قبل أن يزيـد النيل وتزرع الأراضي ، فكان المقطعون يقاسون من البهدلة مالا خير فيه .

وقـد تـزايـد شحـه حتى صـار يحـاسب السـواقين الـذين في سـواقي القلعـة ، والخولة(٢٨١) الذين في سواقي الميدان بجلـة روث الأبقـار ومـا يتحصل من ذلـك في كل يوم ، وقرر عليهم بيعها بمبلغ يردونه للذخيرة .

وكان أرباب الوظائف من المباشرين والعمال معه في غـايـة الضنـك لا يغفل

---

(٢٧٩) المعتدات : ما جرت عليه العادة .

(٢٨٠) الحمايات : ما يؤخذ من المال مقابل الحماية .

(٢٨١) الخولة : القائمون على خدمة الخيول .

عنهم من المصادرات ساعة واحدة ، وصادر حتى المغاني النساء من الرؤساء .

وكان من حين توفي الأمير خايربك الخازندار يباشر أمر ضبط الخزانة بنفسه ما يدخل إليها وما يخرج منها ، ويعرضون عليه الأمور في ذلك جميعه من الوصولات بما يصرف من الخزائن في كل يوم . فكانت هذه الأموال العظيمة التي تدخل إليه يصرفها في عمائر ليس بها نفع للمسلمين ، ويزخرف الحيطان والسقوف بالذهب ، وهذا عين الإسراف لبيت مال المسلمين .

وكان يهرب من المحاكات كما يهرب الصغير من الكتّاب ، وما كانت له محاكمة تخرج على وجه مرض بل على أمور مستفجة .

وكان يتغافل عن أمور القتلى ، ويدفع الأخصام إلى الشرع ، ويضيع حقوق الناس عليهم ، وكان يكسل عن علامة المراسيم فلا يُعلِّم على المراسيم إلا قليلا ، فيوقف أشغال الناس بسبب ذلك ، حتى كانت تشترى العلامة(٢٨٢) العتيقة بأشرفي حتى تلصق على المرسوم لأجل قضاء الحوايج . (ابن إياس ٥ / ٩٢) .

ولو شرحنا مساوئه كلها لطال الشرح في ذلك . ووصفه ابن إياس أيضاً بقوله : إنه كان أخس خلق الله وأبخلهم على الإطلاق .

ونضيف إلى ذلك أن الوظائف لم تكن تمنح إلا مقابل الرشوة ففي حوادث ذي القعدة سنة ٩١٩ هـ يذكر ابن إياس في معرض حديثه عن تعيين أربعة قضاة : « فعَدّوا ذلك من النوادر الغريبة لا سيا بولاية هؤلاء الأربعة في يوم واحد ، وأعجب من هذا أن السلطان لم يأخذ من هؤلاء القضاة الذين تولوا ولا الدرهم الفرد ، وقد فاته في ولاية هؤلاء القضاة الأربعة نحو اثني عشر ألف دينار ، فعد ذلك من النوادر الغريبة » . ولم تكن هذه المساوئ مقصورة على القاهرة ، بل كانت تتكرر بشكل أو بآخر على يد نوابه في سائر أنحاء المملكة .

---

(٢٨٢) العلامة : ما يقابل في عصرنا الطابع الذي يلصق على المعاملات الرسمية .

هذه صورة الأوضاع الداخلية للدولة المملوكية ، وغني عن الشرح أن أعمال وصفات هؤلاء السلاطين لا يمكن أن تساعد على ازدهار الدولة وتزايد قوتها ، بل أدت إلى تدهور أحوال البلاد وتسارع ضعفها وانحدارها .

أما العلاقات الخارجية فنميز فيها ثلاث سمات :

١ ـ قيام علاقات ود وصداقة بين الدولة المملوكية والدولة العثمانية ، وبخاصة خلال حكم بايزيد الثاني (أبو يزيد) ، وقد تفاوضت الدولتان لتقفا معاً أمام خطر الدولة الصفوية في إيران ، وكثر قدوم الوفود العثمانية ـ القصاد ـ إلى القاهرة وكانت تجري لهم الاحتفالات العسكرية وتقام ألعاب الفروسية بغية إظهار قوة الدولة وعظمتها .

واستمرت هذه العلاقات حتى وفاة بايزيد الثاني سنة ٩١٨ هـ حين تولى ابنه الأصغر السلطان سليم ، فسار على سياسة التظاهر بالصداقة والود ، بينما كان يخفي أطماعه في أملاك الدولة المملوكية ، ويهيء نفسه لهذا الأمر ، بعد أن اطلع بشكل جلي على أحوال البلاد عن طريق الهاربين من الغوري مما سيرد ذكره .

٢ ـ ظهور خطر الدولة الصفوية والتي هاجمت قواتها الأراضي الواقعة على الحدود الشمالية لبلاد الشام ، إلا أن نواب السلطان الغوري استطاعوا رد الصفويين .

٣ ـ تزايد الخطر البرتغالي في البحر الأحمر والمحيط الهندي ، وفقدان الدولة لنفوذها في هذين البحرين .

السلام والعلاقات الحسنة بين الدولتين :

ساد السلام وحسن الجوار بين الدولتين العثمانية والمملوكية بين سنتي ٩٠٦ هـ و ٩٢٠ هـ . تعرضت خلالها حدود الدولة المملوكية لاعتداءات الصفويين .

وفيما يلي تفصيل لهذه الأحداث سنة فسنة :

فعلى أثر تولي السلطان قانصوه الغوري سنة ٩٠٦ هـ ، فرَّ دولت باي نائب الشام ـ وكان قريباً للملك العادل طومان باي ، وقد بلغه ما حل بالملك العادل ، فخشي على نفسه ـ إلى بلاد ابن عثمان ملك الروم ، ويبدو أنه حرضه على غزو بلاد السلطان فلم يصغ إليه ، ثم اتصل بعلي دولات الذي أرسل ولده فشفع له عند السلطان وحضر بالأمان في رجب سنة ٩١١ هـ .

وفي ذي القعدة من سنة ٩٠٦ هـ ، عاد قانصوه الخازندار ، وكان الظاهر قانصوه خال الناصر أرسله قاصداً إلى ابن عثمان ملك الروم .

وفي جمادى الأولى سنة ٩٠٨ هـ حضر إلى القاهرة قاصد ابن عثمان ملك الروم ، وصحبته تقدمة حافلة إلى السلطان ، فأوكب السلطان في ذلك اليوم موكباً عظيماً بالحوش وكان يوماً مشهوداً .

الاحتفال بقاصد ابن عثمان :

وفي جمادى الآخرة عزم السلطان قاصد ابن عثمان في الميدان الواقع تحت القلعة ، وأحضر في ذلك اليوم عدة مماليك يرمون بالنشاب على الخيل ، ونصب لهم هناك القبق[٢٨٣] يرمون عليه ، وأحرق النفط بالنهار أمام القصاد وكان يوماً مشهوداً . وذلك محاولة منه لإظهار براعة جنوده بالقتال .

وفي الشهر المحرم سنة ٩٠٩ هـ ، خرج الأمير تاني بك الخازندار الذي تعين قاصداً إلى ابن عثمان ملك الروم ، فخرج وصحبته هدية حافلة إلى ابن عثمان . وعاد في ذي القعدة من نفس السنة بعد غيبة استغرقت نحو عشرة أشهر .

وفي ذي الحجة سنة ٩١١ هـ ، حضر شخص من أولاد علي دولات ـ شقيق

(٢٨٣) القبق : هو الهدف المستعمل في ألعاب الرماية ويصنع من الذهب والفضة في الاحتفالات .

سوار أمير التركمان ـ وصحبته تقدمة حافلة للسلطان ، فأكرمه وخلع عليه وسافر في صفر سنة ٩١٢ هـ بعد أن حمّله السلطان تقدمة حافلة إلى علي دولات .

وفي ذي القعدة سنة ٩١١ هـ ، حضر قاصد من عند ابن عثمان ملك الروم ، فأكرمه السلطان وأحسن إليه .

اعتداءات الصفويين :

وفي ربيع الآخر سنة ٩١٣ هـ ، جاءت الأخبار من عند نائب حلب بأن إسماعيل شاه بن حيدر الصوفي(٢٨٤) قد تحرك على بلاد السلطان ، ووصل أوائل عسكره إلى ملطية ، وحكوا عنه أموراً شنيعة في أفعاله ، فلما بلغ السلطان ذلك تنكد للغاية ، وجمع الأمراء وضربوا مشورة في أمر الصوفي ، فأشار الأمراء على السلطان أن يرسل تجريدة ، فنادى للعسكر بالعرض فطلع العسكر قاطبة إلى القلعة فعرضهم وكان قاصد ابن عثمان حاضراً .

وفي جمادى الأولى من نفس السنة ، جاءت الأخبار بأن عساكر الصوفي عدت من الفرات ، ووصل جاليشهم(٢٨٥) إلى أطراف بلاد السلطان ، وأن علي دولات جمع التركمان وخرج إليهم وتحارب معهم .

---

(٢٨٤) إسماعيل الصوفي : هو المؤسس الحقيقي للدولة الصفوية في إيران ، قضى على دولة آق قيونلو التركمانية ـ الغنم الأبيض ـ في معركة شرور سنة ٩٠٧ هـ ، واتخذ تبريز عاصمة له ، واستولى على كامل إيران وقضى على الدول الصغيرة المتفرقة فيها ، وتوسع شرقاً حتى هرات في أفغانستان ، وامتدت دولته غرباً حتى الفرات ، وكان المذهب الرسمي لدولته المذهب الشيعي ، وقد نسب ستانلي بول الصفويين في كتابه الدول الإسلامية (٥٦٩/٢) إلى العرب وذكر أنهم ينحدرون من الإمام السابع موسى الكاظم .

(٢٨٥) التعليقة ٦٩ .

هزيمة الصفويين وشح الغوري :

وفي جمادى الآخرة حضر قاصد من عند علي دولات ، وأخبر أنه لما توجه إلى عسكر الصوفي ، تحارب معهم فكسرهم كسرة قوية ، فانهزموا نحو بلادهم ، وقتل منهم جماعة كثيرة ، وأرسل علي دولات عدة رؤوس ممن قتل من عسكر الصوفي ، وفيهم شخص من أمرائه حياً وعلى رأسه طرطور أحمر . فلما عرضوا على السلطان سرّ بهذه الواقعة وأمر بأن تعلق تلك الرؤوس على باب زويلة . فلما تحقق صحة هذه الواقعة بطل أمر تلك التجريدة التي عينها إلى الصوفي ، ورسم بإعادة النفقة التي كان نفقها على العسكر بسبب التجريدة ، فتوجهت إليهم الطواشية[٢٨٦] لاستعادة النفقة ، فشق ذلك على المماليك ، وكانوا تصرفوا في غالبها ، فلما بلغ السلطان ذلك رسم بأن يترك ثمن الجمل الذي كان أعطي لكل منهم وقدره سبعة دنانير ، ويعيدوا الباقي .

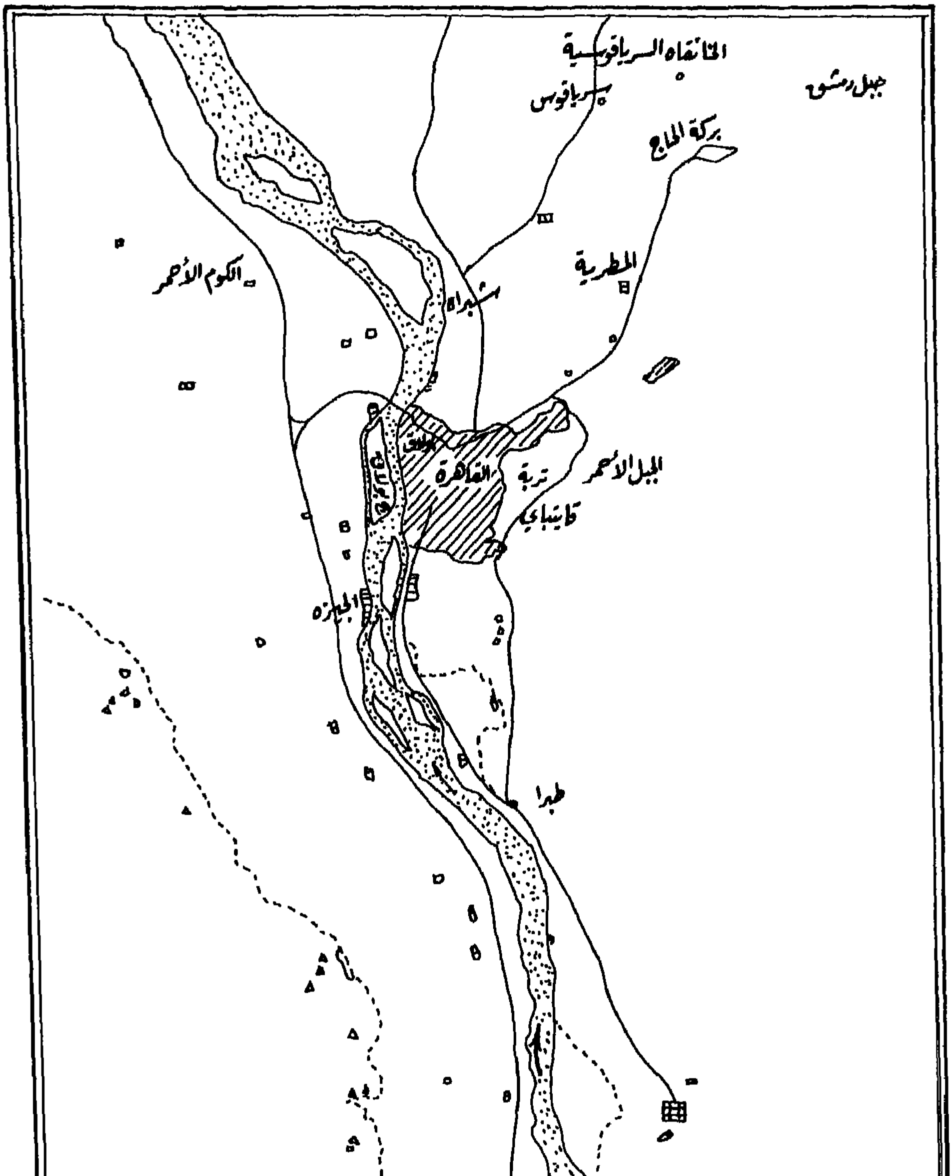
وفيه أيضاً خلع السلطان على قاصد أبي يزيد بن عثمان خلعة سنية وألبس جماعته سلاريات وشققاً وصموراً وأذن لهم بالعودة إلى بلادهم .

مظهر آخر للاحتفال بالقصاد :

وفي جمادى الآخرة أيضاً عزم السلطان على قاصد ابن عثمان في قاعة البحرة ، فأظهر في ذلك اليوم غاية العظمة في الفرش وفي الأسمطة والفواكه والحلوى وملأ صحن فرعون الذي تحت شباك قاعة البحرة سكراً بماء الليمون برسم جماعة القاصد ، وعند الانصراف خلع على القاصد كاملية مخملاً بصمور فاخر وكان يوماً حافلاً جداً .

وفيه أيضاً حضر الأبواب الشريفة شخص يقال له كال من خواص جماعة ابن

(٢٨٦) الطواشية : جمع طواشي وهم المماليك الخصيان المعينون لخدمة بيوت السلطان وحريمه .



المصور (٥) القاهرة القديمة وميدان معركة الريدانية

عثمان وقد قالوا عنه بأنه لا يكل ولا يمل من الجهاد في الفرنج ليلاً ونهاراً حتى أعيي الفرنج أمره ، وأنه رأس المجاهدين المرابطين في الإسلام . فلما حضر أكرمه السلطان وبالغ في إكرامه وخلع عليه ، فأقام بمصر مدة يسيرة ورجع إلى بلاده .

اعتذار إسماعيل الصفوي :

وفي شعبان من سنة ٩١٣ هـ حضر قاصد من عند إسماعيل شاه الصوفي ، وعلى يده مكاتبة يذكر فيها أن الذي وقع من عسكره في دخولهم إلى أطراف بلاد السلطان لم يكن عن إذنه ، ولا علم له بذلك ، فأكرم السلطان ذلك القاصد ، وأوكب له بالجلوس موكباً حافلاً وكان هذا القاصد ، هو وجماعته في غاية الغلاسة .

زيارة ابن بايزيد والاحتفال به :

وفي محرم من سنة ٩١٥ هـ عين السلطان الأمير علان الدوادار الثاني بأن يتوجه قاصداً إلى ابن عثمان ملك الروم .

وفي صفر من نفس السنة جاءت الأخبار من دمياط ، بأن شخصاً من أولاد ابن عثمان ، يقال له قُرْقُد بيك ، قد وصل إلى دمياط فلما تحقق السلطان من ذلك ، عين لملاقاته الأمير أقباي أمير آخور ثاني . وازدمر المهمندار ونانق الخازن ، وأرسل صحبتهم ملاقاة حافلة من كل نوع فاخر ، وجهّز المراكب حتى الحراقة الكبيرة(٢٨٧) التي يكسر فيها السد ليحضر ابن عثمان فيها من البحر ، وجهز له حراقة نفط تحرق أمامه في البحر .

وفي يوم الأربعاء ثامن عشر صفر وصل قُرْقُد بيك بن عثمان إلى شبرا(٢٨٨) ،

---

(٢٨٧) الحراقة : سفينة كبيرة حربية كانت تحمل الأسلحة النارية .

(٢٨٨) شبرا : كانت تقع إلى الشمال من القاهرة وهي الآن جزء منها (المصور ٥) .

وهو قُرْقُد بن أبي يزيد بن محمد بن مراد بيك المتصل النسب إلى جدهم عثمان ، فلما وصل إلى شبرا أخلى له السلطان قاعات البرانجية التي ببولاق[٢٨٩] ، ورسم لناظر الخاص بأن يحضر جميع ما يحتاج له من فرش وأوان وصيني وغير ذلك من الاحتياج ، فخرج جماعة من الأمراء إلى ملاقاته وكان السلطان رسم للكُشّاف ومشايخ العربان بأن يلاقوه بطول الطريق ، ويضعوا له الأسمطة والمدات الحافلة ، فأرموا[٢٩٠] على بلاد المقطعين أشياء كثيرة من أغنام وإوز ودجاج وغير ذلك ، واستمر على ذلك حتى وصل إلى قاعات البرانجية وهو في الحراقة التي يكسر فيها السد .

فلما دخل البرانجية ، مد له السلطان هناك مدة حافلة ، ثم توجه إليه الأتابكي قرقماس والأمراء المقدمون قاطبة ، فسلموا عليه ، ثم توجه إليه القضاة الأربعة وأعيان المباشرين من أرباب الوظائف فشرع يقوم لكل من يجيء إليه من الناس .

وخلال إقامته في القاهرة ، أحسن السلطان استقباله وضيافته وأفاض في إكرامه وبالغ في خلعه عليه ، وبعث إليه بعشرين ألف دينار عشرة فضة وعشرة ذهب ، ثم رتب له راتباً شهرياً قدره / ٢٠٠٠ / دينار ، وكان سبب مجيئه إلى السلطان أن خلافاً وقع بينه وبين أبيه فحضر إلى السلطان ليصلح بينهما . وبقي حتى ربيع الآخر سنة ٩١٦ هـ عندما استأذن السلطان في العودة إلى بلاده فأذن له .

وفي أثناء ذلك عين السلطان الأمير علان الدوادار قاصداً إلى ابن عثمان ، وذلك في جمادى الأولى سنة ٩١٥ هـ ، وقد سافر وعاد في ربيع الأول سنة ٩١٦ هـ وقد بالغ ابن عثمان في إكرامه وأحسن إليه .

---

(٢٨٩) بولاق : أحد أحياء القاهرة القديمة ويقع إلى الشمال الشرقي منها (المصور ٥) .

(٢٩٠) أرموا : بمعنى فرضوا .

هدية بايزيد إلى السلطان الغوري :

وفي رجب من السنة نفسها حضر يونس العادلي وكان السلطان أرسله إلى بلاد ابن عثمان ليشتري له أخشاباً وحديداً وباروداً ، فلما بلغ ابن عثمان ذلك ، رد المال الذي كان مع يونس العادلي ، وقال : أنا أجهز من عندي زَرْدَ خاناه للسلطان ، وقد وصلت فعلاً محمَّلة على عدة مراكب في شوال ، وشملت : مكاحل سبقيات العدد ثلاثمائة ، ونشاب ثلاثون ألف سهم ، وبارود مطيب أربعون قنطاراً ، ومقاذيف خشب العدة ألفا مقذاف ، وغير ذلك من نحاس وحديد وعجل وحبال وسلب ومراسي حديد وغير ذلك مما تحتاج إليه المراكب .

اعتداءات الصفويين وردهم :

وفي محرم سنة ٩١٨ هـ حضر قصاد من عند نائب حلب وأخبروا بأن أوائل عسكر إسماعيل شاه الصوفي قد وصل إلى البيرة ، وأن جماعة من عسكر البيرة التف على عسكر الصوفي فتنكد السلطان في ذلك اليوم .

وفي ربيع الأول أرسل نائب سيس إلى السلطان عشرة رؤوس وعليهم طراطير حمر وقيل إنهم من عسكر الصوفي كانوا يفسدون في البلاد ، فقبض عليهم نائب سيس وحز رؤوسهم وأرسلهم إلى السلطان ، فلما عرضوا عليه رسم بإشهارهم على رماح ، فأشهروهم في القاهرة على رماح ، ثم علقوهم على باب النصر وباب الفتوح .

وفي ربيع الآخر وصل الأمير تمر باي الهندي أحد الأمراء العشرات ، وكان قد أرسله السلطان قاصداً إلى الصوفي إسماعيل ، وكانت مدة غيبته نحو سنتين ولم ينصفه ولم يكرمه ولم يقابله غير مرة واحدة . ولم يكتب له الجواب عن مطالعة السلطان وأرسل جوابه صحبة قاصده ، وعندما قابل السلطان القاصد وقرأ

مطالعة الصوفي وجد فيها ألفاظاً يابسة وكلاماً فجاً ولم ينشرح السلطان لذلك .

وفي جمادى الأولى سنة ٩١٨ هـ ورد نبأ وفاة ملك الروم السلطان أبو يزيد ابن السلطان محمد بن السلطان مرادخان ، فحزن عليه السلطان الغوري وبكى وصلى عليه صلاة الغيبة بعد صلاة الجمعة .

وفيه أيضاً أحضر السلطان قصاد الصوفي وخلع عليهم وكتب إلى الصوفي جوابه وفيه عبارات وألفاظ قاسية .

نصوص وإضافات على الرحلة

٥

النزاع بين المماليك والعثمانيين وزوال الدولة المملوكية

- مقدمات النزاع وأسبابه - بدء الفتنة ورد الفعل .
- خروج السلطان الغوري إلى حلب - معركة مرج دابق .
- السلطان سليم الأول في دمشق - سلطنة طومان باي في القاهرة .
- الزحف العثماني نحو مصر - معركة الريدانية .
- اعمال السلطان سليم في القاهرة .
- ثورة جانبردي الغزالي في دمشق .

النزاع بين المماليك والعثمانيين وزوال الدولة المملوكية

مقدمات النزاع بين المماليك والعثمانيين

ما إن تسلم السلطان سليم مُلْكَ بني عثمان سنة ٩١٨ هـ (١٥١٢ م) ، حتى أعمل السيف في رقاب إخوته وأبنائهم[٢٩١] ، وانعكس ذلك على علاقاته مع السلطان قانصوه الغوري ، ففي ذي القعدة سنة ٩١٨ هـ ، حضر أحد أولاد أحمد بيك بن بايزيد ويدعى سليمان بيك ، فأكرمه السلطان وأحسن استقباله ، وقيل إن والده أحمد بيك فر من أخيه سليم شاه وتوجه إلى الشاه إسماعيل الصوفي ، وحضر ابنه إلى عند السلطان فما انشرح السلطان لذلك وخشي ما ينتج عن هذه الحركة .

وفي العاشر من ذي القعدة خلع السلطان على الأمير أقباي أمير آخور ثاني ، وعينه بأن يتوجه قاصداً إلى السلطان سليم لتهنئته بالملك ونسج مودة بينهما .

وفيه أيضاً حضر المَقَرْ علاء الدين بيك أخو سليمان بيك أولاد المَقَر الشهابي أحمد بن السلطان أبي يزيد بن عثمان ملك الروم . وقد بقي الشقيقان في مصر ، وتوفي سليمان في صفر ، وعلاء الدين في ربيع الأول سنة ٩١٩ هـ بالطاعون . وفي ربيع الأول جاءت الأخبار بأن سليم شاه قَتَلَ خنقاً بوترٍ شقيقَه قُرْقُد الذي كان قد حضر إلى مصر .

---

(٢٩١) عرف عن السلطان سليم أنه كان سفاكاً للدماء فقد قتل جميع إخوته خشية أن ينافسه أحد منهم على الملك ، وقد مر في المقدمة عند الحديث عن إمارة دلغادر أنه قتل علي دولات وهو جده لأمه بعد أن حرض عليه علي بك بن شاه سوار وأمده بالسلاح والعساكر .

ولا شك أن حضور سليمان وعلاء الدين إلى القاهرة قد أثار حفيظة سليم شاه ، ولكنه أخفى ذلك بغية الخلاص من إسماعيل الصوفي أولاً ، ففي ربيع الأول سنة ٩٢٠ هـ حضر إلى القاهرة قاصد يعرض تحالف ابن عثمان مع السلطان ضد إسماعيل الصوفي ، وقد كتب السلطان له الجواب وغادر القاصد القاهرة في الشهر نفسه .

وفي ربيع الآخر عاد أقباي الطويل الذي أرسله السلطان الغوري إلى السلطان سليم وقد بالغ السلطان سليم في إكرامه .

وعزم السلطان على الوقوف على الحياد في النزاع بين الصوفي والسلطان سليم ، ولكنه خشي من اعتداء المنتصر على بلاده ، فجمع الأمراء وتشاور معهم في ربيع الآخر ، وتقرر إرسال تجريدة إلى حلب لتحصينها وردع المعتدي .

وغادر القاصد العثماني القاهرة ، وقد صحبه إينال باي الذي أرسله السلطان ليكشف له أخبار النزاع بين الصوفي وسليم شاه بالسرعة القصوى .

وفي رمضان سنة ٩٢٠ هـ ، جاءت الأخبار من بلاد الشرق بنصرة سليم شاه على إسماعيل الصوفي بعد معركة رهيبة(٢٩٢) بين الطرفين جرت في السادس من رجب ، كانت الكسرة فيها أولاً على ابن عثمان ، وآخر الأمر على الصوفي الذي قُتِلَ غالب عسكره ، وكانت نقطة التحول في المعركة استعمال سليم شاه لاثني عشر ألف رام بالبندق والرصاص . فلم يرسم السلطان بدق الكوسات لهذا الخبر ، وأخذ الأمراء حذرهم من ابن عثمان وخشوا من سطوته وشدة بأسه ، وقد حضر قاصد من ابن عثمان بهذه الأخبار فأكرمه السلطان وأحسن إليه .

---

(٢٩٢) هي معركة جالديران وتكتب أيضاً تشالديران باسم الموقع الذي جرت فيه قرب تبريز سنة ٩٢٠ هـ - ١٥١٤ م وانتهت بانتصار العثمانيين وضم دياربكر وما حولها إلى أملاكهم .

أسباب النزاع

تعود الأسباب البعيدة للنزاع بين الدولتين العثمانية والمملوكية إلى الأوضاع العامة لكل منهما في أواخر القرن الخامس عشر وأوائل القرن السادس عشر الميلاديين .

فقد استطاع ملوك آل عثمان أن يتوسعوا في أوربا بعد أن أسسوا جيشاً قوياً دعموه بالأسلحة النارية ـ المدافع والبنادق ـ . وتمكن السلطان محمد الفاتح من القضاء على آخر معقل بيزنطي في مملكته ألا وهو القسطنطينية سنة ٨٧٥ هـ ـ ١٤٥٣ م واستمر الفتح في عهده وعهد ابنه بايزيد في شبه جزيرة البلقان .

ومع تولي سليم ابن بايزيد للسلطة كانت المقاومة الأوربية للفتح العثماني قد اشتدت بينما ظهر في الشرق الخطر الصفوي ، فقد عمد الشاه إسماعيل الصفوي إلى محاولة مدّ نفوذه في أراضي الدولة العثمانية ونشر مذهبه الشيعي في مناطق الحدود ، بينما كان العثمانيون يتبعون مذهب أهل السنة ، ومع اشتداد النزاع على الحدود كان لا بد من امتصاص قوة الجيش العثماني بنصر جديد .

التفت سليم إلى الشرق واتجه نحو الشاه إسماعيل الصفوي في إيران واستطاع أن يلحق بجيشه هزيمة كبيرة في معركة جالديران قرب تبريز (سنة ٩٢٠ هـ ـ ١٥١٤ م) بفضل المدافع التي استعملها ورماة البندق .

وفي الوقت الذي عرض فيه سليم على قانصوه الغوري إقامة تحالف مشترك ضد إسماعيل الصفوي ، رفض السلطان الغوري هذا العرض واكتفى بموقف المتفرج ، لا بل أرسل الغوري نديمه العجمي الشنقجي إلى الشاه إسماعيل الصفوي سراً ، لعقد تحالف ضد السلطان سليم وقد وصلت أخبار هذا التحالف إلى سليم .

وبدأت الأحداث تتسلسل لتثير نقمة السلطان سليم على المماليك .

فقد ألجأ الغوري سليمان بك وعلاء الدين بك أولاد أحمد شقيق السلطان

سليم إلى مصر ، واستقبلها بالحفاوة والترحيب . ورغم أن إقامتها لم تطل في القاهرة بسبب وفاتها بالطاعون ، إلا أن هذا العمل قد أثار حفيظة السلطان سليم وحنقه ، لكنه كظم غيظه إلى الوقت المناسب .

فالسلطان سليم الذي عمد إلى قتل جميع أشقائه خشية منازعتهم له على الحكم لم يكن ليعتبر استقبال الغوري لأبناء شقيقه عملاً ودياً .

وساعد على تزايد رغبة السلطان سليم بالسيطرة على أملاك الدولة المملوكية ، هرب خوشْقَدم شاد الشون(٢٩٣) لدى السلطان ، وهو من مماليك قانصوه الغوري ـ وكان الغوري قد صادره وأخذ منه خمسة آلاف دينار ـ وكان خوشقدم متزوجاً بنت جاني بيك دوادار طراباي الذي كان ناظر الديوان ، وقد قبض السلطان على جاني بيك ، وأمر خوشقدم بطلاق ابنته غصباً وخشي خوشْقَدم إلزامه دفع ما تأخر على جاني بيك من أموال ، فهرب إلى سليم شاه ، وكان له أخ مقيم عند سليم شاه من أخصائه ، وقد أكرم سليم شاه خوشْقدم الوافد إليه ، وأخذ هذا يحرض ابن عثمان على السلطان ، ويخبره بأفعاله وشتى المظالم التي كان قد أحدثها ، ومنها المشاهرة(٢٩٤) والمجامعة على أرباب البضائع من المال ، والغش في المعاملة بالذهب والفضة ، وأعطاه تفصيلات كاملة عن أحوال مصر وجيش المماليك وعن مينائي الاسكندرية ودمياط ، وعن قضاة مصر وأخذهم الرشوة على الأحكام الشرعية ، وما إلى ذلك من سوء الأوضاع الداخلية . ويبدو أنه ساعده على الاتصال ببعض نواب السلطان أمثال خاير بك نائب حلب

(٢٩٣) شاد الشون : شاد لفظة استعملت في العصر المملوكي بمعنى مأمور أو مدير تضاف لاسم الوظيفة ، فيقال شاد الأوقاف ، وشاد الدواوين بمعنى ناظر الأوقاف أو مديرها ، وناظر أو مدير الدواوين ، وشاد الشون يقصد به قائد الأسطول والمسؤول عنه .

(٢٩٤) المشاهرة والمجامعة : إحدى الضرائب التي فرضت في عهد السلطان قانصوه الغوري وهي أموال فرضت على الباعة ، مما ساعد على جور الباعة ورفع الأسعار بحجة أن عليهم مال للسلطان يدفع شهرياً وقد بلغ وارد هذه الضريبة أكثر من ألفي دينار شهرياً .

وجانبردي الغزالي نـائب حمـاة ، وبعض أخصـائـه أمثـال يونس العـادلي وإبراهيم السمرقندي والعجمي الشنقجي مما سيرد ذكره لاحقاً .

كل هذه الأسباب جعلت ابن عثمان يبـدأ التحرش ، وقـد أزمع على المضي في هذا السبيل فأثار علي باك بن شاه سوار ضد عمه علي دولات ودعمه بما يحتاج إليـه من الجنـد ، ثم حـارب علي دولات ـ جَدّه ـ وقَتلـه وأولاده ، وقضى على إمـارتـه ونصب ابن شاه سوار بدلاً عنه .

بدء الفتنة :

في الشهر المحرم سنة ٩٢١ هـ حضر إلى القاهرة قاصد من عنـد السلطـان سليم يحمل رسالة للسلطان تتضمن أن خلافاً حدث بين أحد أولاد شـاه سوار وبين عمـه علي دولات وقد بدأ بينهما بعض الصـدام وتعصب السلطـان سليم لابن سوار ـ علي باك ـ وأرسل يسأل السلطان أن يعطيه بلاد أبيه التي يحكمها علي دولات .

ثم تـواترت الأنبـاء عن هجـوم علي بـاك على عمــه علي دولات وتقهقر علي دولات إلى قلعـة زمنطـوا بعـد مقتـل ابنـه في المعركـة وقـد قـدم السلطــان سليم العساكر لعلي باك .

وأرسل علي دولات إلى السلطان بقاصد حَمَّله رسالة يذكر فيها ما حدث بينـه وبين علي باك ـ ابن أخيه ـ وبيَّن مدى تعصب ابن عثمان لعلي باك ودعمه له . فجمع السلطـان الأمراء للتشاور في الأمر وتقرر إرسـال أربعــة من الأمراء المقــدمين إلى حلب . وإرسال قاصد إلى ابن عثمان ، وتم اختيار الخاصكي جانم للتوجه إلى السلطان سليم وكان من ذوي العقول الراجحة وقد سافر فعلاً في شهر صفر .

وبعد معركة جالديران حـدثت منـاوشـات بين علي دولات وبعض عسـاكر ابن عثمان ،أرسل السلطان سليم على أثر ذلك قوات كبيرة احتلت بلاد علي دولات الذي قُتل وحُزَّ رأسه وعيَّن علي باك بدلاً عنه .

رد الفعل

أثـارت هـذه الحـوادث السلطـان والأمراء ، فـأعلن السلطـان النفير العـام بالجنـد ، وأنـه سيخرج إلى حلب بنفسـه على رأس الجيش وذلـك في شعبـان سنـة ٩٢١ هـ .

وفي أوائل رمضـان سـافر إلى الاسكنـدريـة ورشيـد لتفقـد أحوال الأبراج ، وأرسل البنائين والحجارين لعمارة ما خرب منها وتحصينها ، وذلك لرد أيـة غزوة بحريـة يمكن أن يرسلهـا ابن عثمان ، وبعـد عـودتـه بـدأ بـالاستعـداد للخروج إلى حلب .

وفي شـوال حضر إلى القـاهرة ابن علي دولات الكبير ، واجتمـع أولاد علي دولات وأخـوه عبـد الرزاق بمصر ، وحضر صحبـة ابن علي دولات حـاجب ثـاني بحلب يدعى قانصوه من نفيس ، كان نائب حلب قد أرسله إلى ابن عثمان قـاصداً بسبب القلاع التي أخذها من بلاد علي دولات ، فلما حضر قـانصوه هـذا من عنـد سليم شاه أخبر عنه أخباراً سيئة بأنه قال : « أنا ما أخذت هذه القلاع إلا بالسيف وما أردهم إلا بالسيف ، وأنه ما هو راجع عن التوجـه إلى حلب والشـام وحـدثتـه نفسه بأخذ مصر » ، فقد أخذ يجهز المراكب لتغزوا الاسكندريـة ودميـاط ، فلمـا سمع السلطان ذلك تنكد واجتمع هو والأمراء في ضرب مشورة بسبب ذلك .

وفي الشهر المحرم من سنة ٩٢٢ هـ ، أرسل السلطان إلى عبد الرزاق أخي علي دولات وإلى أولاد علي دولات الكبار والصغار ثمانية آلاف دينـار فقسمت بينهم ، وأرسل يقـول لهم : اعملـوا بهـذه النفقـة يرقكم(٢٩٥) واخرجـوا سـافروا قبـل خروج التجريدة ، فأجمعوا عساكركم من التركمان إلى أن أحضر أنا والعسكر .

وفيه أرسل السلطان مكاحل حديـد ومـدافع صوان إلى ثغر الاسكنـدريـة ،

---

(٢٩٥) اليرق : السلاح ، واستعملت أيضاً لتجهيزات السفر .

فكانوا نحو مائتي مكحلة ، وقد بلغه أن ابن عثمان جهز عدة مراكب تأتي إلى السواحل للديار المصرية .

وفيه قال السلطان للخليفة : اعمل يرقك إلى السفر وكن على يقظة فإني مسافر إلى حلب بسبب ابن عثمان .

وفي يوم الاثنين ثالث عشر من صفر ، خرج عبد الرزاق أخو علي دولات وأولاد علي دولات الذين كانوا حضروا إلى مصر ، فلما أرسل إليهم السلطان ثمانية آلاف دينار جهزوا أنفسهم وخرجوا وسافروا في ذلك اليوم وقصدوا التوجه إلى حلب .

وفي يوم الخميس سلخ هذا الشهر ، حضر ساع وقيل اثنان من عند نائب حلب(٢٩٦) وأخبرا بأن نائب حلب أرسل مطالعة على يديها ، فلما قرئت على السلطان فإذا فيها أن الشاه إسماعيل الصفوي ملك العراقين جمع من العساكر مالا يحصى عددهم بمساعدة ملوك التتار وهو زاحف على بلاد ابن عثمان ، وقيل إنه كبس على جماعة ابن عثمان الذين كانوا في آمد ـ دياربكر ـ وقد ملكها من يد الصوفي بعد معركة جالديران فجعل ابن عثمان فيها نائباً من قبله ، فأشيع أن الصوفي كبس على من كان بآمد على حين غفلة وقتل من كان بها من العثمانية واستخلصها من يدي جماعة ابن عثمان وانتصر عليهم .

فلما طرق السلطان هذا الخبر اجتمع بالأمراء في الميدان وقاموا في ضرب مشورة إلى قريب الظهر ، وقد أشيع بأن السلطان قال : « أنا أخرج بنفسي وأقعد في حلب حتى نرى ما يكون من أمر الصوفي وابن عثمان ، فإن كل من

(٢٩٦) لعب نائب حلب خاير بك دوراً كبيراً في تقويض دولة المماليك وكان على اتصال بالسلطان سليم شاه ولا شك أن رسالته هذه إنما قصد بها التمويه على استعدادات السلطان سليم وتوجيه أنظار قانصوه الغوري إلى تزايد النزاع بين الصفويين والعثمانيين من جديد ، ليثبط همته في الخروج إلى حلب ويبقي طريق الفتح للعثمانيين سهلاً دون عقبات .

انتصر منهما على غريمه لا بد أن يزحف على بلادنا » ، فانفض المجلس على أن لا بد من خروج تجريدة تقيم بحلب تحرس البلاد .

وفي ربيع الأول ورد إلى السلطان مطالعة من عند سيباي نائب الشام ، وقد بلغه حركة سفر السلطان إلى البلاد الشامية ، فأرسل يقول له : « يا مولانا السلطان إن البلاد الشامية مغلية ، والعليق والتبن ما يوجد ، والزرع في الأرض لم يحصد ، ولا ثمّ عدو متحرك ، فلا يتعب السلطان سره ولا يسافر ، وإن كان ثمّ عدو متحرك فنحن له كفاية » ، فلم يتلفت السلطان إلى كلامه واستمر باقياً على حركة السفر إلى حلب .

وفي ذلك اليوم أنفق السلطان على العسكر نفقة السفر ، وقد تحقق أمر خروج التجريدة .

وفي ربيع الآخر حضر إلى الأبواب الشريفة العجمي الشنقجي نديم السلطان الذي توجه بأفيال إلى نائب الشام ونائب حلب ، وقد أبطأ مدة طويلة حتى أشاعوا موته غير ما مرة ، فظهر أن السلطان كان أرسله سراً إلى الشاه إسماعيل الصفوي ، في خبر للسلطان بينه وبين الصوفي كما أشيع بين الناس بذلك(٢٩٧) .

وفي يوم الاثنين عاشر ربيع الآخر خرج طُلْب السلطان من الميدان قبل طلوع الشمس ، ومشى به من الرملة ، ونزل به من حدرة البقر وطلع به من الصبيبة .

---

(٢٩٧) لا شك أن طول غياب العجمي الشنقيطي مرده إلى اتصاله بالسلطان سليم وإطلاعه على المراسلات بين الغوري والصفوي . وفي مفاكهة الخلان لابن طولون ٢٣/٢ حوادث رجب ٩٢٢ هـ « وشاع بين الناس أن سبب توجّهه ، بعد أن كان قصده الصلح ، توجُّه ملك الروم إليه وأخذ قلعة الروم وما والاها إلى عينتاب ، بسبب أنه اطلع على مطالعات من سلطاننا إلى الخارجي إسماعيل الصوفي ، يستعينه على قتال ملك الروم سليم خان ، على يد البهلوان ، أحد جماعة سلطاننا » .

موكب خروج السلطان قانصوه الغوري من القاهرة[٢٩٨]

فلما أشرقت شمس يوم السبت خامس عشر ربيع الآخر ، انسحبت أطلاب[٥٥] الأمراء المقدمين الذين توجهوا صحبة الركاب الشريف ، فكان أولهم طلب الأمير كرتباي أحد المقدمين وهو الذي كان والي القاهرة ، ثم طلب الأمير أقباي الطويل أمير آخور[٢٢٧] ثاني أحد المقدمين ، وبعده طُلْب الأمير تاني بك الخازندار[٦٦] ، وبعده طُلْب الأمير علان من قراجا الدوادار الثاني أحد المقدمين ، وبعده طُلْب الأمير أبرك الأشرفي أحد المقدمين ، وبعده طُلْب الأمير بيبرس قريب السلطان ، وبعده طُلْب الأمير جان بلاط الشهير بالموتر ، وبعده طُلْب الأمير قانصوه كرت ، وبعده طُلْب الأمير تمر الحسني الشهير بالزردكاش[٢٩٩] ، وبعده طُلْب الأمير قانصوه بن سلطان جركس ، وبعده طُلْب الأمير أنصباي من مصطفى حاجب الحجاب ، وبعده طُلْب الأمير سودون عُرف بالدواداري رأس نوبة النوب[٣٤] ، وبعده طُلْب المَقَرّ الناصري محمد نجل المقام الشريف أمير آخور كبير ، وبعده طُلْب الأمير أركاس من طرباي أمير مجلس ، وقد قرر في ذلك اليوم أمير السلاح ، ثم من بعد ذلك مشى طُلْب الأتابكي سودون من جاني بك الشهير بالعجمي وكان طُلْبه غاية في الحسن . فلما انقضى أمر الأطلاب ، خرج السلطان من باب الإسطبل الذي عند سلم المدرج ، فخرج وأمامه النفير السلطاني المسمى بالبرغشي ، وهو في موكب عظيم قل أن يتفق لسلطان أن يقع له موكب مثل ذلك الموكب .

---

(٢٩٨) عن بدائع الزهور لابن أياس ج ٣٩/٥ .

(٢٩٩) الزردكاش : صانع الأسلحة .

فكان أول الموكب الأفيـال الثلاثـة وهي مزينـة بـالصنـاجق(٣٠٠) ، ثم ترادف العسكر المنصور بـالشـاش والقماش ، ثم الأمراء الرؤوس النوب بـالعصي يُفَسّحون الناس ، ثم ترادف الأمراء الطبلخانات(٣٦) والأمراء العشرات(٣٧) قـاطبـة ثم أربـاب الوظـائف من المبـاشرين منهم : المَقَر القضـوي محب الـدين محمـود بن أجـا الحلبي كاتب السر الشريف ، والقــاضي نــاظر الجيش(٣٠١) محيي الــدين عبــد القــادر القصروي ، والقاضي ناظر الخاص علاي الدين بن الإمام ، والقاضي شهاب الدين أحمــد بن الجيعــان نــائب كاتب السر ومستـوفي ديـوان(٣٠٢) الإنشــاء الشريف ، والقـاضي شرف الـدين الصغير نـاظر الـدولــة(٣٠٣) الشريفــة وكاتب العســاكر المنصورة ، والقاضي بركات بن موسى ناظر الحسبة الشريفـة واستـادار الـذخيرة ، والشرفي يونس النابلسي كاتب جيش الشام واستـادار العـاليـة كان ، والقـاضي أبو البقا ناظر الاسطبلات الشريفة ، وأولاد الجيعان كتاب الخزائن الشريفة ، وأولاد الملكي كتاب استيفاء الجيش ، وكتـاب الزردخـانـاه(١٢٥) ، وغير ذلـك من أربـاب الوظائف والمباشرين ، والشرفي يونس نقيب الجيوش المنصورة .

وكان حـاضراً هـذا المـوكب الســادات الأشراف إخـوة الشريف بركات أمير مكة ، فكانوا أمام الأمراء المقدمين ، ثم تقـدم الأمراء المقـدمون قـاطبـة وصحبتهم ولـد السلطـان المقر النـاصري أمير آخـور كبير ، وإلى جـانبـه الأتــابكي سـودون العجمي . ثم بعد ذلك تقدم السادة القضاة الأربعـة مشـايخ الإسلام وهم : قـاضي القضـاة الشـافعي كمال الـدين الطويـل ، وقـاضي القضـاة الحنفي حسـام الـدين محمود بن شحنة ، وقاضي القضاة المالكي محيي الدين بن الدميري ، وقـاضي القضـاة

---

(٣٠٠) الصناجق : الرايات والأعلام .

(٣٠١) ناظر الجيش : المسؤول عن أموال وحسابات الجيش والجند .

(٣٠٢) مستوفي الديوان : مدقق صحة أعمال الديوان وبخاصة الأمور المالية .

(٣٠٣) ناظر الدولة : من يساعد الوزير في تسيير أعمال وزارته .

الحنبلي شهاب الدين أحمد الفتوحي الشهير بابن النجار ، ثم من بعدهم أتى أمير المؤمنين المتوكل على الله محمد بن المستمسك بالله يعقوب العباسي وهو لابس العمامة البغدادية التي بالعذبتين وعليه قبا[163] بعلبكي بطرز حرير أسود ، ولم يكن على رأسه صنجق خليفتي ، وقد اختصر هذا الخليفة أشياء كثيرة مما كان يعمل للخلفاء المتقدمين من أقاربه . ثم مشت الجنايب[304] السلطانية فكان قدامه طوالتان بعراقي وسروج بغواشي[305] حرير أصفر وطبول بازات ، وطوالتان خيل بكنابيش[102] وسروج ذهب ومياتر زركش ، وبعضهم بسروج بلور مزيك بذهب ، وشيء عقيق مزيك بمينة ، وقد تقدم أمر الطلب بما شرح من وصفه قبل ذلك ، ثم تقدمت جماعة من الرؤوس نوب مشاة ، والشاويشية والطبردارية[306] قدامه بالأطبار[307] ، ولم يكن أمامه الأوزان[308] ولا شبابة[309] سلطانية كما هي عادة السلاطين في المواكب ، ثم مشت البقج والمجامع بالأغطية الحرير الأصفر .

ثم أقبل السلطان الملك الأشرف أبو النصر قانصوه الغوري عز نصره ، وكان الخليفة أمامه بنحو عشرين خطوة ، وكان السلطان راكباً على فرس أشقر عالي بسرج ذهب وكنبوش وعلى رأسه كلفتاة[310] ، وهو لابس قبا بعلبكي أبيض بطرز

---

(٣٠٤) الجنايب : جمع جَنْب وهي الخيول الاحتياطية التي ترافق السلطان في سفره . كما تستعمل أيضاً بمعنى الحرس المرافق .

(٣٠٥) غواشي : جمع غاشية وهي سرج يتخذ من أديم مخروزة بالذهب يخالها الناظر جميعها مصوغة من الذهب ، تحمل بين يدي السلطان في المواكب الحافلة كالميدان بمصر والأعياد وتجاريد السلطان من فتح البلاد أو النصرة على العدو ، وتحملها المهاترة على أيديهم تلفتها يميناً وشمالاً من حين تفرش له شقق الحرير إلى حين نزوله بمكانه .

(٣٠٦) الطبردار : هو المختص بحمل فأس السلطان عند خروجه بالمواكب الرسمية .

(٣٠٧) الأطبار : جمع طبر وهو الفأس .

(٣٠٨) الأوزان : الفرقة الموسيقية .

(٣٠٩) الشبابة : آلة موسيقية .

(٣١٠) كلفتاة : جمع كلفة وهي غطاء الرأس .

ذهب على حرير أسود عريض قيل فيه خمسمائة مثقال ذهب بنادقة[٣١١] . وكان ذلك اليوم في غاية الأبهة والعظمة ، فإنه كان حسن الهيئة تملأ منه العيون مبجلاً في المواكب ، ثم أقبل الصنجق السلطاني على رأسه ، وخلفه مقدم المماليك سنبل العثماني ، وصحبته السلحدارية[٣١٢] بالشاش والقماش ، والجم الغفير من الخاصكية والجمدارية فدخل من باب زويلة وشق من القاهرة في ذلك الموكب الحافل ، فارتجت له القاهرة في ذلك اليوم وارتفعت له الأصوات بالدعاء من العوام وغيرهم ، وانطلقت له النساء بالزغاريد من الطيقان[٣١٣] ، فاستمر في ذلك الموكب حتى خرج من باب النصر وكان يوماً مشهوداً ، ثم وصل إلى المخيم الشريف بالريدانية .

ثم في عقيب ذلك اليوم نزل حوايج خاناه من مال ما بين ذهب وفضة ، قيل إن ضمنها من الذهب ألف ألف دينار خارجاً من المعادن ، وقد فرَّغ الخزائن من الأموال التي جمعها من أوائل سلطنته إلى أن خرج في هذه التجريدة ، وفرَّغ أيضاً حواصل الذخيرة عن آخرها ، وأخذ ما فيها من التحف وآلات السلاح الفاخرة مما كان بها ، من ذخائر الملوك السالفة من سروج ذهب وبلور وعقيق وكنابيش وطبول بازات بلور ومينة وبركستوانات مكفتة وأكوار[٣١٤] زركش وغير ذلك من التحف الملوكية ، فنزل جماعة من كتاب الخزانة صحبة الحوايج خاناه ، وجماعة من الخزندارية وهم بالشاش والقماش ، فكانت تلك الحوايج خاناه محملة على خمسين جملاً ، ثم نزلت الزردخاناه وهي محملة على مائة جمل وأمامها طبلان وزمران وعيدان نفر على جمال فتوجهوا إلى الوطاق[٣١٥] .

(٣١١) ذهب بنادقة :نسبة إلى مدينة البندقية بإيطاليا .

(٣١٢) السلحدارية : حملة السلاح .

(٣١٣) الطيقان : النوافذ .

(٣١٤) أكوار : جمع كور وهو سرج الجمل .

(٣١٥) الوطاق : مخيم السلطان .

وفي يوم الأحد سادس عشر ربيع الآخر ، نادى السلطان للعسكر في القاهرة بأن السلطان سيرحل من الريدانية يوم الجمعة عشرينه ، فلا يتأخر من العسكر الذي تعيَّن للسفر أحد ، ولا يحتج بحجة ولا عذر .

رافق الموكب عدد آخر من القضاة والمشايخ والمؤذنين والكتاب والأطباء والكحالين والمزينين ومغاني الدكة والبنائين والنجارين والحدادين ، وشيخ المشايخ سلطان الحرافيش(٣١٥) وجنده وصنجقه وطبله .

الرحيل من الريدانية :

بدأ الرحيل من الريدانية يوم الثلاثاء ١٨ ربيع الآخر ، وتتابع في أيام الأربعاء والخميس والجمعة .

وقيل إن عدة المماليك السلطانية الذين خرجوا في هذه التجريدة من قرانصة وجلبان وأولاد ناس خمسة آلاف نفر ، وتأخر بالقاهرة من المماليك القرانصة والشيوخ والعواجز والمماليك الجلبان في الطباق(٣١٦) بالقلعة وأولاد الناس نحو ألفي نفر .

رسالة من سليم شاه :

ولما كان السلطان بالمخيم الشريف وردت عليه مطالعة من نائب حلب ، بأن ابن عثمان أرسل قاصداً إلى حلب فعوقه نائب حلب عنده ، وأخذ منه كتاب ابن عثمان وأرسله إلى السلطان ، فوصل إليه وهو بالمخيم بالريدانية ، فلما فضه السلطان قرأه فإذا فيه عبارة حسنة وألفاظ رقيقة ، منها أنه أرسل يقول له : « أنت والدي وأسألك الدعاء ، وإني ما زحفت على بلاد علي دولات إلا بإذنك ، وأنه كان باغياً عليَّ ، وهو الذي أثار الفتنة القديمة بين والدي والسلطان قايتباي

---

(٣١٥) سلطان الحرافيش : هو شيخ مشايخ الحرف والصناعات .

(٣١٦) الطباق : جمع طبقة وهي ثكنات المماليك بالقلعة ، وكانت كل طبقة تضم المماليك المجلوبين من بلد واحد .

حتى جرى بينهما ما جرى ، وهذا كان غاية الفساد في مملكتكم وكان قتله عين الصواب ، وإن ابن سوار الذي وَلِيَ مكانه ، فإن حسن ببالكم أن تبقوه على بلاد أبيه أو تولوا غيره فالأمر راجع إليكم في ذلك ، وأما التجار الذين يجلبون المماليك الجراكسة فإني ما منعتهم ، إنما هم تضرروا في معاملتكم(٣١٧) في الذهب والفضة ، فامتنعوا من جلب المماليك إليكم ، وإن البلاد التي أخذتها من علي دولات أعيدها إليكم وجميع ما يرومه السلطان فعلناه » .

فلما سمع السلطان ذلك أحضر الأمراء المقدمين ، وقرأ عليهم كتاب ابن عثمان الذي حضر ، فانشرح السلطان والأمراء لهذا الخبر واستبشروا بأمر الصلح والعودة إلى الأوطان عن قريب ، وكان هذا حيلاً وخداعاً من ابن عثمان حتى يبلغ بذلك مقاصده وقد ظهر حقيقة ذلك فيما بعد .

وفي يوم السبت ثاني عشري ربيع الآخر ، رحل السلطان من المخيم الشريف بالريدانية وصحبته الخليفة والقضاة الأربعة وولده المَقَر الناصري أمير آخور كبير وأقباي الطويل أمير آخور ثاني .

وفي جمادى الأولى خرج الأمير ماماي الصغير المحتسب ، وسافر ولحق بالسلطان ، وخرج صحبته شخص صبي صغير عمره نحو ثلاث عشرة سنة ، يقال له قاسم بن أحمد بك بن أبي يزيد بن عثمان ، وكان عمه سليم شاه بن عثمان قد قَتَلَ شقيقه أحمد بك ، ففرَّ ابنه قاسم هذا هو ولالاه(٣١٨) ودخل إلى حلب خفية ، فلما بلغ السلطان ذلك أحضره إلى مصر في الخفية وأقام بها إلى أن خرج السلطان إلى البلاد الشامية ، فأخذه صحبته ليبلغ بذلك مقاصده فلم يفد من ذلك شيئاً ، فلما خرج صحبة الأمير ماماي خرج وأمامه جنايب ، وكان السلطان أقام له بَرْك ويرق وتكلف عليه نحو ألفي دينار حتى يظهر أمره ويشاع ذكره في بلاد ابن

(٣١٧) يقصد التلاعب بنسبة الذهب والفضة في النقود .

(٣١٨) لالاه : مربيه .

عثمان ، بأن في مصر من أولاد ابن عثمان ولد ذكر ، وظن السلطان أن عسكر ابن عثمان إذا سمعوا ذلك يخامرون على سليم شاه ويأتون إلى هذا الصبي قاسم ، فلم يظهر لهذا الأمر نتيجة ولا أفاد منه شيئاً .

السلطان الغوري في دمشق

وصف ابن طولون في كتابه مفاكهة الخلان في حوادث الزمان ١٣/٢ دخول السلطان الغوري إلى دمشق وصفاً مسهباً .

فقد دخل إليها يوم الخميس الثامن عشر من جمادى الأولى من قبة يلبغا جنوب دمشق ماراً بها إلى المصطبة في القابون شرقي دمشق في موكب عظيم .

فعن يمينه الأمير سيباي ـ الملقب بملك الأمراء ـ وهو يحمل القبة على رأس السلطان وهي شبه نسر ظاهرها حرير أصفر وفي أعلاها هلال من ذهب .

وعن يمين النائب الأمير سودون العجمي يليه أمير السلاح أركماس وخلفهم الصنجق السلطاني من ذهب مزركش ومن خلفه المماليك .

وتقدم الموكب الخليفة العباسي المتوكل على الله أبو عبد الله محمد بن المستمسك بالله والقضاة الأربعة ونوابهم ـ وقضاة الشام الأربعة وبعض نوابهم ، والأمير محمد بن السلطان وكبار أصحاب المناصب من رأس نوبة النوب وحاجب الحجاب وغيرهم ، ثم أمراء الشام وكبار موظفيها .

« وقدامهم محفتان على بغال إحداهما للسلطان والثانية لابنه ، وقدامهم من الخيل المجنونة مائة ، فمنها خمسون بجلال صفر من أطلس ، ومنها بلبوس مذهبة ومنها عشرة بكنابيش ذهب مرصعة باللآلئ وغيرها ، ومنها عشرة من خواص الخيل غير ملبسة .

وأمامهم مائة هجين بأكوار مزركشة ، منها خمسون على أحمر ،وباقيها مغرق ، مكتوب على غالبها اسم السلطان ، وعلى بعضها طومان باي وعلى بعضها قايتباي .

وأمامهم كرسي الملك محمل على بغل ، وهو مرصع بالدر والجوهر والبلخش وغير ذلك ، وقدامه ثلاثة أبغال للشربدارية ، راكب في وسطها ثلاثة أولاد صغار ، عمالين في الإنشاد ، لم نسمع أطرب منهم وهم سائرون .

وقدامهم أربعة أنفس راكبين ، وخلف كل واحد منهم فهد ، وقدامهم أحمال الضوية ، وقدامهم البارودية ، وقدامهم الطبل والزمر ، وقدامهم السبق إلى غير ذلك مما يطول تعداده ، وكان يوماً مشهوداً » .

« وفي يوم الأربعاء رابع عشريه رحل السلطان من الصّفة ، وهدت الزينة من البلد ، وتوجه معه في الترسيم المحبي ناظر الجيش بدمشق وناظر القلعة بها وما مع ذلك » .

« ولم يفرج السلطان في مدة إقامته بهذه المصطبة عن أحد كربة ، وكلما رفعت إليه قصة يؤخرها حتى يرجع ، وقد ذهبتُ مع جماعة مدرسة الشيخ أبي عمر بصالحية دمشق لنشكو له حالهم في قمح داريا ، والمال المرتب لهم في القلعة بسبب الطعام في شهر رمضان ، فلما وصلوا إلى قربه جلس الأضراء يقرأون القرآن له ، فأمر مماليكه فضربوهم بالعصي وقالوا لهم : عندنا ميت حتى تجيوا تقرون عليه ؟ فرجعنا خائبين منه .

وفي هذا المجلس جاء إليه قنصل الافرنج وجماعته بهدايا فقدمهم وأكرمهم »

وبعد سفره جاءت الأخبار إلى دمشق بأن نائب حلب خاير بك ونائب حماة جانبردي الغزالي ومعهما قضاة البلدين لاقوا السلطان في القطيفة .

السلطان في حلب :

دخل السلطان حلب يوم الخميس عاشر جمادى الآخرة ، وكان لدخوله يومٌ مشهودٌ ، وأمامه الخليفة والقضاة الأربعة وسائر الأمراء كموكبه بالشام . وحمل القبة والجلالة على رأسه ملك الأمراء خاير بك نائب حلب ، وفي حال دخول السلطان إلى حلب ، وصل إليها قصاد من عند السلطان سليم وهم قاضي عسكره وهو شخص يقال له ركن الدين ، وأحد أمرائه يقال له قراجاباشاه وصحبتهم سبعماية عليقة ، فنزلوا بمدينة حلب ، وقد عاتبهم السلطان الغوري لما حضرا بين يديه في أفعال ابن عثمان وما يبلغه عنه في حقه ، وأخذه بلاد علي دولات ، فقال له قاضي ابن عثمان وقراجا باشاه : نحن فوض لنا أستاذنا الأمر وقال مهما اختاره السلطان افعلوه ولا تشاوروني .

وكل هذا حيل وخداع حتى تبطل همة السلطان عن القتال ويثني عزمه عن ذلك ، وقد ظهر مصداق ذلك فيما بعد . ومن مظاهر مخادعة ابن عثمان للسلطان ، أنه أرسل يطلب منه سكراً وحلوى فأرسل إليه السلطان مائة قنطار سكراً وحلوى في علب كبار .

ثم إن قاضي ابن عثمان أحضر فتاوى من علماء بلاده ، وقد أفتوا بقتل الشاه إسماعيل الصوفي ، وأن قتاله جائز في الشرع . وأرسل يقول في كتابه : « السلطان والدي وأسأله الدعاء ، لكن لا يدخل بيني وبين الصوفي فإني ما أرجع عنه حتى أقطع جادرته من على وجه الأرض ، فلا تدخل بيننا بشيء من أمر الصلح » . وأظهر أنه قاصد نحو الصوفي ليحاربه والأمر بخلاف ذلك .

وذكروا أنه على القيسارية يقصد التوجه إلى محاربة الصوفي ، ثم إن السلطان خلع على قصاد ابن عثمان الخلع السنية ، وقيل إن ابن عثمان أرسل إلى السلطان تقدمة حافلة .

ثم إن السلطان عين مغلبـاي دوادار سكين بـأن يتوجـه إلى ابن عثمان ، وعلى يده مطـالعـة من عنـد السلطـان إلى ابن عثمان تتضمن أمر الصلح بينهما ، والأمراء والعسكر منتظرون رد الجـواب عن ذلـك . **ثم إن السلطـان فرق على ممـاليكـه الجلبـان خيولاً كثيرة وصـار ينعم عليهم بـالعطـايا الجزيلـة من مـال وخيول وسلاح ، ولم يعط المماليك القرانصة شيئاً ، فعز عليهم ذلك في الباطن .**

وأحضر السلطـان الأمراء المقـدمين والنـواب والأمراء الطبلخـانـات والأمراء العشرات ، وحلفهم على مصحف شريف بأنهم لا يخونوه ولا يغدرون بـه ، فحلفوا كلهم على ذلك . ثم نادى للعسكر بالعرض في الميدان بحلب ، فعرضوا وهم باللباس الكامل ، وأدخلهم من تحت سيفين هيئة قنطرة ، كما هي عـادة الأتراك ، وعنـدهم أن هـذا القسم العظيم ، ثم إن السلطـان أرسل خلف قـاسم بـك بن أحمـد بـك بن عثمان الذي خرج من مصر صحبة السلطان كما تقدم ، وكان السلطان عندما توجـه إلى حلب ترك قاسم بك في حماة فطلبه وخلع عليه وشهر أمره بحلب .

مقدمات الحرب :

ثم وردت الأخبـار إلى حلب بـأن سليم شـاه بن عثمان قبض على قـاصـد السلطان الذي جهزه السلطان إليه وهو مغلباي أحد الدواداريـة السكين ووضعـه في الحـديـد . وكان السلطـان جهز الأمير كرتبـاي الأشرفي أحـد الأمراء المقـدمين الذي كان والي القاهرة - إلى ابن عثمان ، وصحبته هدية حـافلـة بنحو عشرة آلاف دينار ، وخلع على قاضي عسكر ابن عثمان ووزيره قراجا باشـاه الـذي تقـدم ذكر حضورهما إلى حلب خلعـاً سنيـة ، وأذن لهما بـالعودة إلى بلادهم ، وكان هـذا عين الغلـط من السلطـان الـذي أطلق قصـاد ابن عثمان قبـل أن يحضر مغلبـاي دوادار سكين ويظهر لـه من أمر ابن عثمان مـا يعتمـد عليـه ، فلمـا وصل الأمير كرتبـاي

عينتاب بلغه أن ابن عثمان قد أبى من الصلح وأنه بهدل مغلباي ووضعه في الحديد وقصد شنقه حتى شفع فيه بعض وزرائه ، وقصد حلق لحيته وقد قاسى منه من البهدلة مالا يمكن شرحه . فلما تحقق الأمير كرتباي من ذلك رجع إلى حلب وأعلم السلطان بما فعله سليم شاه بن عثمان ، وأن طوالع عسكره قد وصل إلى عينتاب فهرب نائبها ، وملك عسكر ابن عثمان قلعة ملطية وبهسنا وكركر وغير ذلك من القلاع ، فلما وصل كرتباي بهذه الأخبار الردية إلى السلطان اضطربت أحواله وأحوال العسكر قاطبة .

ثم إن السلطان خلع على الأمير عبد الرزاق شقيق علي دولات وولاه على إقليم أولاد دلغادر ، فخرج من حلب وصحبته ملك الأمراء خاير بك - نائب حلب - وعساكرها في موكب حفل . ونزلوا عن حلب بيوم وصحبتهم من المشاة خمسة آلاف ماش ، ونفق عليهم السلطان جامكية شهر واحد ، ثم خرج بعده ملك الأمراء سيباي نائب الشام ، وتمراز نائب طرابلس ، وطراباي نائب صفد ، ونائب حمص ، ونائب غزة ، فخرجوا من حلب يوم السابع عشر من رجب . وقد أشيع أن ابن عثمان ماش من جهة ، وابن سوار ماش من جهة ، ثم إن السلطان نادى للعسكر بالرحيل من حلب والنزول على حيلان لقتال ابن عثمان ، وأن السلطان والأمراء يخرجون قريباً إلى القتال ، والذي يريده الله تعالى هو الذي يكون ، وهذا ما نقل من شرح كتاب أمير المؤمنين الذي أرسله إلى والده أمير المؤمنين يعقوب (ابن إياس ٥ / ٦٤) .

وفي شعبان حضر كتاب إلى القاهرة على يد ساع مطرد من عند الأمير علان الدوادار الثاني أحد الأمراء المقدمين ذكر فيه أن السلطان كان يكْذَب عليه في أمر سليم شاه بن عثمان ويصدّق ، إلى أن حضر مغلباي دوادار سكين وهو في حال

النحس بزمط[٣١٩] أقرع على رأسه وهو لابس كبر[٣٢٠] عتيق دنس ، وراكب على أكديش هذيل ، وقد نهب برْكة وأخذت خيوله وقماشه ، وأخبر أن ابن عثمان أبى من الصلح وقال له : « قل لأستاذك يلاقيني في مرج دابق » ، وأخبر أنه وضع في الحديد وقصد أن يحلق لحيته وقدمه إلى المشنقة عدة مرات حتى شفع فيه بعض وزرائه ، وحمله الزبل من تحت خيله في قفة على رأسه ، وقاسى من البهدلة مالا خير فيه ، فلما سمع السلطان ذلك تحقق وقوع الفتنة بينه وبين ابن عثمان ، فقيل إنه أنعم على مغلباي بألف دينار وخيول وقماش وبرك في نظير ما ذهب له .

خروج السلطان من حلب :

وفي يوم الثلاثاء في العشرين من رجب سنة ٩٢٢ هـ ، خرج السلطان من ميدان حلب بعد أن صلى الظهر ، وصحبته أمير المؤمنين المتوكل على الله والقضاة الأربعة ، وكان قد تقدمه نائب حلب وجماعة من النواب ، فخرجوا بأطلاب حربية وطبول وزمور ونُفوط حتى رجت لهم حلب فلما خرج السلطان من حلب توجه إلى حيلان فبات بها .

معركة مرج دابق[٣٢١] :

فلما أصبح يوم الأربعاء حادي عشرين رجب ، رحل السلطان من حيلان وتوجه إلى مرج دابق ، فأقام به إلى يوم الأحد خامس عشرين رجب ، وهو يوم نحس مستمر ، فلم يشعر إلا وقد دهمته عساكر سليم شاه بن عثمان فصلى السلطان صلاة الصبح ، ثم ركب وتوجه إلى زغزغين وتل الفار ، وقيل هناك مشهد نبي

---

(٣١٩) الزمط : لباس يوضع على الرأس .

(٣٢٠) كبر : سرج .

(٣٢١) مرج دابق : التعليقة رقم ١٥٠ .

الله داود عليه السلام ، فركب السلطان وهو بتخفيفة[٣٢٢] صغيرة وملوطة بيضاء ، على كتفه طَبر ، وصار يرتب العساكر بنفسه فكان أمير المؤمنين عن ميمنته وهو بتخفيفة وملوطة وعلى كتفه طَبر مثل السلطان وعلى رأسه الصنجق الخليفتي ، وكان حول السلطان أربعون مصحفاً في أكياس حرير أصفر على رؤوس جماعة أشراف ، وفيهم مصحف بخط الإمام عثمان بن عفان رضي الله عنه ، وكان حول السلطان جماعة من الفقراء[٣٢٣] وهم : حليفة سيدي أحمد البدوي ومعه أعلام حمر ، والسادة الأشراف القادرية ومعهم أعلام خضر ، وخليفة سيدي أحمد بن الرفاعي ومعه أعلام خليفتي ، والشيخ عفيف الدين خادم السيدة نفيسة رضي الله عنها بأعلام سود . وكان الصبي قاسم بك بن أحمد بك بن عثمان المقدم ذكره واقفاً بإزاء الخليفة وعلى رأسه صنجق حرير أحمر . وكان الصنجق السلطاني واقفاً خلف ظهر السلطان بنحو عشرين ذراعاً وتحته مقدم المماليك سنبل العثماني والسادة القضاة والأمير تمر الزردكاش أحد المقدمين ، وكان على ميمنة العسكر سيباي نائب الشام ، وعلى الميسرة خاير بك نائب حلب .

فقيل أول من برز إلى القتال الأتابكي سودون العجمي وملك الأمراء سيباي نائب الشام والمماليك القرانصة دون المماليك الجلبان ، فقاتلوا قتالاً شديداً هم وجماعة من النواب فهزموا عسكر ابن عثمان وكسروهم كسرة مهولة ، وأخذوا منهم سبعة صناجق وأخذوا المكاحل التي على العجلات ورماة البندق ، فهمّ ابن عثمان بالهروب أو بطلب الأمان ، وقد قتل من عسكره فوق العشرة آلاف إنسان وكانت النصرة لعسكر مصر أولاً ، **ثم بلغ المماليك القرانصة أن السلطان قال لمماليكه الجلبان : « لا تقاتلوا شيء وخلوا المماليك القرانصة تقاتل وحدهم » .**

---

(٣٢٢) التخفيفة : عمامة توضع على الرأس .

(٣٢٣) الفقراء : مشايخ الطرق .

فلما بلغهم ذلك ثنوا عزمهم عن القتال ، فبينما هم على ذلك وإذا بالأتابكي سودون العجمي قد قتل في المعركة ، وقتل ملك الأمراء سيباي نائب الشام ، فانهزم من في الميمنة من العسكر . **ثم إن خاير بك نائب حلب انهزم وهرب فكسر الميسرة** ، وأسر الأمير قانصوه بن سلطان جركس وقيل قتل ، **ويقال إن خاير بك نائب حلب كان متواطئاً على السلطان في الباطن ، وهو مع ابن عثمان على السلطان ، وقد ظهر مصداق ذلك فيما بعد ، فكان أول من هرب هو قبل العسكر قاطبة .**

وكان ذلك خذلاناً من الله تعالى لعسكر مصر حتى نفذ القضاء والقدر . فصار السلطان واقفاً تحت الصنجق في نفر قليل من المماليك ، فشرع يستغيث للعسكر : « يا أغوات هذا وقت المروءة قاتلوا وعليَّ رضاكم » . فلم يسمع له أحد قولاً ، وصاروا يتسحَّبون من حوله شيئاً بعد شيء ، فالتفت للفقراء والمشايخ الذين حوله وقال لهم : « ادعوا إليَّ الله تعالى بالنصر فهذا وقت دعاكم » ، وصار ما يجد له من معين ولا ناصر ، فانطلق في قلبه جمرة نار لا تطفى ، وكان ذلك اليوم شديد الحر ، وانعقد بين العسكرين غبار حتى صار لا يرى بعضهم بعضاً ، وكان نهار غضب من الله تعالى قد انصب على عسكر مصر وغلت أيديهم عن القتال ، وقد قلت في هذه الواقعة : (ابن إياس ٥/٧٠)

لما التقى الجيشان مع سلطاننا	في مرج دابق قال : هل من مسعف
فله أجاب لسان حال قائلا	عرضت نفسك للبلا فاستهدف
واشتد بالجلبان رعب قلوبهم	وغدوا يقولوا أي أرض نختفي
والنهب أطمعهم لبذل نفوسهم	حتى أتاهم بالقضاء المتلف

موت السلطان الغوري :

فلما اضطربت الأحوال وتزايدت الأهوال ، خاف الأمير تمر الزردكاش على الصنجق ، فأنزله وطواه وأخفاه ، ثم تقدم إلى السلطان ، وقال له : « يا مولانا السلطان إن عسكر ابن عثمان قد أدركنا فانج بنفسك واهرب إلى حلب » . فلما تحقق السلطان ذلك نزل عليه في الحال خلط فالج أبطل شَفَتَه وأرخى حنكه ، فطلب ماءً فأتوه بماء في طاسة ذهب ، فشرب منه قليلاً ، وأدار فرسه ليهرب ، فمشى خطوتين وانقلب من على الفرس إلى الأرض ، فأقام نحو درجة وخرجت روحه ومات من شدة قهره ؛ وقيل فقعت مرارته وخرج من حلقه دم أحمر ، وقيل إنه لما رأى الكسرة عليه ابتلع فص ماس كان معه ، فلما نزل جوفه غاب عن الوجود وسقط عن فرسه ومات من وقته ، على ما قيل من هذه الإشاعة . فلما أشيع موته ، زحف عسكر ابن عثمان على من كان حول السلطان ، فقتلوا الأمير بيبرس أحد المقدمين قريب السلطان ، والأمير أقباي الطويل أمير آخور ثاني أحد المقدمين ، وقتلوا جماعة من الخاصكية ومن غلمان السلطان ممن كان حوله .

وأما السلطان فمن حين مات لم يعلم له خبر ، ولا وقف له أحد على أثر ولا ظهرت جثته بين القتلى ، فكأن الأرض قد انشقت وابتلعته في الحال[٣٢٤] وفي ذلك عبرة لمن اعتبر . فداس العثمانية المصاحف التي كانت حول السلطان بأرجل الخيول ، وفقد المصحف العثماني ، وأعلام الفقراء وصناجق الأمراء ، ووقع النهب في عسكر مصر ، وزال ملك الأشرف الغوري على لمح البصر فكأنه لم يكن

(٣٢٤) يؤكد ذلك ابن طولون في المفاكهة ٢٤/٢ بقوله : « وأما السلطان فقطع رأسه ووجه إلى اصطنبول كما قال لي المحب ناظر الجيش ، وجثته قيل دفنت عند الشيخ داود بأرض دابق ، وقيل حملت إلى حلب ودفنت بتربة له فيها كانت قديماً لما كان متولياً الحجوبية الكبرى بها ، والصحيح أنه لم يعلم حاله » .

ـ فسبحان من لا يزول ملكه ولا يتغير ـ بعدما تصرف في ملك مصر وأعمالها من البلاد الشامية والحلبية ، فكانت مدة سلطنته خمس عشرة سنة وتسعة أشهر وخمسة وعشرين يوماً ، فإنه وَلِيَ ملك مصر في مستهل شوال سنة ست وتسعمائة وتوفي في الخامس والعشرين من رجب سنة اثنتين وعشرين وتسعمائة ، فكان الناس معه في هذه المدة في غاية الضنك وقد قلت(٣٢٥) في المعنى :

اعجبوا للأشرف الغوري الذي   منذ تزايد ظُلمه في القاهرة
زال عنه ملكه في ساعة   خسر الدنيا إذاً والآخرة

قتلى المعركة :

استمرت هذه الواقعة من طلوع الشمس إلى بعد الظهر ، وانتهى الحال على أمر قدَّره الله تعالى ، فقتل في تلك الساعة من عسكر ابن عثمان ومن عسكر مصر مالا يحصى عدده ، فقتل من الأمراء المقدمين ثلاثة وهم : الأتابكي سودون العجمي وبيبرس قريب السلطان ، وأقباي الطويل ، وأسر قانصوه بن سلطان جركس ، وقتل سيباي نائب الشام ، وتمراز نائب طرابلس ، وطراباي نائب صفد ، وأصلان نائب حمص ، وغير ذلك جماعة كثيرة من أمراء دمشق وأمراء حلب وطرابلس ، وقتل من أمراء مصر جماعة كثيرة من أمراء طبلخانات وعشرات وخاصكية ، وأكثر من قتل من عسكر مصر المماليك القرانصة ، ولم يقتل من المماليك الجلبان إلا القليل ، فإنهم لم يقاتلوا في هذه الواقعة شيئاً ، ولا ظهر لهم فروسية فكأنهم خشب مسندة ، وقتل من عسكر ابن عثمان مالا يحصى ضبطه ، وقتل من أمراء مصر ومن دمشق وحلب فوق الأربعين أميراً ، وقتل في ذلك اليوم القاضي ناظر الجيش عبد القادر القصروي ، وجماعة كثيرة من الجند ، فكانت ساعة يشيب منها الوليد ويذوب لسطوتها الحديد ، فصارت في مرج دابق

---

(٣٢٥) القول لابن إياس في بدائع الزهور وقد أخذنا الوصف منه .

جثث مرمية ، وأبدان بلا رؤوس ووجوه معفرة في التراب قد تغيرت محاسنها ، وصار في ذلك المكان خيول مرمية موتى بسروج مغرق ، وسيوف مسقطة بذهب وبركستوانات فولاذ وخوذ وزرديات[٣٢٦] وبقج قماش فلم يلتفت إليها أحد ، وكل من العسكرين اشتغل بما هو أهم من ذلك .

الغنائم :

ثم إن ابن عثمان زحف بعسكره وأتى إلى وطاق السلطان ، ونزل في خيامه ، وجلس في المدورة[٣٢٧] ، واحتوى على الطشتخاناه[٣٢٨] وما فيها من القماش ، وعلى الشراب خاناه[٣٢٩] وما فيها من الأواني الفاخرة ، وعلى الزردخاناه[٣٣٠] وما فيها من السلاح ، وعلى خزائن المال والتحف ، ونزل كل أمير من أمرائه في وطاق أمير من أمراء السلطان واحتووا على ما فيها ، فاحتوى على وطاق خمسة عشر أميراً مقدم ألف ، خارجاً عن الأمراء الطبلخانات والعشرات والعسكر ، وكذلك احتوى عسكره على خيام العسكر المصري والشامي والحلبي وغير ذلك من العساكر .

لم يقع قط لملوك بني عثمان أخت هذه النصرة على أحد من الملوك قاطبة ، ولم يقع قط لأحد من سلاطين مصر أنه وقع له مثل هذه الكاينة ومات تحت صنجقة في يوم الحرب ، وانكسر على هذا الوجه أبداً ، ولا سُمع بمثل ذلك ونهب

---

(٣٢٦) الزرديات : الأسلحة .

(٣٢٧) المدورة : صدر الوطاق حيث يجلس السلطان .

(٣٢٨) الطشتخاناه : بيت الطشت وفيه أنواع الطشوت اللازمة لغسل الأيدي والقماش وغيرها ، فضلاً عن المقاعد والمخاد والسجاد الذي يلزم السلطان (صبح الأعشى ٤/١٠) .

(٣٢٩) الشراب خاناه : بيت الشراب وفيه شتى أنواع الأشربة التي يحتاجها السلطان فضلاً عن الأواني النفيسة المصنوعة من الصيني الفاخر (صبح الأعشى ٤/١٠) .

(٣٣٠) الزردخاناه : بيت السلاح والذخيرة .

ماله وبركه بيد عدوه ، غير قانصوه الغوري وكان ذلك في الكتاب مسطوراً . ولم يكن السلطان والأمراء ينظرون في مصالح المسلمين بعين العدل والإنصاف ، فرُدَّت عليهم أعمالهم ونياتهم وسلَّطَ الله تعالى عليهم ابن عثمان حتى جرى لهم ما جرى .

ثم إن ابن عثمان تحول عن مرج دابق ودخل إلى حلب فملكها من غير مانع ، فنزل بالميدان الذي بها .

الجيش المهزوم :

وأما ما كان من أمر الأمراء والعسكر بعد الكسرة ، فإنهم توجهوا إلى حلب وأرادوا الدخول إليها ، فوثب عليهم أهل حلب قاطبة ، وقتلوا جماعة منهم ونهبوا سلاحهم وخيولهم وبركهم وودائعهم التي كانت بحلب ، وجرى عليهم من أهل حلب مالا جرى عليهم من العساكر العثمانية . وكان بين أهل حلب وبين المماليك السلطانية حقد قديم منذ أن توجَّه المماليك صحبة قانباي أمير آخور كبير ، فنزلوا في بيوت أهل حلب غصباً وحصل منهم غاية الضرر ، فما صدق أهل حلب بهذه الكسرة التي وقعت لهم فأخذوا بثأرهم منهم ، فلما رأى الأمراء وبقية العسكر ذلك خرجوا من حلب على حَمِيَّة ، وتوجهوا إلى دمشق فدخلوها وهم في أنحس حال ، لا برك ولا قماش ولا خيول ، ودخل غالب العسكر إلى الشام : بعضهم راكب على حمار ، وبعضهم راكب على جمل ، وبعضهم عريان وعليه عباءه أوبشت .

ولم يقع لعسكر مصر مصيبة قط أعظم من هذه المصيبة ، وأقام الأمراء والعساكر في الشام حتى يتكاملوا . وقيل إن الأمراء لما دخلوا الشام صاروا في حر الشمس ولم يجدوا ما يستظلون به حتى صنع لهم الغلمان عرايش من فروع الشجر يستظلون تحتها .

السلطان سليم في حلب :

أما السلطان سليم فبعد أن ملك حلب وأقام فيها بالميدان ، توجَّه إليه أمير المؤمنين المتوكل على الله والقضاة الثلاثة وهم : قاضي القضاة الشافعي كمال الدين الطويل ، وقاضي القضاة محيي الدين بن الدميري المالكي ، وقاضي القضاة شهاب الدين الفتوحي الحنبلي ، وأما قاضي القضاة الحنفي محمود بن الشحنة فإنه هرب مع العسكر ، وتوجه إلى الشام ، ونهب جميع بركه وقماشه ، ودخل إلى الشام في أنحس حال .

وقيل لما دخل أمير المؤمنين على ابن عثمان وهو بالميدان قام له وعظمه وأجله وجلس بين يديه ، فأشيع أنه قال له : « أصلكم من أين » ، فقال له : « من بغداد » ، فقال له ابن عثمان : « نعيدكم إلى بغداد كما كنتم » ، والأقوال في ذلك كثيرة . فلما أراد الخليفة الانصراف خلع عليه دلامة حرير من ملابسه ، وأنعم عليه بمال له صورة ، ورده إلى حلب ، ووكَّلَ به كيلا يهرب من حلب ، وقيل لما دخل عليه قضاة القضاة وبخهم بالكلام وقال لهم : « انتوا تأخذوا الرشوة على الأحكام الشرعية وتسعوا بالمال حتى تتولوا القضاء ليش ما كنتوا تمنعوا سلطانكم عن المظالم التي كان يفعلها بالناس » . وأشاعوا من هذه أخبار العجائب والغرايب .

وعندما ملك السلطان سليم حلب سلمه أهلها المدينة بالأمان ، وهرب قانصوه الأشرفي نائب قلعة حلب وتوجه إلى الشام مع العسكر ، وترك أبواب قلعة حلب مفتحة ، فلما بلغ ابن عثمان ذلك ، أرسل إليها شخصاً من جماعته ، وهو أعرج أجرود وفي يده دبوس[٣٣١] خشب . فطلع إلى قلعة حلب فلم يجد بها مانعاً يرده ، فختم على الحواصل التي بها ، واحتوى على ما فيها من مال وسلاح

(٣٣١) دبوس : عصا بدبسه .

وتحف وغير ذلك . وقد فعل ابن عثمان أباحة[٣٣٢] أنه أخذ قلعة حلب بما فيها بشخص أعرج وفي يده دبوس خشب وهو أضعف من في عسكره .

السلطان سليم ومخلفات الغوري :

وأشيع أن ابن عثمان من حين استولى على حلب لم يدخل مدينتها غير ثلاث مرات : المرة الأولى دخلها وصعد إلى القلعة بسبب عرض حواصلها ، فلما عرضها رأى ما أدهشه من مال وسلاح وتحف فاحتوى ما كان من المال نحو مائة ألف ألف دينار ، والكنابيش والزركش وأرقاب[٣٣٣] الزركش ، والقبة والطير والسروج الذهب والبلور والطبول بازات[٣٣٤] المينة واللجم المرصعة بالفصوص المثمنة ، والبركستوانات الفولاذ ، والمخمل الملون ، والسيوف المسقطة بالذهب ، والزرديات والخوذ الفاخرة وغير ذلك من السلاح ، فرأى مالا قط رآه ولا فرح به أحد من أجداده ولا أحد من ملوك الروم ، والذي جمعه الغوري من الأموال من وجوه المظالم والتحف التي أخرجها الغوري من الخزائن من ذخائر الملوك السالفة في عهد ملوك بني أيوب الأكراد وغيرها من ملوك الترك والجراكسة ، احتوى عليها سليم شاه بن عثمان من غير تعب ، هذا خارجاً على ما كان للأمراء المقدمين والأمراء الطبلخانات والعشرات والمباشرين والعسكر قاطبة من الودائع بحلب من مال وسلاح وقماش وبرك ، فاحتوى ابن عثمان على ذلك جميعه .

وقيل إنه ملك ثلاث عشرة قلعة من بلاد السلطان ، واحتوى على ما فيها من مال وسلاح وغير ذلك من التحف . فكان الذي ظفر به سليم شاه بن عثمان في هذه السنة من الأموال والسلاح والخيول والبغال والجمال والخيام والبرك ، ولا سيما

---

(٣٣٢) اباحة : كلمة تحقير .

(٣٣٣) أرقاب : جمع رقبه وهي قماش حرير مذهب يوضع على رقبة فرس السلطان .

(٣٣٤) الطبول بازات : يقصد بها الطبول المطعمة بالمينة .

ما كان مع السلطان والأمراء والعسكر مالا ينحصر ولا يضبط .

ودخل المرة الثانية فصلى صلاة الجمعة في جامع الأُطْروش بحلب ، وخُطب باسمه ودُعيَ له على المنابر في مدينة حلب وأعمالها ، ولما صلى صلاة الجمعة زينت له المدينة ، وأوقدت له الشموع على الدكاكين ، وارتفعت له الأصوات بالدعاء ، والتف عليه الخواجا إبراهيم السمرقندي ، والخواجا يونس العادلي ، والعجمي الشنقجي ، وكان هؤلاء من أخصاء الغوري ، وكانوا مع ابن عثمان في الباطن ، ويكاتبونه بأحوال السلطان وما يقع من أخبار المملكة ، فلما فُقد السلطان أظهروا عين المحبة لابن عثمان ، وصاروا يحطون على الغوري ، ويذكرون أفعاله الشنيعة وانضموا لجماعته ونسوا إحسان الغوري لهم .

وممن كان موالساً على السلطان في الباطن خاير بك نائب حلب ، فإنه أول من كسر عسكر السلطان الغوري وهرب عن ميسرته فتوجه إلى حماة ، فلما ملك ابن عثمان حلب أرسل خلفه وخلع عليه ، وصار من جملة أمرائه ، ولبس زي التراكمة العمامة المدورة والدلامة ، وقصّص ذقنه وسماه ابن عثمان خاين بك ، لأنه خان سلطانه وأطاع ابن عثمان ، فلما جرى ذلك تسحبت مماليك خاير بك نائب حلب ، وتوجهوا صحبة العسكر إلى مصر ، ودخل هو تحت طاعة ابن عثمان .

ثم إن ابن عثمان دخل إلى مدينة حلب ثالث مرة بسبب أنه دخل بها الحمام ، وأنعم على معلم الحمام بمبلغ كبير من المال .

واستمر الخليفة والقضاة الثلاثة الشافعي والمالكي والحنبلي في الترسيم(٣٣٥) بحلب لا يخرجون منها إلا أن يأذن لهم ابن عثمان ، وأقام بحلب جماعة كثيرة من أعيان الناس بعد الكسرة ، منهم : القاضي عبد الكريم بن الجيعان كاتب الخزائن الشريفة ، وعبد الكريم بن فخيرة أحد كتاب المماليك ، وعبد الكريم بن اللاذني

(٣٣٥) الترسيم : تقابل في عصرنا الإقامة الجبرية .

مستوفي الزرد خاناه ، والريس محمد بن القيصوني ، وإمام السلطان السمديسي الذي كان قاضي قضاة الحنفية ، وإمام السلطان ابن الرومي ، والخواص مؤذن السلطان ، ورفيقه رصاص المؤذن ، ويحي بن بكير وأخوه ، وجماعة آخرون ، فهؤلاء تخلفوا بحلب بعد الكسرة وغيرهم آخرون ـ ولما دخل ابن عثمان إلى مدينة حلب نادى فيها بالأمان والبيع والشراء ، وأن كل من كان عنده وديعة للأمراء وللعسكر من خيول وسلاح وقماش يحضر ما عنده ، وإن غمز عليه ولم يحضر ما عنده شنق من غير معاودة .

أسباب الهزيمة :

تعود أسباب الهزيمة إلى عوامل عديدة :

١ ـ وضع كل من الجيشين العثماني والمملوكي :

دخل السلطان سليم معركة مرج دابق على رأس جيش كبير العدد اختلفت فيه الروايات بين ستين ألفاً ومئةِ ألفٍ ومئة وعشرين ألفاً ، فكان في الحد الأدنى للتقديرات يزيد عن ضعف الجيش المملوكي .

وقدم هذا الجيش إلى المعركة وهو يحمل انتصارات البلقان العديدة ، وقد تَوَّجَها بانتصاره على الجيش الصفوي في جالديران ، فتأجج بالروح المعنوية العالية لانتصاراته من جهة وبتجاربه المستمرة في الحروب من جهة أخرى .

ودعم هذا الجيش بالأسلحة النارية ـ المدافع والبنادق ـ مما كان يفتقر إليه خصمه .

أما الجيش المملوكي فقد كان أقل عدداً من الجيش العثماني ، إذ خرج السلطان الغوري بخمسة آلاف مقاتل من مصر ، ولو أضفنا إليهم مماليك نواب بلاد الشام ـ غزة ـ صفد ـ دمشق ـ طرابلس ـ حماة ـ وحلب ، لما اجتمع لديه أكثر من ثلاثين ألفاً كحد أعلى .

وافتقر هذا الجيش للروح المعنوية العالية بسبب ما سمعه من انتصارات الجيش العثماني ، وآخرها في جالديران ، كما افتقر إلى الخبرة القتالية بسبب توقف المماليك عن الفتح من جهة ، وعدم تعرض بلاد الشام ومصر لغزوات كبرى منذ مدة طويلة ، ولم تتعد مهمات الجيش تأديب البدو ، أو ردّ بعض الاعتداءات البسيطة على الحدود ، وقد رأينا كيف أن ثورة شاه سوار قد كلفت الدولة في عهد السلطان الأشرف قايتباي إرسال اربع حملات حتى قضي عليها .

وحافظ الجيش المملوكي على تقاليده القديمة في الفروسية والقتال ، ولم يحاول السلاطين تطوير هذا الجيش مع تطور تسليح الجيوش في ذلك الوقت ، ولم يتعظوا بما سمعوه عن عمل الأسلحة الجديدة . وهكذا دخل الجيش المملوكي معركة مرج دابق بأسلحته التقليدية المعروفة ، بينما كانت مدافع وبنادق السلطان سليم له بالمرصاد .

إن ما مر في وصف ابن إياس لمعركة مرج دابق من انتصار المماليك في بدء المعركة ، لم يكن إلا خطة عسكرية طبقها السلطان سليم في مرج دابق ، وكان قد طبقها قبل عامين مع الصفويين ، وتقضي هذه الخطة بالهجوم والتقدم أولاً ، ثم بالتراجع حتى يصبح الجيش المعادي على مرمى المدفعية والبنادق التي تعمل في الوقت المناسب ، ولا أدل على ذلك مما ورد في إحصاء لعدد قتلى المماليك الذي بلغ خمسمائة بالرصاص والبندق .

ولا شك أن الفروسية في الجيش المملوكي لا تتلاءم مع حمل البنادق والقتال بها ، لا بل وحتى بعد معركة مرج دابق بقي المماليك يصرون على عدم استعمال الأسلحة النارية .

وافتقر الجيش المملوكي إلى الوحدة في التشكيل ، فقد تألف من المماليك الذين رافقوا السلطان الغوري عند خروجه من مصر ، مع مماليك نواب بلاد

الشام ، عدا عن أن التنافس والبغضاء كانت تدب بين فرق الجيش الذي تألف من المماليك الجلبان والمماليك القرانصة ومماليك الأمراء والنواب ، وكان الغوري قد أكثر من المماليك الجلبان ، وكان يميزهم بالأعطيات على القرانصة رغم قلة خبرتهم لحداثة سنهم . ومما رواه ابن إياس أن السلطان قد قال لمماليكه الجلبان « لا تقاتلوا شيء وخلوا المماليك القرانصة تقاتل وحدهم » وكان هدفه من ذلك التخلص من المماليك القرانصة لضمان إخلاص الجلبان له ، وقد علم القرانصة بذلك أثناء القتال فأخذوا يتخاذلون .

٢ ـ الخيانة :

لعبت الخيانة دوراً كبيراً في تقويض الدولة المملوكية ، سواء أكان ذلك قبل أو أثناء أو بعد معركة مرج دابق ، فقد سعى كبار رجال الدولة المملوكية إلى تحريض السلطان سليم سراً وتشجيعه على غزو الدولة المملوكية .

وقد رأينا كيف هرب خوشْقدم شاد الشون إلى السلطان سليم ، وكشف له مساوئ حكم السلطان الغوري ومظالمه ، واستياء السكان منه ، ومن المحتمل أنه لعب دوراً بالاتصال بنائبي حماة ـ خاير بك ـ وحلب ـ جانبردى الغزالي ـ .

وجاءت الخيانة من أكثر المقربين إلى السلطان قانصوه الغوري وهم :

إبراهيم السمرقندي ، يقول ابن إياس : إنه من أهل المدينة المنورة[٢٣٦] ، وكان قد تجول في بلاد العجم والروم ويعرف اللغة التركية ، وقد دخل مصر وتقرب من السلطان الغوري وأصبح من جملة أخصائه ، والتف حول سليم شاه بعد مرج دابق ، وقيل إنه حَسَّنَ له دخول مصر ، وقد أرسله سليم شاه إلى مصر قبل معركة الريدانية للتجسس ، فقدم إلى أحد العربان وبات عنده ، فلما عرفه

(٢٣٦) تدل نسبته (السمرقندي) ومعرفته للتركية إنه تركي الأصل من آسيا الوسطى .

حز رأسه ليلاً وأحضره إلى السلطان طومان باي فكافأه بألف دينار . وقد ظهر أنه كان يراسل السلطان سليم مع يونس العادلي وذلك من الوثائق التي ضبطت في منزله بالقاهرة في رمضان سنة ٩٢٢ هـ[٣٣٧] .

وكان يونس العادلي من أكثر المقربين إلى السلطان الغوري ، وكان يعتمد عليه في المهمات الخاصة ، ففي سنة ٩١٦ هـ أرسله إلى الأناضول لشراء الخشب والحديد والبارود ، وفي سنة ٩٢٠ هـ كلفه بصحبة الخاصكي ماميه بالسفر إلى دمشق لخطبة ابنة نائب الشام سيباي إلى ابنه محمد ، وقد حضرا إلى دمشق وعقدا العقد على الابنة الصغرى شقراء بسبب وفاة الكبرى وهم في طريقهم إلى دمشق . وقد انضم للسلطان سليم في حلب ، ودخل معه إلى دمشق ، ثم دخل القاهرة بعد معركة الريدانية صحبة خوشْقدم الذي سبق أن فر إلى السلطان سليم وحرضه على غزو بلاد الشام ومصر . وقد تأكد أنه كان يراسل السلطان سليم ويخبره بأحوال السلطان وأمور الدولة[٣٣٧] .

أما العجمي الشنقجي فقد كان نديماً ومضحكاً للسلطان ، يتقدمه في المواكب السلطانية ، وكان الأمراء يعظمونه ويقفون له عند دخوله ، ويتوسطه الناس لقضاء حوائجهم لدى السلطان ، وقد أرسله السلطان في مهمة سرية بشهر رمضان سنة ٩٢١ هـ إلى الشاه إسماعيل الصفوي مع فيلين هدية ، وأشيع في حينه أنه ذهب إلى نائبي الشام وحلب ، وعاد في ربيع الآخر سنة ٩٢٢ هـ وظُنَّ أنه مات لطيلة غيبته ، ويبدو أنه أطلع السلطان سليم على مهمته السرية ومراسلات الغوري والصفوي[٣٣٨] .

---

(٣٣٧) بدائع الزهور ٨٤/٥ .

(٣٣٨) مفاكهة الخلان في حوادث الزمان لابن طولون(٢٣/٢).

ولعب خاير بك نائب حلب دوراً فعالاً في سرعة هزيمة الجيش المملوكي ، إذ كان يقف على ميسرة الجيش وانسحب من المعركة بعد أن أشاع مقتل الغوري فسادت الفوضى بين المقاتلين ، وأصله من صمصوم(٣٣٩) قدمه والده للسلطان الأشرف قايتباي الذي جعله من جملة المماليك السلطانية ، ثم قرره خاصكيا ، وأخذ يترقى في المناصب إلى أن جعله السلطان قانصوه الغوري حاجب الحجاب ، وبقي كذلك حتى توفي شقيقه قانصوه البرجي نائب الشام ، فنقل السلطان الغوري سيباي من نيابة حلب إلى نيابة الشام ، واستقر خاير بك في نيابة حلب من سنة ٩١٠ هـ ، وكان على اتصال بالسلطان سليم ، وقد كتب إلى السلطان الغوري في صفر سنة ٩٢٢ هـ محاولاً منعه من القدوم إلى حلب(٣٤٠) ، وانسحب بقواته من مرج دابق وتوجه إلى حماة ، ثم عاد إلى حلب بعد دخول السلطان سليم إليها ، وصار من جملة أمرائه ، فلبس زيهم ، وقص ذقنه ، وسماه ابن عثمان خاين بك لخيانته لسلطانه ، ودخل دمشق صحبة يونس العادلي تمهيداً لقدوم السلطان سليم ، ورافقه إلى مصر ، وأقره السلطان سليم على نيابة مصر في شعبان سنة ٩٢٣ هـ وبقي فيها حتى توفي في ذي القعدة سنة ٩٢٨ هـ . وكان جباراً عسوفاً سفاكاً للدماء داهية كثير الخداع ، وقد حَسّنَ للسلطان سليم التوجه إلى مصر وعَرَّفَه ما يصنع ، ودفعه لشنق السلطان طومان باي على باب زويلة ، ولم تكن تحصى مساوئه .

وكان جانبردي الغزالي نائب حماة أكثر دهاءً من خاير بك ، فقد انسحب من مرج دابق مع مماليكه متظاهراً بالهزيمة ، وحضر إلى دمشق مع محمد بن السلطان الغوري ، وتولى نيابتها باتفاق الأمراء الذين اجتمعوا فيها ، ثم غادرها إلى مصر ، ولعب دوراً كبيراً في انتصار السلطان سليم في معركة الريدانية ، فقد

---

(٣٣٩) صمصوم : مدينة تقع على ساحل البحر الأسود شمال تركيا (المصور ١) .

(٣٤٠) راجع الصفحة ٢٣٥ من هذا الكتاب .

قاد تجريدة من ألفي مملوك أوقعهم في كمين نصبه سنان باشا وزير السلطان سليم في بيسان بفلسطين ، لم ينج منهم سوى العدد الضئيل ، وعاد إلى القاهرة متظاهراً بجرحه في المعركة ، وأشار على السلطان طومان باي بحفر نفق لنصب المدافع فيه وغمرها بالرمال بغية إخفائها عن القوات العثمانية قبل معركة الريدانية ، وكشف مواقع المماليك وتوزيعهم لخاير بك سراً ، فكان أن التف العثمانيون حول المدافع والمماليك ، قبل أن يتمكن المماليك من استعمالها ، فكانت هزيمة المماليك في الريدانية بعد ساعات قليلة من بدء المعركة .

وكشف جانبردي الغزالي نفسه بعد دخول السلطان سليم القاهرة بحجة طلبه للأمان ، وتولى نيابة الشام بعد ذلك حتى وفاة السلطان سليم ، فقام بثورته على السلطان سليمان القانوني مما سيرد ذكره .

السلطان سليم في دمشق :

بدأ وصول الأمراء والعساكر المهزومة إلى دمشق من مرج دابق بدءاً من الثالث من شعبان ، وقد أغلقت أبواب البلد كلها ، وشاعت الفوضى فيها ، وانتشر الزعر وقتلوا خلقاً كثيراً .

ووصل إليها محمد بن السلطان الغوري ، ومعه جان بردي الغزالي نائب حماة ، وبعض الأمراء والمباشرين ، وأخبروا بمقتل السلطان ، وناظر الجيش القصروي ، ونائب الشام سيباي .

وفي الخامس من شعبان اتفق جماعة من الأمراء العائدين من مرج دابق على نيابة جان بردي الغزالي للشام ، وتم ذلك في إصطبل دار السعادة(٣٤١) ، وولوا

(٣٤١) إصطبل دار السعادة : موقع إصطبل دار السعادة هو مقر وزارة العادلية في دمشق حالياً ،أما دار السعادة فكانت شرقيها داخل السور غربي جامع الأحمدية بسوق الحميدية يفصل بينها الطريق فقط ، وهي دار أيوبية الأصل كان الولاة المماليك ينزلون فيها . « راجع ولاة دمشق في عهد المماليك طبعة دار الفكر ص ٣٨ للاطلاع على المزيد من التفاصيل عنها » .

نيـابـة صفـد وطرابلس لشخصين آخرين ، ونودي بـالأمـان في دمشـق ، وفتحت المدينـة أبوابهـا ، ومنع الغزالي العسـاكر من السفر إلى القـاهرة ريثما يـأتي جواب طومان باي الدوادار الكبير في مصر .

وفي العشرين منه وصل إلى دمشق متسلما[٣٤٢] حماة وحمص ـ وكان الغزالي قد ولاّهما قبل ثلاثـة أيـام ـ وأخبرا أن سليم شـاه قـد ولّى فيهما متسلمين من عنـده ، فسمح الغزالي للعساكر بالسفر إلى مصر ، وأخذ يجهز نفسه للسفر ، وغـادر دمشق محمد بن السلطان الغوري وزوجته ابنـة سيبـاي نـائب الشـام المقتول ووالـدتهـا ، وعدد كبير من الأمراء والعساكر والمباشرين وأرباب الوظائف .

وفي الثـامن والعشرين منـه ، وصل متسلم سليم شـاه إلى القـابون الفوقـاني ، واسمـه مصلـح ميزان ، ووجــه اثنين من الخــاصكيــة ومعهما إبراهيم السمرقنــدي ويونس العادلي وابن عطية التـاجر إلى دمشق ليكشفوا هل يسلم أهـالي دمشق أم يقاتلوا ؟.

وكان قد اجتمع بعض مشايخ دمشق ومشـايخ الحـارات في المصلى بميـدان[٣٤٣] الحصى واتفقوا على تسليم البلد ، فاستقبل الأهالي الخاصكيين ومن معهما بـالتهليل مع المناداة بالأمـان إلى أن وصلوا إلى بـاب الفرج[٣٤٤] ، فوجهوا الأمير إسماعيل بن الأكرم إلى نـائب القلعـة ، فـامتنـع عن تسليمهـا ، فسلمهم الأهـالي البلـد وفتحـوا أبوابها .

ثم دخل المتسلم مصلح ميزان المدينـة ، ومعـه نحو مـائتي رجل ، وزع بعضهم عند أبواب الحارات ، وحضر إلى الجامع الأموي ومعه القضاة الأربعة ، وكتبوا إلى سليم شاه بما حدث لينادي بعساكره تجنب الناس .

(٣٤٢) المتسلم : الحاكم .

(٣٤٣) ميدان الحصى : هو حي الميدان التحتاني في دمشق حول جامع باب مصلّى .

(٣٤٤) باب الفرج : هو باب المناخلية قرب سوق النحاسين حالياً بدمشق .

وفي التاسع والعشرين منه دخل دمشق خاير بك نائب حلب السابق ، وقد حلق لحيته ولبس اللباس العثماني ، وصحبته يونس العادلي ومصلح ميزان ، واجتمعوا بنائب قلعة دمشق علي باي .

ثم دخل نائب الشام من قبل سليم شاه واسمه يونس باشا ونزل بالمرجة ، وحضر إليه خاير بك ، ثم ذهب وأحضر نائب القلعة ، واتفق النائب معه على أن يبقى في القلعة إلى أن يحضر السلطان سليم .

وتتابع وصول العساكر إلى دمشق فنزل بعضهم على أناس خارج دمشق كرهاً ، فاشتكى هؤلاء إلى النائب فربط العسكر بالحبال وضرب أعناقهم ، فارتدع بقية العسكر بهم .

وفي يوم السبت الأول من رمضان ، وصل السلطان سليم إلى المصطبة في القابون الفوقاني بجيش قيل إن عدته مائة وثلاثون ألفاً . وأمامه ثلاثون عربة ، وعشرون قلعة على عجلات يسحب كلاً منها بغلان ولما أطلقوا البارود في المصطبة ، ظن أهل دمشق أن السماء انطبقت على الأرض ، وخلفهم النايات والطبول النقارة ، وخلفهم المشاة ورماة البندق ، وخلفهم الخنكار(٣٤٥) سليم الملك المذكور وخلفه السناجق والطوخان(٣٤٦) والعساكر على حسب طبقاتهم .

---

(٣٤٥) الخنكار : كلمة فارسية الأصل استعملت بمعنى الملك أو السلطان .

(٣٤٦) الطوخان : جمع طوخ وتقابل الجاليش عند الأيوبيين والماليك وهي عمود خشبي يرفع على رأسه شعار الدولة وهو كرة مذهبة قد يعلوها هلال وفي أسفل الكرة خصلة من ذيل حصان مصبوغة باللون الأحمر .

صفة معسكر السلطان في القابون :

يصف ابن طولون المعسكر في المفاكهة ٢ / ٣١ .

« وفيه ذهبت إلى وطاق الخنكار ، قاصداً الاجتماع بالمدرسين الذين معه ويقال إن عدتهم ستة وثلاثون مدرساً حنفياً ، فلم يتيسر ذلك لعدم المعرفة بلسانهم فدرت فيه فذهلت من كثرته وتعجبت من الأسواق التي فيه ، وقلما تروم شيئاً إلا تجده فيها وهي سائرة معه من بلاده ، فمن صنف اللحامين خمسة عشر قالياً للحم ومثلها من الطباخين لعدة ألوان ، ومثلها حكماء ، ومثلها جرايحة ، ومثلها بياطرة ، ومثلها أساكفة ، ومثلها حدادون ، ومثلها علافون ، وهذه الأعداد تقريباً ، وغالب ظني أنها أكثر من ذلك ، إلى غير ذلك من السُّوْقة .

ثم ذهبت إلى العربات والقلاع ، فتفرجت فيها ، ولم أرها قبل ذلك فإذا هي أمر عجيب تدل على تمكنه ، والعربات مجنزرة بعضها في بعض بحيث إذا صفت تكون كالسور ، وكل عربة ترمي بندقة ملء كف الرجل من رصاص ، ولهذا البندق صندوق تحتها ، وهي مركبة عليه في طول الشخص .

ثم ذهبت إلى مخيم الخنكار فلم أُمَكَّن من القرب به ، وتفرجت على طبوله فإذا كل طبل قدر حمولة رجلين يحمل كل اثنين منها على جمل ، ومخيمه على نفس المصطبة والعسكر بالبعد منه قدر رمية حجر من كل جانب وهم محتاطون به كالسور على البلد » .

وفي يوم الخميس السادس من رمضان دخل الخنكار إلى دمشق لأول مرة من المصطبة في القابون إلى حمام الحموي في عمارة السلطان قايتباي[٣٤٧] بمحلة مسجد

(٣٤٧) حمام الحموي : في زاوية أول الطريق المتحه من مسجد الأقصاب إلى باب السلام بدمشق مسجد صَغير يلاصقه من جهة الغرب حمام السلطان قايتباي ، وعلى رأس الحمام اسم قايتباي =

القصب ، وكان أمامه عدد كبير من الخاصكية ، وخلفهم رماة البندق وخلفهم الشاووشية ثم هو ، وخلفه مملوكان أمردان بشعور لابسين كوفيتين من ذهب ، وخلفهما جمع من عسكره ، وكان قبل دخوله بلحية لطيفة ، حلقها بالحمام كغالب عسكره ثم ركب ورجع المصطبة .

وفي اليوم التالي الجمعة أتى إلى الجامع الأموي ودخل من الباب الشمالي المسمى الناطفانيين[٣٤٨] ثم مشى بخط مستقيم إلى أن أتى من باب جانب السدة ثم مشى إلى تحت قبة النسر ثم إلى المقصورة ، وخطب القاضي الشافعي الولوي بن الفرفور ، واستطرد في الخطبة الأولى إلى ذكر السبعة الذين يظلهم الله يوم لا ظلّ إلا ظله ومنهم الإمام العادل وطبق ذلك على ملك الروم الحاضر ، وذكر في الثانية نسبه باختصار عند الدعاء له ، ولقبه بالملك المظفر ، وصرّح بأنه سلطان الحرمين الشريفين .

وانصرف السلطان سليم بعد الصلاة وخرج من المكان الذي دخل منه ، وأرسل للخطيب ثلاثة آلاف عثماني ومثلها للمؤذنين ومثلها لأئمة الجامع وألفاً لبواب المقصورة ومائة رأس من الغنم ، ثم عاد إلى المصطبة .

ويقول ابن طولون[٣٤٩] « وفي يوم الثلاثاء حادي عشره هرب هؤلاء الذين لبسوا الخلع من دمشق دغشة وهجم العساكر عليها وعلى ضواحيها للسكنى بها ،

= وهذا الحمام يسمى « حمام السلطان » ، والظاهر أن عمارة قايتباي كانت على مقربة من هذا الحمام . وهي عبارة عن وكالة (خان تجاري) ، وقد دثرت هذه العمارة وبقي الحمام ، ويبدو أن حمام الحموي كان قريباً من هذه العمارة ، وهو منسوب إلى الأمير عز الدين ايبك الحموي . انظر كتابنا : ولاة دمشق في عهد المماليك ص ٧٩ .

(٣٤٨) باب الناطفانيين : هو باب العمارة بدمشق وسمي بهذا الاسم لشهرة حي العمارة بصنع نوع من الحلوى ما زال يصنع في الأعياد ويدعى « الناطف » .

(٣٤٩) المفاكهة ٣٤/٢ .

فأخرجت أناس كثيرة من بيوتها ، ورميت حوائجهم ومؤنهم ، وطرح جمع من النساء الحبالى ، وحصل على الناس شدة لم تقع لأهل دمشق وضواحيها قطّ ، حتى سافر من له قدرة ، وبعضهم سكن الجوامع والمدارس بحريمهم ، وأخرجت من بيتي ورُميت كتبي ، ولم يوقروا أحداً ، لا صغيراً ولا كبيراً ، ولا أهل القرآن ، ولا أهل العلم ولا الصوفية ولا غيرهم » .

واستمر الأمر هكذا إلى يوم الخميس ثالث عشره ، فنزل السلطان إلى دمشق وسكن في بيت تنم نائب غيبة سيباي ـ الذي سافر إلى مصر ـ خلف المدرسة النورية(٣٥٠) ، وجعل قيسارية القواسين(☆) مطبخاً لهم ، ورحل أهل المحلة كلهم .

وفي يوم الجمعة رابع عشره فرّق السلطان سليم على جميع أئمة الجوامع والمساجد والمدارس ومؤذنيهم وخطبائهم و قيّموها وسكانهم مالاً كثيراً ، وأكثر ما ناب الشخص منهم مائة درهم في دمشق وضواحيها كالصالحية واستمر في التفرقة ثلاثة أيام . كما ذهب فيه أيضاً إلى الربوة وتفرج بها وعاد على النيرب الأعلى ونزل على الجسر الأبيض إلى منزله بيت تنم .

وفيه أيضاً عزل عن نيابة دمشق يونس باشاه وولى مكانه الأمير شهاب الدين أحمد بن يخشي .

وفي ليلة الأثنين سابع عشره جاء السلطان نحو نصف الليل إلى الجامع الأموي ليتأمله ، فدخل إليه من باب البريد في أناس قليلة وصلى بالمقصورة ، وقرأ في المصحف العثماني ، وزار قبر رأس سيدنا يحي بن زكريا عليهما السلام ، ثم قبر هود عليه السلام ثم صعد المنارة الشرقية . ثم زار بالكلاسة شخصاً صوفياً يقال

---

(٣٥٠) المدرسة النورية وتقع في سوق الحرير بدمشق .

(☆) قيسارة القواسين : تقع في سوق السلاح قرب سوق الحرير .

له الشيخ محمد البلخشي الصوفي الحنفي ومشى معه إلى داخل الجامع وجلس معه ساعة وعرض عليه دراهم فأبى أخذها ويقال إنه وصاه بالرعية .

وفي يوم السبت ثاني عشريه خرج إلى قبة يلبغا متفرجاً ثم رجع وقت الظهر .

وفي يوم الثلاثاء تاسعه عزم الخنكار على هدم ما حول القلعة وسور البلد من البيوت والدكاكين ، فقوّمها المعلم أحمد بن العطار فبلغ التقويم مائة وخمسين ألف دينار ، فرجع الخنكار عن ذلك وقال : « أنا ما جيت إلا أعمّر وما جيت أخرب » .

وفيه عرض عليه ثوب الكعبة مع طرازه المكتتب عليه اسمه واسم آبائه وثوب المحمل وقد عمله من قماش كفاوي .

وفيه عين لبيت المقدس وغزة وما حواليها من عساكره الرومية عشرة آلاف للتوجه إلى تلك الأماكن ليمسكوها خوفاً من أن يسبق إليها العسكر المصري ويقطعوا على جماعته المعينين للتوجه إلى مكة المشرفة صحبة الثوب المذكور والحاج .

وفي يوم الاثنين خامس عشر شوال فرض على أهل الحارات وكذا على النصارى واليهود ليتوجهوا إلى تعزيل وعرة سعسع[٣٥١] والطريق إلى جسر يعقوب[٣٥٢] مقابل عشرة دراهم يومياً للعامل فامتثل الناس للأمر .

وعمّر أثناء ذلك المدرسة النورية ودخل إليها وجلس بها وجعل بها صناديق المال .

---

(٣٥١) سعسع بلدة تقع على طريق دمشق القنيطرة إلى الجنوب من دمشق والمشهور عن أراضيها أنها بركانية وعرة . (المصور) .

(٣٥٢) جسر يعقوب ويقع على الحدود السورية الفلسطينية فوق نهر الشريعة (الأردن) .

وفي يوم الخميس سادس عشر ذي القعدة جاء الخنكار إلى قبر المحيوي بن العربي فزاره وفرّق دراهم كثيرة على أهل الصالحية عند قبره وخارجه ، ثم زار مزارات كثيرة كبرزة والشيخ رسلان وباب الصغير وفرق دراهم عند كل منها ، ذلك أنه جاءته البشارة بأخذ عسكره لبيت المقدس وغزة وما حولها فعزم على التوجه خلف عسكره لأخذ مصر من أيدي الجراكسة فأراد التوديع لمآثر دمشق .

وفي يوم الأحد تاسع عشريه طلع مخيم الخنكار ونصب خارج البلد .

وفي يوم الاثنين سافر الخنكار وخرج من دمشق أول الفجر ومعه الشموع والنايات والطبول والعربات وشرع العسكر في الذهاب وصحبتهم يونس العادلي والخليفة .

اضطرابات القاهرة وسلطنة طومان باي :

بدأت أخبار هزيمة المماليك في مرج دابق تصل إلى القاهرة في شعبان سنة ٩٢٢ هـ فاضطربت أحوال الناس وأقام أهالي القتلى العزاء ، ونعي السلطان ومن قتل من الأمراء . ولما تحقق موت السلطان الغوري توقف الدعاء باسمه على المنابر ، بل دعى الخطباء باسم الخليفة فقط وبعضهم قال : اللهم ولِّ علينا خيارنا ولا تولِّ علينا شرارنا .

وتزايدت الاضطرابات مع ورود المريد من الأخبار ، فقام العربان بنهب بعض القرى وقتل الفلاحين ، وقتل أولاد شيخ العرب الأمير أحمد بن بقر عدداً كبيراً من التجار والعساكر .

وحاول المماليك الجلبان نهب خان الخليلي وقتل بعض تجاره بحجة أنهم من الأروام أعوان ابن عثمان فأوقفهم بعض الأمراء .

وتزايد في رمضان عودة العساكر والأمراء المهزومين ومن استطاع من القضاة وأصحاب المناصب الهرب من ابن عثمان إلى بِلْبيس .

وعندما تكامل دخول الأمراء إلى القاهرة ، أجمعوا على سلطنة الأمير طومان باي ورشحوه للسلطنة فصار يمتنع عن ذلك غاية الامتناع وهم يصرون عليه وهو ممتنع لأسباب شتى : منها أن خزائن بيت المال فارغة ولا يملك ما ينفقه على العسكر ، ومنها خطر ابن عثمان في الزحف على القاهرة والخشية من تقاعس الأمراء في الخروج إليه ، ومنها خشيته من الغدر به وخلعه وسجنه بثغر الاسكندرية ، وحلف الأمراء على المصحف الشريف بأنهم إذا سلطنوه لا يخامرون عليه ولا يغدرونه ولا يثيرون فتناً وأنهم ينتهون عن مظالم المسلمين قاطبة .

وتمت له البيعة يوم الجمعة في الرابع عشر من رمضان ، بحضور أمير المؤمنين يعقوب والد الخليفة المتوكل على الله(٣٥٣) ، وجماعة من القضاة وسائر الأمراء المقدمين وغيرهم . وقد أحضرت له خلعة السلطنة وهي الجبة السوداء والعمامة السوداء والسيف البداوي ، ونودي باسمه في القاهرة وخطب من يومها باسمه على المنابر ، وكان له من العمر ثمان وثلاثون سنة ، وهو آخر سلاطين المماليك البالغ عددهم سبعة وأربعون . وكان طومان باي قد تولى نيابة الغيبة في مصر عوضاً عن السلطان الغوري بعد سفره إلى حلب ، فسيَّر الأمور بحكمة ورضي الناس عنه وأطاعه من بقي من العسكر في مصر .

محاولة إعادة تنظيم الدولة :

وكانت أولى أعماله إعادة توزيع الوظائف والمناصب على الأمراء ، بعد أن قتل وأسر عدد كبير من أصحاب هذه المناصب في مرج دابق ، فأقر سودون الشهابي أتابك للعسكر عوضاً عن سودون العجمي ، وقرر جان بردي الغزالي في

(٣٥٣) كان الخليفة وقتئذٍ المتوكل على الله في الأسر عند السلطان سليم ، وقد بايع والده يعقوب طومان باي نيابة عن ابنه ، بعد أن أبرز للقضاة وكالة مطلقة من ولده المتوكل قبل سفره صحبة السلطان قانصوه الغوري إلى حلب .

نيابة دمشق بدلاً من سيباي ، وعين أركماس من طرباي أمير سلاح ، وقرر أنصباي من مصطفى أمير آخور كبير بدلاً من محمد نجل السلطان الغوري ... وغيرهم من الأمراء الذين أقرهم بالمناصب الشاغرة .

وعمل على استرضاء العربان لكسب ودهم ، فخلع على شيخ العرب الأمير أحمد بن بقر رغم ما قام به أولاده من قتل ونهب عند ورود أخبار الهزيمة وعودة العساكر من الشام .

وحاول منع المظالم عن الناس ، وذلك برفضه فرض ضرائب جديدة ، رغم حاجته للمال ، وأنزل العقاب ببعض من كان ينزل بالرعية ألوان الظلم ومنهم الزيني بركات بن موسى .

وفي ذي القعدة قرر السلطان قضاة المذاهب الأربعة دون أن يأخذ من أحد منهم درهماً واحداً ، ومنعهم من السعي إلى القضاء بالمال ، وقال لهم : أنا لا أقبل رشوة في ولاية أحد من القضاة فلا تأخذوا رشوة من الناس أبداً .

قصاد ابن عثمان إلى القاهرة :

في الحادي عشر من ذي القعدة خرج بعض المماليك السلطانية نحو المطرية[٣٥٤] ، فرأوا جماعة مقبلين نحو بركة الحاج[٣٥٤] ، فلما قربوا منهم فإذا هم من جماعة ابن عثمان ، فقالوا لهم : من أنتم ، فقالوا : نحن قصاد من عند السلطان سليم شاه بن عثمان ، وكانوا نحو خمسة عشر إنساناً ، وفيهم القاصد الكبير وهو رجل شيخ بلحية بيضاء وعليه ثياب مخمل ، ورأوا صحبتهم شخصاً من مصر يقال له عبد البر بن محاسن كان كاتب الخزانة عند الأتابكي سودون العجمي ، فلما قتل وملك ابن عثمان حلب والشام تحشّر فيه بواسطة يونس العادلي والسمرقندي ، فلما أرسل ابن عثمان هذا القاصد ما جسر المجيء من على غزة ، فإن نائب الشام

---

(٣٥٤) انظر موقعها على المصور رقم ٢ .

جان بردي الغزالي كان بالقرب من غزة فرشى القاصد بعض العربان بمبلغ كبير من المال ، حتى أتوا بهم من طريق غير الدرب السلطاني ، وطلع بهم من على التيه[٣٥٥] وأتوا بهم إلى عجرور ، فما شعر بهم أهل مصر إلا وهم وسط المدينة .

وقبض المماليك على القاصد وجماعته وعلى ابن محاسن وعلى ثلاثة من العربان كانوا معهم ، وبينما هم على ذلك رأوا ثلاثة أنفار من الأروام الذين في خان الخليلي قد أتوا إليهم وسلموا عليهم وباسوا أيديهم ، فقبض عليهم المماليك وقالوا لهم : « من أين علمتم أن هذا القاصد يجيء اليوم حتى أتيتم إليه ، ما أنتم إلا جواسيس من عند ابن عثمان » .

وعندما أحضروا عبد البر بن محاسن إلى السلطان ، أخذ يطنب في أوصاف ابن عثمان وفي تزايد عظمته ، وزعم أنه لما دخل إلى حلب قطع في يوم واحد ثمانمائة رأس من جماعة أهل مصر ممن تخلفوا بحلب ، وادعى أن عساكره تبلغ أكثر من ستين ألفاً ، وأنه خطب باسمه على المنابر من الشام إلى بغداد ، وأنه لما دخل الشام وملكها شرع ببناء عمارة سور وأبراج من القابون إلى آخر مدينة دمشق ، وجعل فيه أبواباً تغلق على المدينة ، وادعى أنه يقول : « ما أرجع حتى أملك مصر وأقتل جميع من بها من المماليك الجراكسة ... » وأخبر بكثرة فتك عساكره بالمدينة وارتكابهم الفواحش . فلما أطنب ابن محاسن في أخبار ابن عثمان ، حنق منه السلطان وقال له : « أنت جاسوس من عند ابن عثمان أتيت لتكشف عن أخبارنا وتطالعه بذلك » ، فرسم بسجنه في البرج بالقلعة ، ثم شفع به الأتابكي سودون الدواداري فأطلق من البرج ، ورسم السلطان بشنق اثنين من العربان الذين أتوا بالقاصد من الطريق التي كانت مخفية عنهم ، وأشيع أنه حضر صحبة القاصد مع جماعة ابن عثمان نحو أربعين نفراً اختفوا في القاهرة ، فلما بلغ السلطان

(٣٥٥) التيه : هضبة في وسط سيناء تقع إلى الشمال من جبل الطور تنحدر ببطء نحو الشمال باتجاه البحر المتوسط .

ذلك نادى في خان الخليلي بأن أحداً لا يأوي عنده غريباً من جماعة ابن عثمان ، ومن غمز عليه بأن عنده أحداً من العثمانية شنق على دكانه من غير معاودة .

رسالة سليم شاه إلى طومان باي :

وأرسل السلطان لأخذ المطالعات التي أحضرها القاصد ولم يقابله ، فوجد معه مطالعات للأمراء والمباشرين وأعيان مصر ، وكان من مطالعة ابن عثمان للسلطان طومان باي « من مقامنا السعيد إلى الأمير طومان باي ، أما بعد فإن الله تعالى قد أوحى إليَّ بأن أملك الأرض والبلاد من المشرق إلى المغرب كما ملكها الاسكندر ذو القرنين » . وفي المطالعة وعد ووعيد وتشديد وتهديد منه : « إنك مملوك منباع مشترى ولا تصح لك ولاية ، وأنا ملك ابن ملك إلى عشرين جد ، وقد توليت الملك بعهد من الخليفة ومن قضاة الشرع » وذكر في مطالعته : « وأني أخذت المملكة بالسيف بحكم الوفاة عن السلطان الغوري ، فاحمل لي خراج مصر في كل سنة كما كان يحمل لخلفاء بغداد » ، ثم قال : « أنا خليفة الله في أرضه وأنا أولى منك بخدمة الحرمين الشريفين » ، ثم قال : « وإن أردت أن تنجو من سطوة بأسنا فاضرب السكة في مصر باسمنا وكذلك الخطبة وتكون نائباً عنا بمصر ، ولك من غزة إلى مصر ولنا من الشام إلى الفرات ، وإن لم تدخل تحت طاعتنا وإلا أدخل إلى مصر وأقتل جميع من بها من الأتراك حتى أشق بطون الحوامل وأقتل الجنين الذي في بطنها من الأتراك ـ المماليك ـ » وفي آخر المطالعة : « وما كنا معذبين حتى نبعث رسولاً » .

فلما قرئت هذه المطالعات بكى السلطان وحصل له غاية الرعب . وما إن أشيع مضمونها بين الناس حتى اضطربت الأحوال وبدأ سكان القاهرة ينزحون منها إلى الضواحي ، وركب بعضهم المراكب متجهاً إلى الصعيد ، وأشيع أن خاير بك الذي دخل تحت طاعة ابن عثمان أرسل مطالعات إلى بعض الأمراء

المقدمين يرغبهم فيها بالدخول في طاعة ابن عثمان ، ويذكر محاسنه وعدله في الرعية .

وصول العثمانيين إلى غزة :

ووصلت الأخبار إلى القاهرة بإرسال ابن عثمان قواته لاحتلال غزة ، فشكل السلطان تجريدة من ألفي مملوك في ذي القعدة ، وعين عليهم جان بردي الغزالي ، وفيما كان عساكر التجريدة يتجمعون في الريدانية ، حضر دَوَادار خاير بك نائب حلب ـ السابق ـ ، وزعم أنه فرَّ من ابن عثمان ، وأن ابن عثمان قد أرسل نحو خمسة آلاف فارس صحبة ابن سوار ، وقد أشرفوا على أخذ مدينة غزة ، وأن نائب غزة هرب منها ، فاضطربت الأحوال وتنكد السلطان وأمر بخروج التجريدة فوراً دون تأخير . وفي اليوم الثاني تزايدت الإشاعات بسقوط غزة بيد عسكر ابن عثمان وهروب نائبها ، وخرج عساكر التجريدة في العاشر من ذي القعدة وعلى وجه السرعة ، وخرج أيضاً الأمير قضا بردي الأشرفي أحد المقدمين ونائب الاسكندرية ومعه ثلاثمائة مملوك .

معركة بيسان :

وفي السادس عشر من ذي القعدة ، التقى سنان باشا الوزير الأعظم لسليم شاه وجان بردي الغزالي ـ الذي تولى نيابة دمشق من قبل السلطان طومان باي ـ ودولتباي نائب غزة ، وقضا بردي نائب الاسكندرية ، وكانوا كشافَةَ العسكر المصري في بيسان على نهر الشريعة (الأردن) ، فاقتتلوا وكان الغزالي ورفقاؤه قد قصدوا كبس سنان باشا فجاء النذير ، فأخلى لهم الوطاق ـ الخيمة ـ حتى أخذوه ، ثم رجع عليهم فكسرهم وجرح الغزالي وولى هارباً ، وقتل قضا بردي ، وعدد كبير من العساكر ، واستولى عسكر ابن عثمان على أسلحة الغزالي وصحبه .

وفي ذي الحجـة أشيـع بـأن القـاصـد ومن معــه قــد أغرقـوا ليـلاً بــأمر من السلطان .

وفي الخـامس من ذي الحجـة دخل جـان بردي الغـزالي والأمراء والعسـاكر المهـزومـة في بيســان وهم في أسـوأ حــال ، وذكروا عن عسكر ابن عثمان أن معهم رماحاً بكلاليب يخطفون بها الفارس من على فرسـه ، وأن عـددهم لا يحصى ومعهم رماة بـالبنـدق الرصـاص على عجلات خشب تجرهـا أبقـار وجواميس ، واستقبل السلطان الغزالي والأمير أرزمك الناشف وخلع عليهما .

الزحف العثماني نحو مصر :

كان السلطان سليم قد غادر دمشق يوم الاثنين في العشرين من ذي القعدة ، وتبعه يوم الأربعاء ثاني عشريه الخليفة ثم القضاة المصريون عدا الحنفي الذي كان قد توجه مع عساكر الغوري الهاربين إلى مصر .

مذبحة في غزة :

وفي ذي الحجة وردت أخبار إلى القاهرة بأن سنان باشـا الـذي ملـك غزة ، قد لعب في أهل غزة بـالسيف وقتل منهم نحو ألف إنسـان مـا بين رجـال وصغـار وحتى النساء ، وكان سبب ذلك أن الغزالي لما تلاقى مع سنان باشا على الشريعة ، أشيع في غزة أن الغزالي قد انتصر على عسكر ابن عثمان وقتل سنان بـاشـا ، فبـادر علي باي دوادار نائب غزة وأجنـاد غزة فنهبوا وطـاق العثمـانيـة وأحرقوا خيـامهم وقتلوا من كان بالوطاق والمدينة من العثمـانيـة نحو أربعمائـة إنسـان مـا بين شيوخ وصبيان ، ومن كان بها مريضاً ، فلمـا ظهر أن الكسرة على عسكر مصر وقتل من قتـل من الأمراء ، رجـع سنـان بـاشـا إلى غـزة فـوجـد من كان بهـا قُتـل ونُهب الوطـاق ، فجمع أهل غزة قاطبـة ، وقـال لهم : من فعل ذلـك بنـا ، قـالوا : علي باي دَوَادار نائب غزة وأجناد غزة ولم نفعل نحن شيئاً من ذلك ، فأمر سنان باشـا

بكبس بيوت أهل غزة ،فوجدوا بها قماش العثمانية وخيولهم وخيامهم وسلاحهم ، فقال لهم سنان باشا : نحن لما دخلنا غزة هل شوشنا على أحد منكم أو نهبنا لكم شيئاً ؟ قالوا : لا ، قال لهم : فكيف فعلتم أنتم بعسكرنا ذلك ؟ فلم يأتوا بعذر أو حجة ، فعند ذلك أمر عسكره بأن يلعبوا فيهم بالسيف ، فقتلوا منهم مالا يحصى عدده وراح الصالح بالطالح ، وأحرقوا في المدينة بعض أماكن للأمراء الذين بها .

الخروج إلى الريدانية والاضطراب :

في العاشر من ذي الحجة ، خرج السلطان طومان باي وصلى صلاة العيد ، وطلع الأمراء بالشاش والقماش على عادتهم ، وكان الخوف منتشراً بين الناس سيما وقد بلغهم ما فعله عسكر ابن عثمان بأهل غزة من القتل والنهب وسبي النساء .

وفي الثاني عشر منه ، أخرج السلطان الزردخانة لإرسالها صحبة العسكر ، وجلس بالميدان ،.وسارت أمامه العجلات الخشب (العربات) وعددها مائة عجلة يجر كلاً منها زوج من البقر ، وفيها مكحلة نحاس ترمي بالبندق والرصاص ، فنزل السلطان من المقعد وفي يده عصا وأخذ بترتيب العجلات في سيرها بالميدان ، وبعدها مائتا جمل تحمل قرابة ألف وخمسمائة طارقة ، إضافة للبارود والرصاص والحديد والرماح ، وقد تقدم الموكب أربعة طبول وأربعة زمور ونحو مائتي رامٍ من التركمان والمغاربة وبأيديهم الصناجق وهم ينادون : الله ينصر السلطان ، وبعض الأمراء وعدد كبير من أرباب الحرف : النجارين والحدادين .

وسار الموكب من باب الميدان إلى الرملة ودخلوا من باب زويلة ، واصطف الناس في طرقات القاهرة وارتفعت أصواتهم بالدعاء للسلطان ، وخرجوا من باب النصر وتوجهوا إلى الريدانية وخلع السلطان على الأتابكي سودون الدَوَاداري

وأقرباش العسكر للتجريدة ، وكانت أوضاع المدينة في غاية الاضطراب للأخبار والشائعات التي كانت ترد عن حملة ابن عثمان .

وفي الثامن عشر منه ورد على السلطان أخبار بأن ابن عثمان قد خرج من الشام بنفسه هو وعساكره وقسم عسكره فرقتين : فرقة تأتي من الدرب السلطاني ، وفرقة من على الطريق الذي حضر منه القاصد ، فاضطرب الأمراء لهذا الخبر وأمرهم السلطان بالخروج إلى الريدانية على عجل وأن يكونوا على يقظة ، فقد وصل ابن عثمان غزة ، ومن ثم توجه لزيارة بيت المقدس ، وسيحضر بعدها بعساكره إلى مصر .

وزاد تخبط السلطان والأمراء ، فأرسل نقيب الجيش لإبلاغ جميع الأمراء والمقدمين ضرورة الإسراع بالخروج إلى الريدانية ، ونادى على جميع المغاربة الذين هم في مصر والقاهرة للحضور في اليوم التالي للعرض ، وفي التاسع عشر منه جلس السلطان على الدكة بالحوش وطلع المغاربة إلى القلعة ،فأرسل السلطان إليهم الأمير شاد بك الأعور ، فقال لهم : « يقول السلطان لكم عينوا منكم ألف إنسان من شجعانكم ليخرجوا مع التجريدة » ، فكان جوابهم : « نحن ما لنا عادة الخروج مع العسكر ولا نقاتل إلا الفرنج ولا نقاتل مسلمين » ، فعزَّ على السلطان جوابهم وأرسل يهدد بقتل كل مغربي في مصر .

وكان قد طلب من بعض مشايخ العربان إرسال الشجعان منهم لضمهم إلى التجريدة ، وحضر بعضهم ثم عاد ، وسمح لهم بالعودة إلى بلادهم بعد أن أشار عليه بعض الأمراء بعدم جدوى خروجهم في التجريدة . وحتى الزعر فقد جمعهم في الريدانية ووعدهم بصرف عشرة أشرفيات وسيف وترس لكل منهم إذا قاتلوا وانتصروا .

ولم يكن لدى السلطان من المال ما يدفعه للعسكر كما جرت العادة عند

خروج تجريدة ، حتى الجامكية توقف عن دفعها ، ومضت مدة ستة أشهر لم يصرف لهم ثمن اللحوم ، ذلك أن الفلاحين قد امتنعوا عن خراج الأراضي حتى تنتهي الفتنة وكيلا يدفعوا لابن عثمان إن انتصر .

وأشيع أن ابن عثمان أرسل كتاباً إلى شيخ العرب أحمد بن بقر يقول فيه : « ادخل تحت طاعتنا ولك الأمان ولاقينا في الصالحية ومعك ألف أردب شعير » ، وأشيع أن عبد الدايم بن أحمد بن بقر توجه إلى ابن عثمان في غزة .

معسكر الريدانية :

وفي نفس يوم التاسع عشر من ذي الحجة ، نادى السلطان للعسكر كافة بالعرض في اليوم التالي بالريدانية ، وهم في كامل الاستعداد ، ثم نزل إلى الميدان وصلى العصر وركب من هناك وتوجه إلى الريدانية وبات بها في الوطاق .

وفي اليوم التالي لبس العسكر آلة السلاح وخرج للعرض بالريدانية بحضرة السلطان ، وصار الأمراء المقدمون المعينون للتجريدة يخرجون بأطلابهم الحربية مع مماليكهم ، فخرج الأتابكي سودون الدَوَاداري وجان بردي الغزالي وأركماس أمير سلاح ويخشباي أمير مجلس ، وأنصباي أمير آخور كبير ، وتمر رأس نوبة النوب ، وعلان الدوادار الكبير وطقطباي حاجب الحجاب ، كما خرج بقية الأمراء المقدمين قاطبة ، والأمراء الطبلخانات والعشرات وعساكر مصر ولم يبق إلا القليل .

وهذه التجريدة أكثر عسكراً من التجريدة التي خرجت مع السلطان الغوري ، وكان السلطان طومان باي ذا عزم شديد في عمل العجلات وصب المكاحل وصنع البندق والرصاص وجمع الرماة ، وقد ركب من الوطاق وتوجه إلى المصطبة في الريدانية ـ عندما خرج العسكر ـ وجلس بها كما تجمع عدد كبير من العوام وهم يلهجون بالدعاء للسلطان بالنصر . ومع تجمع العساكر نادى السلطان

عليهم بأن يكونوا جميعاً في الصالحية بعد ثلاثة أيام للعرض ، وأرسل المشاعلين[٣٥٦] إلى القاهرة للمناداة على المماليك السلطانية للخروج إلى الوطاق ، وكل من يتأخر يشنق على باب داره ، وأجبر العساكر على المبيت في الوطاق بعد أن علم أن بعضهم يبيت في بيته ليعود في صبيحة اليوم التالي . كما أمر السلطان بحفر نفق طويل لنصب الطوارق والمكاحل المعمرة بالمدافع وصف حولها العربات الخشب وأقام جداراً أمام المكاحل لحمايتها وإخفائها ، وأخذ يحمل بنفسه الحجارة للبنائين ففعل ذلك المماليك أيضاً .

وأمر السلطان الأمير ماماي الصغير المحتسب ، بأن ينادي في القاهرة لأرباب البضائع من الزياتين والخبازين واللحامين بأن يتحولوا ببضائعهم إلى الوطاق عند تربة العادل وينشئوا هناك سوقاً لبيع العسكر .

الخطأ الكبير :

في الخامس والعشرين منه حضر الأمير قانصوه العادلي كاشف الشرقية ، وكان السلطان قد أرسله ليكشف أخبار عسكر ابن عثمان ، فلما وصل إلى الصالحية رأى جماعة من عسكر ابن عثمان قد وصلوا هناك ، فقبض على شخصين منهم وحزَّ رأسيهما وأحضرهما إلى السلطان ، وكان صحبة الرأسين شخص من أبناء حلب من جماعة خاير بك نائب حلب ، فلما وقف بين يدي السلطان أخبره أن الواصل إليه خاير بك نائب حلب وصحبته ابن سوار وجماعة من أمراء ابن عثمان ، وذلك في ثمانية آلاف فارس ، وقد بطلت خيولهم من التعب والجوع ، ووجد مع هذا الرجل الحلبي عدة مطالعات من عند خاير بك إلى الأمراء المقدمين في مصر فأخذ السلطان المطالعات ووضع الحلبي في الحديد .

وأشيع أن عسكر ابن عثمان لما دخل إلى بِلْبِيس نادى لأهل بِلْبِيس بالأمان

---

(٣٥٦) المشاعلين : المنادين .

والاطمئنـان ، وأن أحـداً من العثمـانيين لن يـؤذي أحـداً من الأهـالي ومـا حـول بِلْبيس من القرى ، ثم أشيع أن عساكر ابن عثمان قد وصلت إلى العكرشة ، وتأكـد السلطان من ذلك وأراد أن يخرج بعسكره لملاقاتهم هناك فلم يمكنه الأمراء ، فقـد كانت خيولهم قد بطلت من الجوع وغالب عسـاكرهم قـدموا من الشـام مشـاة على أقدامهم وهم في غاية التعب .

وكانت الفرصـة مهيـأة للسلطـان لكسرهم قبـل أن يصلـوا إلى الخـانقـاه[٣٥٧] ويجدوا الطعـام والشراب وينـالوا الراحـة من التعب ، فكان تقـاعس الأمراء عن الخروج عين الخطــأ ، واقتصر تصرف السلطـــان على أمر عسكره بـالمبيت أمــام الوطاق ، وهم في حالة التأهب على ظهور خيولهم يتناوبون الحراسة خشيـة هجوم العثمـانيين ، وقـد انعكس هـذا على نفسيـةالعسكر فزاد الرعب في قلـوبهم ، كما أمر السلطـان بعـد أن تحقق من وصـول عسكر ابن عثمان إلى بِلْبيس بحرق الشـون التي فيها ومـا حولهـا ، إضـافـة إلى التبن والقمح والشعير والفول في الخـانقـاه فـأحرق الكثير منها حتى لا تقع في أيدي أعدائه .

محاولة اغتيال السلطان طومان باي :

وفيما كان السلطـان جـالسـاً بخيمتـه حـاولت امرأة من التركمان تـزيت بـزي الرجال ، ووضعت لثاماً على وجهها ووضعت سيفـاً في وسطهـا ، ولبست زرديـة تحت ثيابهـا ، وهي تحمل خنجراً كبيراً من تحت ثيـابهـا ، أن تهجم على السلطـان لقتله وكان في قلة من الخاصكية ، فدفعها عنه هؤلاء ثم أعملوا فيهـا السيف ومضوا بها إلى باب النصر ، فعلقت تجاهه لمدة يومين ثم دفنت .

نهاية إبراهيم السمرقندي :

ووصل إبراهيم السمرقندي ـ وكان من خواص السلطان الغوري وممن خانـه ـ

---

(٣٥٧) ويقصد بها الخانقاه السرياقوسية راجع عنها التعليقة رقم ٧٥ .

إلى أحد العربان وبات عنده ، وعرفه فحز رأسه في الليل ، وحضر في الصباح إلى السلطان وقال له ما تعطي الذي يأتيك برأس إبراهيم السمرقندي فأجابه السلطان : ألف دينار ، فأخرج رأس السمرقندي من تحت برنسه وقدمه للسلطان الذي دفع للبدوي ألف دينار بعد أن تحقق منه . وأرسل الرأس مع رأس أمير من أمراء ابن عثمان ، فعلقا على دكان عند باب زويلة . وقد كثر قطع العربان لرؤوس العثمانيين ، وكانت ترسل إلى السلطان ليعلقهم على أبواب القاهرة .

معركة الريدانية :

وفي يوم الأربعاء الثامن والعشرين منه وصل جاليش عسكر ابن عثمان إلى بركة الحاج[٣٥٨] ، فعم الخبر واضطربت الأحوال وأغلقت القاهرة أبوابها وأسواقها وتعطلت الطواحين وقلّ الدقيق والخبز .

وأعلن النفير بين عساكر السلطان ، وركب الأمراء المقدمون والأمراء الطبلخانات والعشرات ، واجتمع من الصناجق نحو ثلاثين صنجقاً ، ودقت طبول الحرب ، وقدر مجموع العساكر بعشرين ألفاً ، واستعرض السلطان طومان باي العساكر وصار يرتبهم بنفسه من الجبل الأحمر وحتى غيطان المطرية[٣٥٨] ، وكان طومان باي ذا همة عالية في الحركة والتنظيم ، وكان قد حفر النفق وحصن الوطاق بالمكاحل والمدافع ، وأقام أمامها جداراً ، وجعل خلفها نحو ألف جمل تحمل العليق ، وفي أطرافها صناجق بيض وحمر تخفق في الهواء ، وكان يعتقد أن القتال سيطول ، ومرة أخرى تقاعس عن الهجوم ووقف موقف المدافع وتكرر الخطأ السابق ثانية . ولم يحدث في يوم الأربعاء قتال .

وفي يوم الخميس التاسع والعشرين من ذي الحجة سنة ٩٢٢ هـ ، زحف

---

(٣٥٨) انظر المصور رقم ٢ .

عسكر ابن عثمان وبدأ بالهجوم ، ووصل أوائله إلى الجبل الأحمر ، فلما بلغ السلطان ذلك نادى بالنفير ودقت طبول الحرب ، وركب الأمراء وسائر العساكر ، وتلاقى الجيشان في أوائل الريدانية ، فكانت معركة أعظم من تلك التي حدثت في مرج دابق ، ودارت بادئ الأمر لمصلحة السلطان وعساكره ، فقتل من العثمانية عدد لا يحصى ومنهم سنان باشا الوزير الأعظم لسليم شاه وتناثرت الجثث في كل مكان .

ثم ما لبث أن انعكس الوضع فقد توافد العثمانيون أفواجاً ، وانقسموا إلى فرقتين : فرقة جاءت من تحت الجبل الأحمر ، وفرقة جاءت إلى عند الوطاق ، وأطلقوا بنادقهم فقتلوا مالا يحصى من العساكر المصرية وأمراءهم ، وجرح الأتابكي سودون الدَوَاداري وتوارى في غيط قريب . ولم تمض ساعة إلا وانكسرت العساكر المصرية ، وحاول السلطان الثبات مع نفر قليل من العبيد الرماة والمماليك السلحدارية وألحقوا بالعساكر العثمانية خسائر عديدة ، إلا أن تكاثر العثمانية اضطرته إلى الهرب والاختفاء .

وانقضت العساكر العثمانية على الوطاق ، فنهبوا ما فيه من قماش وسلاح وخيول وجمال وأبقار ، كما استولوا على المكاحل التي نصبها السلطان والعربات وغيرها .

الدخول إلى القاهرة :

وبدأ العثمانيون دخول القاهرة ، فتوجهت جماعة منهم إلى المقشرة وأحرقوا بابها وأخرجوا من كان بها من المساجين ، وكان بهم جماعة من العثمانية أسرهم السلطان في الريدانية ، وتوجهوا إلى بيوت الأمراء فنهبوا ما وجدوا بها ، وشارك الزعر بالنهب أيضاً ، ونهبت الطواحين ومخازن القمح والدقيق والغلال ، واستمر النهب حتى آخر النهار .

وفي اليوم التالي الجمعة دخل أمير المؤمنين محمد المتوكل على الله إلى القاهرة ،وصحبته وزراء ابن عثمان وعدد كبير من عساكره ، ودخل خاير بك ـ نائب حلب السابق ـ وقاضي القضاة الشافعي كمال الدين الطويل ، والقاضي المالكي محيي الدين الدميري ، والقاضي الحنبلي شهاب الدين الفتوحي ، وكانوا في أسر ابن عثمان من موقعة مرج دابق ، كما دخل يونس العادلي وخوشْقَدم الذي سبق ذكره .

ومع دخول الخليفة القاهرة نودي بالأمان والبيع والشراء وإغلاق باب الظلم وفتح باب العدل ، وأن على كل من يحوي مملوكاً أن يبلغ عنه وإلا شنق على باب داره ـ ورغم ذلك فقد استمر عسكر ابن عثمان بالنهب لمدة ثلاثة أيام بحجة التفتيش عن المماليك .

وخطب في خطبة الجمعة ذلك اليوم باسم السلطان سليم شاه على المنابر ودعي له وسمي خادم الحرمين الشريفين . وفي يوم السبت مستهل الشهر المحرم سنة ٩٢٣ هـ أرسل السلطان سليم جماعة من الانكشارية ليقفوا على أبواب المدينة ويمنعوا نهب البيوت . وانتقل بوطاقه من بركة الحاج إلى الريدانية . وكانت العساكر العثمانية تقبض على المماليك الجراكسة من الترب وغيطان المطرية ، ويحضرونهم إلى السلطان سليم فيأمر بضرب أعناقهم ، وقبض بعض مشايخ العربان على الأتابكي سودون الدَوَاداري وأحضروه إلى ابن عثمان الذي وبخه بالكلام ، ووجده قد جرح وكسر عظم فخذه فأركبه على حمار وألبسه عمامة زرقاء وجرَّسه[٣٥٩] في وطاقه وأخذ يشهره في القاهرة ، فمات وهو على ظهر الحمار . وتكاثر جمع المماليك من الترب والحارات وقطع رؤوسهم وتعليقها في الوطاق ، فضرب في يوم واحد ثلاثمائة وعشرون رأساً ، ومنهم أعراب من سكان الصحراء راحوا ظلماً ، وقيل قتل في الريدانية أكثر من أربعة آلاف إنسان ما بين مماليك جراكسة وعربان الشرقية والغربية دون تفريق بين أمير وغيره .

---

(٣٥٩) جرَّسه : وضع على رقبته جرساً ودار به في المخيم والقاهرة .

وأرسل السلطان سليم خلف محمد بن السلطان الغوري ، وألبسه قفطاناً مخملاً ذهباً وعمامة عثمانية ، وأعطاه ورقة بالأمان له على نفسه ، ورسم له أن يسكن في مدرسة أبيه في الشرابشيين وأسكن في بيته أحد وزرائه ، ثم توجه إليه يوسف البدري الوزير فأعطاه أماناً وألبسه قفطاناً مخملاً وأقره متحدثاً على جهات الغربية . وخلع أيضاً على بعض من أرباب الوظائف وأقرهم في وظائفهم إلى أن يقرر من يختاره بديلاً لهم .

دخول السلطان سليم القاهرة :

وفي يوم الاثنين ثالث المحرم أوكب السلطان سليم ودخل القاهرة من باب النصر وشق المدينة في موكب حافل وأمامه جنايب كثيرة وعساكر عظيمة ما بين مشاة وركاب حتى ضاقت بهم الشوارع . ثم دخل من باب زويلة وتوجه إلى بولاق ونزل بالوطاق الذي نصب له تحت الرصيف ، وكانت الأصوات ترتفع له بالدعاء من الناس قاطبة وكان يتقدمه في المواكب الخليفة وقضاة القضاة وجماعة من المباشرين الذين كانوا بمصر .

معارك بولاق والصليبة :

وفي مساء يوم الثلاثاء الرابع من الشهر المحرم سنة ٩٢٣ هـ وبعد صلاة العشاء ، لم يشعر السلطان سليم إلا وقد هجم عليه طومان باي بعساكر جمعها بعد فراره من الريدانية . وحاصر وطاقه ، ودار القتال بين المماليك والعثامنة ، وقتل عدد كبير من العثمانية ، واحترق العديد من خيامهم واستمر القتال حتى الصباح ، حين هاجمهم أيضاً الأمير علان الدّوادار الكبير من الناصرية واستمر القتال طيلة نهار يوم الأربعاء وأخذ المماليك يكبسون أحياء القاهرة بحثاً عن العثمانية لقتلهم كما كان العثامنة يكبسون البيوت والحارات بحثاً عن المماليك .

واشتد القتال يوم الخميس واستطاع العثامنة طرد المماليك من بولاق وجزيرة

الفيل وتراجع المماليك إلى الناصرية ، فهاجم جمع من العثامنة زاوية الشيخ عماد الدين وأحرقوا بيوتاً حولها وقبضوا على مماليك جراكسة فيها واستطاعوا إجلاء المماليك عن الناصرية إلى قناطر السباع .

ونزل السلطان طومان باي في جامع شيخو بالصليبة وصار يكرُّ منها إلى قناطر السباع في نفر قليل من العسكر وأمر بحفر أنفاق في رأس الصليبة وقناطر السباع ورأس الرملة وعند جامع ابن طولون وحدرة البقر وقسم عسكره إلى أربع فرق : فرقة إلى جهة قناطر السباع ، وأخرى إلى الرملة ، وثالثة إلى جهة جامع ابن طولون ، ورابعة جهة باب زويلة ، والواقع أن قلَّةً هُمُ الذين قاتلوا من المماليك السلطانية . وفي يوم الجمعة خطب على المنابر باسم السلطان طومان باي بعد أن خطب في الجمعة الفائتة باسم السلطان سليم . واستمر القتال بين كرٍّ وفرّ من بولاق إلى قناطر السباع والرملة وفي الحارات والأزقة حتى يوم السبت .

وأيقن طومان باي من استحالة النصر وقد تخاذل عسكره وتفرق الكثيرون منهم ولم يبق معه سوى نفرٍ قليلٍ من العبيد الرماة وبعض مماليكه السلطانية وبعض الأمراء ، فهرب صبيحة السبت نحو بركة الحبش .

النهب والقتل في القاهرة :

مع هزيمة السلطان طومان باي صبيحة السبت المذكور ، هجمت العساكر العثمانية على الصليبة وأحرقوا جامع شيخو ، كما أحرقوا البيوت التي حوله ، وألقوا القبض على خطيب الجامع الشرفي يحيي بن العداس وأحضروه بين يدي السلطان سليم شاه فهمّ بضرب عنقه لولا شفاعة الخليفة له .

وأعمل العثامنة السيف في العوام والغلمان وانتشرت الجثث من باب زويلة إلى الرملة ومنها إلى الصليبة وقناطر السباع إلى الناصرية ومصر العتيقة ، وقدر من قتل في الأيام الأربعة للقتال بأكثر من عشرة آلاف إنسان ، وهاجم العثامنة

البيوت والحارات وضربوا عنق من وجدوه من المماليك ، وهـاجموا الجوامع للغرض نفسه ، ومنهـا الجـامع الأزهر وجـامع ابن طولون ومـدارس ومزارات وقبضوا على نحو ثمانمائة مملوك من مختلف الرتب ضربت أعنـاقهم أمـام السلطـان سليم . وكانت الجثث ترمى في النيل وما بقي في الطرقات تناهشته الكلاب .

وعاد السلطان سليم إلى وطـاقـه في الجزيرة الوسطى ، ونصب فيـه صنجقين أحـدهمـا أبيض والثـاني أحمر إشـارة إلى العسـاكر لرفع سيـوفهم عن أهـل المـدينـة حسب عادتهم إذا ملكوا مدينة بعد فتحها بالسيف .

وفي هذه الأيـام صـار الخليفـة المتوكل على الله صـاحب الحل والعقـد والأمر والنهي في الديار المصرية ، وجلس أولاد السلاطين والأمراء وأعيان الناس وبعض الناس في دهاليز بيتـه ، دون أن يلتفت إليهم ، ولم يكن يرد لـه طلب من وزراء ابن عثمان ، ولم تُرَدّ لـه شفـاعـة في النـاس ، وضرب رنْكـه على غـالب البيـوت ، ولنفاذ كلمته دخل عليه من الناس أموال وهدايا لم يفرح بهـا أحـد من أجـداده ، واحتمت به نساء السلاطين والأمراء فشفع لهن أيضاً .

الأمان للأمراء :

وفي يوم الثلاثاء حادي عشر المحرم نادى السلطان سليم بعد العصر في القاهرة بأن الأمراء المقدمين والأمراء الطبلخـانـات والأمراء العشرات الـذين اختفوا بعـد الوقعة يظهرون وعليهم أمان الله تعالى ، وقيل : إن السلطـان سليم كتب للأمراء بالأمان في ورقة طويلة وعلقها المشاعلي على جريدة ، ونـادى بـأن عليهم الاتجـاه إلى مدرسـة السلطـان الغوري ، فظهر الأمير أركماس أمير سلاح ، والأمير أنصبـاي أمير آخور كبير ، والأمير تمر الحسني رأس نوبة النوب ، والأمير طقطباي حـاجب الحجاب ، والأمير تاني بك الخازندار ، وتاني بك النجمي ، وقـانصوه أبو سنـة من الأمراء المقـدمين . ومن الأمراء الطبلخـانـات : مصر بـاي الأقرع ، وقنبـك رأس

نوبة ثاني ، ويَشْبَك الفقيه دَوَادار السلطان طومان باي كان دواداراً كبيراً ، وكان مختفياً في الجـامع الأزهر . وظهر من الأمراء العشرات نحـو أربعين أميراً أو أكثر وآخرون من الخاصكية واجتمع الجميع في المدرسة الغوريـة وأحـاط بهم جمـاعـة من العثمانيـة ، وقيل : إنهم قـابلوا السلطـان في الوطـاق فوبخهم بـالكلام وبصق على وجـوههم وذكر لهم ظلمهم ومـا كانـوا يصنعـون ثم رسم لهم أن يـذهبـوا إلى القلعـة ويقيموا بها محتفظاً بهم .

عودة جان بردي الغزالي :

وفيـه أشيع أن جـان بردي الغزالي أرسـل يطلب الأمـان من السلطـان سليم وقد وصل إلى الخانقاه وصحبته جمـاعـة من المماليـك الجراكسـة الـذين هربوا بعـد الكسرة ، فأرسل لهم السلطان سليم أماناً . ودخل الغزالي يوم الثلاثاء المذكور إلى القاهرة وعلى رأسه ورقة فيها أمان من السلطان سليم ، فلمـا دخل القـاهرة توجـه إلى وطاق السلطان وقابله هناك . وكان الغزالي قد توجه إلى غزة مع جمـاعـة من المماليك الجراكسة بعد هزيمة الريـدانيـة ، وكان متواطئـاً مع ابن عثمان في البـاطن من أيـام السلطـان الغوري ، وشـارك خـاير بـك في الانسحـاب من مرج دابـق وانهزما قبل العسكر وأشاعوا الكسرة على عسكر مصر .

وفي اليوم التالي الأربعاء أشيع أن المماليك الذين ظهروا صحبة الغزالي رسموا عليهم ، وقيل سجنوهم بالقلعة وكانوا نحو أربعمائـة مملوك . وقـد قيـدوا مع الأمراء السابق ذكرهم وأودعوا وكالة تقع خلف المدرسة الغورية وفي سجن الديلم ، وأُخرج في شهر صفر نحو سبعمائـة مملـوك منهم إلى مراكب تـوجهت بهم إلى الاسكنـدريـة ومنها إلى استانبول . وضربت أعناق أربعـة وخمسين أميراً من المقـدمين والعشرات في ربيع الأول عنـدمـا أشيعت أخبـار عن تجمع قوات جـديـدة لطومـان بـاي في البهنسا مما سيرد ذكره .

بدأت أخبار معركة الريدانية تصل إلى دمشق بدءاً من يوم الثلاثاء في الثالث من الشهر المحرم سنة ٩٢٣ هـ ، وقد أرسل السلطان سليم لأهالي دمشق كتاباً يبشر فيه الأهالي بنصرته على المماليك وبدخوله القاهرة ظافراً ، ويصف فيه معارك الريدانية وبولاق والصليبة وهزيمة المماليك ، وقد كتب هذا الكتاب قبل القبض على السلطان طومان باي وإعدامه ، ولأهمية النص آثرنا نقله مع مقدمته كما وردا في مفاكهة الخلان لابن طولون :

فرمان السلطان سليم
لأهل دمشق في بشارة النصر وأخذ مصر

وفي يوم الجمعة سادس صفر وردت مراسيم على يد أربعة من الهجانة(٣٦٠) بنصرة ابن عثمان على الجراكسة ، وأَخْذه للقاهرة بعد قتْل كثير في الفريقين ، وفي العوام(٣٦١) ، بسبب مساعدتهم للجراكسة ، وحرْق ونهْب ، وأن الجراكسة كانت درّبت(٣٦٢) أبواب القاهرة وأزقّتها بالخنادق والمكاحلِ والسدّ ؛ فأخذ نائب حلب خير بك لملك الروم من موضع نفذ منه في أقفية الجراكسية ففرّوا .

وفي يوم السبت سابعه قرئت هذه المراسيم ، ودارت مبشرو(٣٦٣) الأروام على بيوت الأكابر والحارات ، بالطبول والنايات ، وأطلقوا نفطاً كثيراً في قلعة دمشق ، ولطّخوا غالب أهل البلد بالزعفران ، والأشراف منهم وضعوا لهم رنوكاً صفراً ونادوا بالزينة ، فزيّنت البلد ، واطمأنت الناس ، ولكن الأروام غالبهم

(٣٦٠) الهجانة : الجهانة .

(٣٦١) العوام : الأعوام .

(٣٦٢) درّبت بمعنى أحكمت إغلاق أبوابها وحصنتها .

(٣٦٣) مبشرو : مبشري .

اغتمّ بسبب قتل جماعة من أعيانهم ، منهم سنان باشا الوزير الأعظم ، واستمرّت الزينة سبعة أيام .

وقد عرّب موقّع دوادار السلطان ، شمس الدين الحلبي ، المرسوم الذي جاء للنائب ، والقاضي بالبلد ، بقوله :

« قدوة الأمراء الكرام ، وعمدة الكبراء الفخام ، ذو القدر والاحترام ، كافل مدينة الشام ، دام عزّه ، وأقضى قضاة المسلمين ، أولى ولاة الموحّدين ، معدن الفضل واليقين ، حجة الحقّ على الخلق أجمعين ، مولانا قاضي القضاة بالشام المحروس ، أُبْدَتْ فضائله مرسومنا هذا ، يوضّح لعلمها الكريم ، أننا توكّلنا على الله سبحانه ، وتوسّلنا بسيّد الكائنات ، محمد ﷺ » .

« وتوجّهنا بعساكرنا وصناجقنا وأعلامنا وجيوشنا وخيولنا السابقات الصافنات ، وقسيّنا الصائبات ، ورجالنا المرصدين لصيد أعدائنا ، مع هداية الله تعالى ، من الشام مع السعد والظفر إلى جهة مصر ، فوجدنا طومان باي ، الذي تولّى سلطنة مصر ، وأقام جان بردي الغزالي كافلاً للشام ، وجهّزه إلى غزّة ، وصحبته فرقة من العساكر المصرية » .

« وكان قد تقدّمنا قدوة الوزراء العظام ، وعمدة الكبراء الفخام ، الغازي في سبيل الله ، المجاهد لوجه الله ، الوزير الأعظم سنان باشا ، إلى جهة غزّة ، فوقع بهم ، والتحم بينه وبينهم القتال العظيم ، فبعون الله تعالى وسعادتنا الشريفة ، حصل له النصر والظفر ، وقتل منهم من قتل ، وأسر منهم من أسر ، ومن سلم من سيفه فرّ منهزماً صحبة الغزالي المذكور إلى مدينة مصر » .

« ثم إن ركابنا الشريف جدّ في السير ، في السعد والإقبال ، بعساكرنا وجنودنا ، واجتمع بنا سنان باشا المشار إليه ، وصرنا نرحل من مرحلة إلى مرحلة مثل السهام » .

« فلما وصل إليهم خبر توجّه ركابنا الشريف على هذا الوجه ، أرادوا أن يتداركوا بقاء نفوسهم وأرواحهم ، فجمعوا عساكرهم السيفية ، والجلبان ، ومماليك الأمراء ، والعربان ، نحو الثلاثين ألفاً » .

« وجمعوا مافي القلعة المصرية ، وبيوت الأمراء ، وثغر اسكندرية ، وسائر البلاد والقلاع ، من المكاحل ، والكفيات ، والسبقيّات ، والبندقيات ، واللبوس ، والسلاح » .

« وحفروا خندقاً في الريدانية ، من بحر النيل إلى الجبل ، وجمعوا أخشاباً جعلوها تساتير على الخندق ، وأحضروا رماة من الفرنج وغيرهم ، وسائر آلات الحرب ، وهيّؤوها للقائنا » .

« فوصل ركابنا الشريف ، بعساكرنا المنصورة ، إلى الريدانية ، في يوم الخميس التاسع والعشرين من ذي الحجة الحرام سنة اثنتين وعشرين وتسعمائة ، وقت الغداة ، فوجدناهم قد لبسوا السلاح ، وتكمّلوا العدد ، وتقلّدوا بالعُدد ، وهم غارقون في الدروع والزرد ، وأرادوا مقابلة عساكرنا المنصورة ، التي هي أعداد الرمال ، وأمثال الجبال ، ولها قلوب الأسود ، وشخوص الرجال » .

« فلما وقف الصفّان ماج عسكرنا كموج بحر عمان ، فبقي يغلي ويضطرب ، فرتّبنا وزيرنا الأعظم سنان باشا في ميمنة العسكر ، ودستورنا المكرم ومشيرنا المفخم نمر وهِزَبْر الهيجاء ، وزيرنا يونس باشا في الميسرة » .

« واصطفّ الجيشان ، وزحف العسكر المصري على سنان باشا في الميمنة ، ورموا عليه بالمكاحل والسبقيات والكفيات والبندقيات ، وجاء أعداؤه للقتال ، فما روّعه ذلك ، ولا أزعجه ، بل جال فيهم وصال ، وقطع منهم الأوصال ، ورمى منهم الرؤوس عن الجثث ، وغنّى فيهم السيف ، إلى أن خاضت خيولهم في الدماء والقتلى » .

« ثم ولّوا منه منهزمين إلى الميسرة ، فتلقّاهم يونس باشا المشار إليه ، وجال فيهم بطعن وضرب ، فأرادوا الفرار ، فناداهم لن ينفعكم الفرار ، إن فررتم من الموت أو القتل ، فكم من فارس تجندل صريعاً ، وكم من أمير أحضروه إلينا أسيراً » .

« وأما غالب العسكر المخذول ، فداسهم عسكرنا تحت حوافر الخيول ؛ واستمرّ الحرب من أول النهار إلى بين الصلاتين ، وصار حرب عظيم ، وجرح سنان باشا » .

« وآخر الأمر بإرادة الله تعالى ، ألاَ إن حزب الله هم الغالبون ، وصارت عساكرنا غالبة ومنصورة ، والعساكر المصرية مغلوبة مقهورة ، وقالوا : أين المفرّ ؟ والذي سلم من سيوفنا ، منهم من رمى بنفسه عن فرسه فقبضوا عليه ، ومنهم من قطعوا رأسه وأحضروه إلينا ، والمأسورون منهم عملناهم إشارات لنبلنا وغذاء لسيوفنا ، وصارت أبدانهم ورؤوسهم وخيولهم كياناً » .

« وأقمنا بعد هذه المعركة في الريدانية أربعة أيام ، بالسعد والإقبال ، ثم انتقل ركابنا الشريف من الريدانية إلى جزيرة بولاق » .

« وكان قد فضل بقيّة سيوفنا من العساكر المصرية ، فهربوا واجتمعوا ، هم والسلطان طومان باي ، وجمعوا العربان ، والتمّوا نحو العشرة آلاف ، ليلاً من نهار الثلاثاء خامس شهر المحرم الحرام سنة ثلاث وعشرين وتسعمائة خفية ، ودخلوا البيوت الحصينة ، وحفروا حولها الخنادق ، وستروا التساتير ، واجتمعوا في الحارات ، وأظهروا الفساد ، وأبرزوا العناد ، فعلمت عساكرنا المنصورة بهم ، فربطوا الخيّالة لهم الطرقات ، لئلا ينهزم منهم أحد ، وصاحت عليهم مماليكنا الينكشارية والتفكجية ، وحملت عليهم حملة رجل واحد ، ودخلوا عليهم إلى البيوت التي تحصّنوا فيها ، ونقبوا عليهم البيوت يميناً وشمالاً ، وطلعوا على

أسطحة تلك البيوت التي تحصّنوا فيها ، ورموا عليهم بالبنادق والكفيات ، واستمرّ الحرب بين عساكرنا المنصورة وبينهم ثلاثة أيام » .

« وفي يوم الجمعة ركب مقامنا الشريف ، واشتدّ الحرب ، وصار مثل يوم يَغْشاهم العذاب من فَوْقِهِمْ ومِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ ، ومثل يَوْمَ يَفِرّ الْمَرْءُ مِنْ أَخيهِ وَأُمِّه وَأَبِيهِ وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيه ، فخرّبنا ما عملوه من التساتير والخنادق ، فالتجؤوا إلى بعض البيوت الحصينة ، فحرقنا عليهم تلك البيوت التي التجئوا إليها ، وبقوا في العذاب الأليم ، وأرادوا الهروب فما لقوا لهم طريقاً إلا بحر النيل ، فأرموا أنفسهم فيه ، وغرقوا كيوم فرعون » .

« وفي هذه الثلاثة أيام يستمرّ القتال من الصبح إلى العشاء ، وبعون الله تعالى قتلنا جميع الجراكسة ، ومن انضمّ إليهم من العربان ، وجعلنا دماءهم مسفوحة وأبدانهم مطروحة ، ونهب عسكرنا قماشهم وأثاثهم وديارهم وأموالهم وبركهم ويرقهم ، ثم صارت أبدانهم للهوام » .

« وأما طومان باي سلطانهم ، فما عرفنا هل هو مات أم بالحياة ؛ وأطاعتنا بعون الله تعالى جميع العربان ، والمشايخ الأكابر بمصر وأعمالها ، والحمد لله الذي هدانا لهذا ، والمسئول من الله سبحانه أن يكون عدوّنا دائماً مقهوراً ، وعسكرنا منصوراً ، والداعي بدوام دولتنا مسروراً ، إلى يوم النشور ، آمين يا معين » .

« وبعد هذه الفتوحات العظمى ، أردنا أن نعلم جميع رعايانا ، سكان ممالكنا الشريفة ، بذلك ، ليأخذوا حظوظهم من هذه البشرى ، ويبتهلوا إلى الله تعالى بالأدعية الصالحة بدوام دولتنا الشريفة ، ويدقّوا البشائر ويعلنوا التهاني ، ويرموا بالبارود في القلعة المنصورة ، ويعلموا بذلك أطراف البلاد ومقدّميها ، ليكونوا مسرورين بهذه البشرى ، وكتب في أوائل المحرم ، بمنزلة جزيرة بولاق ، انتهى » .

السلطان سليم في القلعة وتنظيماته :

وفي يوم الخميس العشرين من الشهر المحرم ، نودي في الصليبة وقناطر السباع ، بأن على أصحاب الأملاك التي في الصليبة وجامع ابن طولون إخلاء بيوتهم فإن السلطان سليم ذاهب إلى القلعة ليقيم بها ، وتكررت المناداة في كل يوم بذلك المعنى ، فخرج الناس من بيوتهم التي احتلها العثامنة وسكنوا فيها ، وطلع السلطان سليم إلى القلعة بموكب حفل من عسكره ونودي للناس بالأمان . وأخذ بإجراء تقييم جديد للتنظيمات الإدارية للبلاد فعيَّن الشرفي يونس الاستادار متحدثاً عن البلاد الشرقية ليمسح البلاد ويكشف ما فيها من إقطاعات المماليك الجراكسة وغير ذلك من الرزق والأوقاف ، وقرر فخر الدين بن عوض وبركات أخا شرف الدين الصغير متحدثين في جهات الغربية . والزيني بركات بن موسى متحدثاً في المحلة وشرف الدين الصّغير وأبا البقا متحدثين في الجهات القبلية ، وأظهر الجميع الكثير من أنواع المظالم في حق الناس بسبب الإقطاعات والرزق .

كما أعاد السلطان سليم في الحادي عشر من صفر القضاة الأربعة ـ الذين كانوا في أسره بحلب وهم قاضي الشافعية كمال الدين الطويل ، وقاضي الحنفية محمود بن الشحنة ، والمالكية محيي الدين بن الدميري ، والحنبلية شهاب الدين الفتوحي ـ إلى وظائفهم كما كانوا سابقاً في مصر .

وخلال إقامته في القلعة احتجب عن الناس فلم يكن ينظر في المظالم ، بل كانت المظالم تحدث من وزرائه كل يوم وذلك من قتل ومصادرة لأموال الناس بغير حق . وقلت الغلال في القاهرة وفقد الخبز من الأسواق بسبب نهب العثمانيين للغلال وإطعامها لخيولهم . واستمر أذى العساكر فكانوا يخرجون في الصباح الباكر إلى القرى المجاورة ليأخذوا منها البرسيم والفول لخيولهم إلى جوانب مواشي الفلاحين وأوزهم ودجاجهم حتى خربت معظم قرى الشرقية وتعدى ذلك إلى خطف عمائم الناس . وتعريتهم في الأماكن المنعزلة ليلاً .

السلطان طومان باي ومراسلاته للخليفة وللسلطان سليم :

عندما هزم السلطان طومان باي في الصليبة هرب إلى البهنسا[٣٦٤] وأقام بها وأرسل قاضي بهنسا عبد السلام إلى الخليفة ليطلب له الأمان من السلطان سليم في الشهر المحرم من سنة ٩٢٣ هـ ،وفي الوقت نفسه بدأ يجمع فيه شتات الأمراء والمماليك والعربان ، واستطاع أن يحصل على زردخانة من نشاب وقسي وبارود ووصل الأمر إلى السلطان سليم فأخذ حذره منه .

وعاد طومان باي في صفر يكتب للمباشرين وأعيان الناس وحتى إلى الخليفة معاتباً بقوله لهم : « يا سبحان الله إن كنتم نسيتونا فنحن ما نسيناكم » . ثم أشيع بعد أيام أنه أرسل يقول للسلطان سليم : « إن كنت تروم أن أجعل الخطبة باسمك وأكون أنا نائباً عنك بمصر وأحمل لك خراج مصر حسبما يقع الاتفاق عليه بيننا من المال الذي أحمله إليك في كل سنة ، فارحل عن مصر أنت وعسكرك إلى الصالحية ، وصون دماء المسلمين بيننا ولا تدخل في خطية أهل مصر من كبار وصغار وشيوخ وصبيان ونساء ، وإن كنت ما ترضى بذلك فاخرج ولاقيني في برّ الجيزة ويعطي الله تعالى النصر لمن يشاء منا » .

وأشيع أن المطالعة التي أرسلها السلطان طومان باي إلى ابن عثمان ذكر في ذيلها : « ولا تحسب أني أرسلت أسألك في أمر الصلح عن عجز ، فإن معي ثلاثين أميراً ما بين مقدمين ألوف وأربعينات وعشرات ، ومعي من المماليك السلطانية والعربان نحو عشرين ألفاً ، وما أنا بعاجزٍ عن قتالك ولكن الصلح أصلح إلى صون دماء المسلمين » .

فلما وقف السلطان سليم على مطالعة السلطان طومان باي أرسل خلف أمير

(٣٦٤) البهنسا : بلدة في صعيد مصر جنوب القاهرة في محافظة المنيا تقع على بحر يوسف أحد فروع النيل . ولها تاريخ حافل في الفتوحات الإسلامية .

المؤمنين والقضاة الأربعة وأحضر جماعة من وزرائه وكتب بحضرتهم صورة حلف إلى السلطان طومان باي وكتب ابن عثمان خطه عليه . ووقع على ذلك الاتفاق بالقلعة بأن الخليفة والقضاة الأربعة يتوجهون إلى السلطان طومان باي بذلك الحلف على أيديهم . ثم إن ابن عثمان خلع على القضاة الأربعة قفطانات مخمل مذهبة وقال لهم : « انزلوا اعملوا يرقكم حتى تتوجهوا إلى طومان باي نحو الصعيد » ، فنزلوا من القلعة على ذلك ، ثم إن الخليفة امتنع من التوجه إلى طومان باي وقال أنا أرسل دواداري بردبك صحبة القضاة الأربعة .

ثم في عقيب ذلك توجه القضاة الأربعة وبردبك دَوَادار الخليفة مع قاصد ابن عثمان مصلح الدين مع جماعة من العثامنة ، فلما وصلوا إلى قريب البهنسا خرج عليهم جماعة من العربان والمماليك فقتلوا العثامنة وهرب بردبك بعد أن عرّوه وأخذوا ثيابه وما معه من قماش وغيره ، ونهبوا ما كان مع القضاة من البرك ، وما سلموا من القتل إلا بعد جهد كبير . فلما بلغ السلطان سليم ذلك اضطربت أحواله وتحقق أن السلطان طومان باي قد أبى من الصلح بعد أن أرسل يطلب الأمان ، ثم نقل وطاقه من الجزيرة الوسطى إلى بركة الحبش . وأمر في الثاني من ربيع الأول بإحضار بقية الأمراء المماليك الذين كانوا في القلعة بالترسيم وعددهم أربعة وخمسون أميراً ، وضرب أعناقهم جميعاً وذلك رداً على مقتل عساكره الذين رافقوا القضاة الأربعة إلى طومان باي .

معركة الجيزة والهزيمة الأخيرة لطومان باي :

في السادس من ربيع الأول عدّى السلطان سليم إلى برّ الجيزة لقتال طومان باي والتقى الجيشان في العاشر من الشهر المذكور وكانت معركة مهولة انكسر فيها العثمانيون غير ما مرة وألقى بهم المماليك في النيل وقتل منهم جماعة كثيرة ، وما لبث العثمانيون أن تكاثروا على المماليك وتدخل رماة البندق الرصاص

ووقعت الهزيمة على المماليك ، وولّى طومان باي هارباً مهزوماً ، وتوجه إلى بلـدة تدعى البوطـة الغربيـة . وقطع السلطـان سليم رؤوس المماليـك والعربـان الـذين كانوا مع السلطان طومان باي وحملت على مراكب وعلقت على أعـدة من الخشب ودار العثمانيين بها في القاهرة . وقيل إن عددها بلغ نحو ثمانمائة رأس بين ممـاليـك وعربان والذين قتلوا في المعركة وألقوا في النيل أكثر من ذلك .

نهاية السلطان طومان باي :

عندما توجه السلطان طومان باي بعد هزيمتـه إلى قريـة البوطـة الغربيـة ، لاقـاه مشـايـخ البحيرة حسن بن مرعي وابن أخيـه شكر ، وكان بينهما وبين السلطان صداقة قديمة ، فأركن لهما طومـان بـاي ونزل عنـدهمـا ، ثم أحضر إليهما مصحفاً شريفاً وحلفهما عليه بالوفاء وعدم الخيانة أو الإخبار عنه ، فحلفـا واطمأن السلطان طومان بـاي ، ثم مـا لبس ابن مرعي أن أحـاطـه بـالعربـان وأرسل إلى السلطـان سليم وأعلمه بذلك ، فأرسل إليه جماعة من عسكره قبضوا عليـه ووضعوه في الحديد وتوجهوا به إلى ابن عثمان . فلما مثل بين يديه ـ وكان قد تنكر بثيـاب العرب الهوَّارة ـ عاتبه ببعض الكلمات ، ثم أُخرج إلى خيمته محاطاً بـالحرس فـأقـام سبعـة عشر يـومـاً وصلت أثنـاءهـا أخبـار القبض عليـه إلى القـاهرة ، فـأنكرهـا الكثيرون ولم يصدقوها . ويبدو أن السلطان سليم عزم على إرسال طومان باي إلى مكة ثم بدا له إعدامه .

وفي يـوم الاثنين الثـاني والعشرين من ربيـع الأول أركب على فرس وهـو مكبل بالحديد بلباسه الذي أحضر فيه إلى السلطـان سليم ، وأمـامـه نحو أربعمائـة عثماني ورماة بـالنفـط ، وسير بـه في القـاهرة وهو يسلم على النـاس حتى وصل إلى باب زويلة ، فأُنزل من على الفرس وأرخوا له الحبال وحوله العساكر بـالسيوف ، فأيقن من إعدامه شنقاً فوقف على قدميه وقال للناس الذين حولـه : « اقرؤوا لي سورة الفاتحة ثلاث مرات » ، فبسط يده وقرأ سورة الفـاتحـة ثلاث مرات وقرأت

الناس معه ، ثم قال للمشاعلي اعمل شغلك . فلما وضعوا الخيَّة في رقبته ورفعوا الحبل انقطع به فسقط على عتبة باب زويلة ، وقيل انقطع به الحبل مرتين وهو يقع على الأرض ، ثم شنقوه وهو مكشوف الرأس . فصرخ الناس صرخة عظيمة ، وكثر عليه الحزن والأسف ، وبقي معلقاً على باب زويلة ثلاثة أيام . ثم أنزل ووضع في تابوت ودفن في الحوش الواقع خلف مدرسة عمه السلطان الغوري .

أعمال السلطان سليم في القاهرة :

أقام السلطان سليم في القاهرة مدة ثمانية أشهر إلا بضعة أيام ، ويقول ابن إياس : إنه لم يجلس خلالها بقلعة الجبل على سرير الملك جلوساً عاماً ، ولا رآه أحد ، ولا أنصف مظلوماً من ظالم في محاكمة بل كان مشغولاً بلذته وسكره ، ويحيل لوزرائه ما يختارونه ، ولم يكن يظهر إلا عند سفك دماء المماليك ، وما كان له أمان إذا أعطاه لأحد من الناس ، وليس له قول ولا فعل .

وقد أصاب مصر من جراء أعماله أضرار كبيرة انعكست عليها خلال القرون التالية ، وأصاب الناس مشقة وشدائد عظيمة :

فقد كثرت تعديات الوزراء والقواد والعساكر على الناس وأموالهم ، ومصادرة مساكنهم .

وعمد إلى فك رخام قاعات القلعة وبيوت القاهرة ومساكن الأمراء المماليك ونقله إلى استانبول . وجمع وزراؤه الكتب النفيسة من مدارس القاهرة .

وجمع البنائين والمهندسين والنجارين والحجارين والمرخمين وصناع الأسلحة وغيرهم من أبناء الحرف ـ مسلمين كانوا أو نصارى ـ إضافة إلى كبار الموظفين والكتاب والتجار وسيقوا جميعاً إلى الاسكندرية ، فوضع الرجال في الخانات ونساؤهم في الأبراج ، قيل إن عددهم بلغ ألفاً وثمانماية إنسان ، ثم جرى تسفيرهم إلى العاصمة استانبول ، وبطلت بذلك من القاهرة قرابة خمسين صنعة وسارت الصناعة نحو التقهقر .

وفي جمادى الأولى سنة ٩٢٣ هـ أخرج أمير المؤمنين الخليفة المتوكل على الله للسفر إلى استانبول وصحبته أولاد عمه أبو بكر وأحمد وصهره محمد بن العلائي ، وبذلك انتقلت الخلافة ولأول مرة في تاريخها إلى خارج الوطن العربي ، وفقدت مصر مركزها الديني إضافة إلى فقدانها مركزها السياسي والحضاري .

وجرى تثبيت ملكية العقارات في القاهرة وصودرت أثناءها عقارات المماليك وجميع العقارات التي لم يكن سكانها يملكون صك ملكية بها .

وفي جمادى الآخرة ٩٢٣ هـ حضر إلى القاهرة ابن السيد الشريف بركات أمير مكة لتهنئة السلطان سليم ، بانتصاره وملكه الجديد ومعه هدية حافلة ، وبقي حتى أوائل رجب قابل أثناءها السلطان وحصل منه على مراسيم بتثبيت والده بمكة وجعله المتصرف بأمورها والمسؤول عن الحسبة فيها .

وفي شعبان سنة ٩٢٣ هـ عزل السلطان يونس باشا من نيابة مصر ـ وكان قد عينه بها في ربيع الأول إثر إعدام طومان باي ـ وولاها لخاير بك .

سفر السلطان سليم من القاهرة :

استمر إلحاق الضرر بالناس حتى خروج السلطان سليم من القاهرة ، وعندما أزمع على السفر جمع عدداً كبيراً من السكان وربطهم بالحبال في رقابهم وسيقوا بالضرب على ظهورهم وذلك لسحب المكاحل النحاس (المدافع) من القلعة ووضعها في المراكب بالنيل لتسفيرها إلى استانبول .

وفي يوم الخميس ثالث عشرين من شعبان خرج السلطان سليم من بيت ابن السلطان قايتباي بموكب حفل يتقدمه خاير بك وجانبردي الغزالي ، وأمام العسكر طبلان وزمران وجنائب حربية ، وقد ركب على بغلة صفراء عالية ولبس قفطاناً أحمر ، وأمامه جماعة من وزرائه منهم يونس باشاه ، وجماعة كبيرة من العساكر ما بين مشاة وركاب ورماة نفط .

وعند وصوله إلى تربة الأشرف قايتباي[٣٦٥] وقف وقرأ الفاتحة ، ثم انتقل إلى وطاقه ببركة الحاج ، ولم ينزل به بل تابع سيره إلى الخانقاه السرياقوسية ، وكان خروجه فجأة لم يشعر به الناس .

وترك عند خاير بك من العساكر خمسة آلاف فارس ، ومن الرماة بالبندق الرصاص نحو خمسمائة رام ، وعين أميراً يدعى خير الدين باشاه نائباً للقلعة .

وأشيع أنه خرج من مصر وصحبته ألف جمل محملة ما بين ذهب وفضة ، عدا عما غنمه من التحف والسلاح والصيني والنحاس المكفت والخيول وغير ذلك ، حتى نقل منها الرخام الفاخر ومن كل شيء أحسنه . وغنم وزراؤه أموالاً جزيلة ، وكذلك عسكره .

السلطان سليم في دمشق :

وفي الحادي والعشرين من رمضان سنة ٩٢٣ هـ وصل السلطان سليم إلى دمشق ودخلها بأبهة حافلة ونزل بالميدان الأخضر بعد أن مرّ على جامع تنكز .

ولحق بدمشق وغوطتها أثناء إقامته أذى كبير على يد عساكر السلطان ، فقد فرض قدراً معلوماً من القمح على كل حي من أحياء المدينة ، وصادر العساكر المنازل ونزلوا بها بعد طرد سكانها ، ونبهوا فواكه الغوطة وأشجارها ، وارتفعت الأسعار وقلت المواد وفقد بعضها .

وأمر السلطان بتوسعة مسجد المحيوي بن العربي فاستملك ما حول المسجد من عقارات .

وفوض السلطان نيابة دمشق لجانبردي الغزالي في صفر سنة ٩٢٤ هـ على مال قدره مائتا ألف دينار وثلاثون ألفاً .

---

(٣٦٥) انظر موقوعها على المصور رقم ٥ .

وفي العاشر من صفر سنة ٩٢٤ هـ غادر السلطان مصطبة القابون متوجهاً إلى استانبول ولم يجتمع به أحد من علماء دمشق ولم يجلس للحكم أصلاً بل كان في غاية التحجب[٣٦٦].

(٣٦٦) القلائد الجوهرية في تاريخ الصالحية تحقيق الأستاذ دهمان ج ١.

ثورة جانبردي الغزالي

في سنة ٩٢٦ هـ وبينما كان السلطان سليم يتأهب لفتح جزيرة رودس مرض وتوفي وهو في سن الرابعة والخمسين بعد أن أمضى في السلطنة سبع سنوات ، وتولى ابنه سليمان القانوني .

وما إن وصل خبر وفاته إلى نائب دمشق جانبردي الغزالي حتى أعلن الثورة والعصيان وقد وردت أخبار هذه الثورة بشكل مفصل في كتاب « إعلام الورى بمن ولي نائباً من الأتراك بدمشق الشام الكبرى »[٣٦٧] لابن طولون وذلك ضمن حوادث سنة ٩٢٦ هـ ، وأثرنا نقلها كما وردت .

[بدء التمرد]

وفي يوم الأحد ثاني ذي القعدة سافر النائب إلى بيروت ليأخذ سلب إفرنج خرجوا من البحر وقتلهم أهلها . ويتفقد أبراج ذلك الثغر في السلاح .

وفي ليلة السبت خامس عشره عاد النائب إلى دمشق بغتة وشاع أنه عزل الأمير سنان الرومي[٣٦٨] عن بلاد البقاع وما انضاف إليها ، وولاها للمقدم أحمد بن الحنش لما وصل إليه أولاق[٣٦٩] بموت سلطان الروم سليم خان وتولية ولده سليمان .

---

(٣٦٧) الكتاب من تحقيق الأستاذ محمد أحمد دهمان ـ طبعة دار الفكر ص ٢٤٧ .

(٣٦٨) الرومي : أطلق ابن طولون في مؤلفاته على العثمانيين لقب الروم ، فأكثر من استعمال ملك الروم أو سلطان الروم على السلطان العثماني ، والأروام للدلالة على العثمانيين .

(٣٦٩) أولاق : اصطلاح عثماني بمعنى الرسول .

وفي ليلة الاثنين سابع عشره شرع النائب في حصار قلعة دمشق ، فعند ضحوة النهار الكبرى ملكها بالحيلة وقتل اثنين من الأروام[٣٦٨] ومسك أعيان الباقين ومعهم نائبها الرومي ونهب موجودهم ، ثم جهّز نائب القلعة المذكورة ومعه سنان إلى القدس منفيين . ولما دخل القلعة أظهر لبس الجراكسة من التخفيفات والكلوتات وأبطل لبس الأروام من العمائم والقطانات ، ثم رسم بابطال التكية والجامع[٣٧٠] اللتين أنشأهما السلطان سليم خان ، وأخذ جميع مالهما ، ثم ولى مدينة حماة لأحد جماعته المقرقع ومنع الخطباء في سائر الجوامع أن يخطبوا باسم السلطان سليمان . ثم جاء الخبر بأن المقرقع وهو ذاهب إلى حماة قتل الصوباشي[٣٧١] بمدينة حمص وجهز قاضيها الرومي إلى النائب وولاها للمقدم بن الحرفوش ، ثم جاء الخبر بأن المقرقع أخذ حماة من الأروام وهرب نائبها إلى حلب ، ثم جهز النائب دواداره الثاني إلى طرابلس فأخذها وهرب نائبها إلى حلب أيضاً ، وكان دخول نائب حماة الهارب إلى حلب نهار الأحد ثالث عشر ذي القعدة منها ، ودخول نائب طرابلس إلى حلب نهار الاثنين ثاني عشري ذي الحجة منها .

ثم جهز نائب دمشق لها وأعرض عليه شباب أهل الحارات بدمشق ، ثم جهز نائب صفد ونائب القدس بسنجقين إلى حلب ، وقد كان لهما ثلاثة أيام قد وصلا إلى دمشق ، ثم جهز دواداره الكبير أصلان ومعه مشدة بسنجقين إليهما أيضاً ، ومعهما عشرون مكحلة أعظمها ثلاثة سحبت من قلعة دمشق على عجل ثلاث .

[السير نحو حلب]

وفي يوم الأربعاء رابع عشر ذي الحجة منها سافر النائب من دمشق إلى أخذ

---

(٣٧٠) جامع وتكية الخنكار : جامع وتكية المحيوي بن العربي وعنهما تفاصيل واسعة في كتابنا القلائد الجوهرية في تاريخ الصالحية ١ / ١١٤ .

(٣٧١) الصوباشي : رئيس فرقة السباهية وهي فرقة الفرسان في الجيش العثماني .



صورة قلعة حلب

حلب من الأروام وخرج مخرجاً حافلاً ولكنه أكثر من البكاء وأوصى وأقام نائب غيبة دواداره الثالث قضا بردي ، ونائب القلعة العمادي بن الأكرم .

وهذا ما كان من نائب الشام جان بردي الغزالي .

وأما ما كان من نائب حلب قرا باشا ، فإنه لما بلغه موت سلطان الروم سليم خان كان نازلاً بعسكره في حيلان فرجع إلى حلب يوم الجمعة سابع ذي القعدة منها ، ثم في يوم الجمعة رابع عشره صلوا صلاة الغائبة على السلطان سليم وخطبوا باسم ولده السلطان سليمان ، ثم شرع في تحصين قلعة حلب ، ثم في تحصين حلب ، وكل من كان خارج أبوابها دخل إلى المدينة ، وسد باب قنسرين وباب المقام وباب النعمة وبقية أبوابها بالحجر والكلس ، واستخدم خلقاً كل إنسان بثلاثمائة درهم ، وأنفق عليهم من مال السلطان شهرين ، وأعطى الإنكشارية كل واحد ألفين ، والأصبهانية[٣٧٢] كل واحد زيادة على الجامكية .

وفي يوم الجمعة ثاني عشر ذي الحجة منها خرج من حلب إلى قرية سرمين وقرية داريخ[٣٧٣] ونهبهما ، وأخذ البقر والمعز وجميع دوابها وفسق وقتل لقتلهم القضاة والحكام العثمانية الذين عندهم ، ثم عاد إلى حلب فخرج إليه في الطريق أمير سنجق من جهة نائب الشام الغزالي فأخذ منه جميع المكسب وقتل منه جماعة وجهز رؤوسهم إلى دمشق ، ودخل نائب حلب إليها مكسوراً .

[حصار حلب]

وفي يوم الثلاثاء ثالث عشري ذي الحجة منها وصل أول عسكر الغزالي إلى الأنصاري ، وخرج إليه عسكر حلب فوقع الشلش في القتال وترجح جانب عسكر الغزالي .

---

(٣٧٢) الأصبهانية : فرقة من الجنود المأجورين في الجيش العثماني تقابل في عصرنا المرتزقة .

(٣٧٣) داريخ كذا في الأصل والصحيح داديخ .

ثم في يوم رابع عشريـه زحفوا إلى الميـدان ، وفي يـوم خـامس عشريـه داروا على أبواب المدينـة ، ثم في يوم سـابع عشريـه وقع الحصـار على بـاب المقـام وقتل بنـدقـاني بنشـاب من عسكر ابن الحنش ، وكان أول من قتـل في الحصـار من العثمانية .

ثم في يوم التاسع والعشرين منه ركّبوا على هذا الباب مكحلـة ثقيلـة وعـدة صغاراً ورموا عليه فلم يفد شيئاً ووصل بعض حجارتهم إلى عند باب القلعـة فوزن فإذا هو أربعة أرطال .

ثم في يوم الثلاثين منـه اشتـد الحصـار مع زيـادة الأسهم الخطـائيـة(٣٧٤) حتى وصلت إلى الخندق ، وكلما خرب من الصور شيء عمر ليلاً .

ثم في يوم الخميس ثاني محرم سنة سبع وعشرين وتسعمايـة قطع عسكر الغزالي قناة الماء التي تدخل إلى حلب فتضرر أهلها في الجوامع والحماميم وغيرها .

وفي هـذا اليوم عمـل نـائب حلب حيلـة لكشف عسكر الغـزالي ، فطلـع إلى مكان عال في قلعة الشريف وأخرج من باب قنسرين أميراً شجـاعـاً معـه أربعون خيالاً ساقت على جماعـة من مشـاة الغزالي فقتلوا اثنين وهرب البـاقون . وقـاموا ألبسـوا مــافي عسكرهم ، فـزعـق نفيرهم وكانـوا متفرقين في الحـارات والبيـوت

(٣٧٤) الأسهم الخطـائيـة : هي سهـام تعلق في رؤوسهـا مواد متفجرة محرقـة تمـاثل في عصرنـا قنبلـة البـازوكا والظـاهر أن استعمالهـا هو مبـدأ استعمال البـارود ، وانظر ابن فضل الله العمري حين يصفها فيقول : ولا يفرق الأعـداء ويحرقهم إلا رعـدهـا المجلجل وبرقهـا (التعريف بـالمصطلح الشريف ٢٠٨) ، والخطـا جيل من الترك القريبين من الصين ، ومن هنـا جـاءت فكرة أخذ العرب استعمال البارود عن الصين ، ويطلق اسم مساكن الخطا على القسم الشمالي من الصين في منغوليا وشرقي تركستان الصينية وكانت الخطائيـة من جملـة المماليـك المشتروات ، ففي النجوم الزاهرة (٦ / ٣٢٠) سنة ٦٣٨ هـ : أن الملـك الصـالح نجم الـدين أيوب أقبل على شراء الترك والخطائية .

والغزالي ..... فلما سمعوا نفيرهم ماجوا وظنوا أنهم كبسوا ، ثم ركبوا وجاؤوا إلى باب قنسرين وكان أعد لهم عسكر حلب مدافع وكفيات وبندقيات فرموهم فانقلبوا هاربين .

وفي يوم الثلاثاء سابعه سد باب قنسرين المذكور ، وكان فتح باب مانقوسا وباب النصر فغلقا بلا سد والباقي مسدود ، ثم نادى منادي من جهة الغزالي تحت الأسوار : « يا أهل حلب لا تتفرجوا فوق الأسوار وقت القتال ، وإذا قتل منكم أحد خطيئته في رقبته » . ثم رمى بمكاحل إلى المدينة فوزن بعض أحجارها فبلغ أحد عشر رطلاً حلبياً وبعضها سبعة ونصف وبعضها ثلاث أواق ، ثم نصب سلماً على الصور ورام جماعته الطلوع فيه فرموا عليهم من فوق فانكسر السلم وهربوا فجاؤوا بالسلم وأروه لنائب حلب .

[فك الحصار ورحيل الغزالي]

ثم في يوم تاسوعاء وقت الظهر رحل الغزالي عن حلب بعساكره من غير قتال ورجعوا من المكان الذي أتوا منه ، وفرح أهل حلب فرحاً عظيماً لما كانوا فيه من الشدة ، ووصل الرطل الخبز إلى خمسة ، والرطل اللحم إلى ستة وعشرين والرطل الحطب إلى درهمين والرز إلى أوقية بدرهم ، والسمن إلى أوقية بثلاثة ، والزيت إلى أوقية بدرهمين ، وكل بيضة مقلية بدرهم ، وكل رطل حمص مسلوق بأربعة ، وكل وقية دبس بدرهم .

ثم في اليوم الحادي عشر منه ردوا قناة الماء إلى البلد ، وخرج الناس إلى بيوتهم فوجدوا أبوابها أخذت وكسرت وشبابيكها جهزت إلى دمشق ، وطمائرهم نبشت فافتقر خلق كثير .

ثم قدم أولاق وأخبر نائب حلب بأن الأمير علي بن سوار واصل اليوم ، فخرج إليه ومعه نائب طرابلس ونائب حماة ونائب حمص ونائب أنطاكية وجميع

العساكر التي بحلب ولاقوه ، فدخل بثلاثة صناجق ، واحد له وآخر عن يمينه لولده الأكبر وآخر عن يساره لولده الأصغر ، ونزل عند سيدي سعد ، وأهدى له قاضي القضاة بحلب هدية عظيمة ، وشاع أن السلطان سليم كان ولاّه حلب وما عزله من الشام ، والظاهر عزله عنها بالشرفي بن المفلح .

ثم في اليوم الخامس عشر منه توجّه الأمير علي باك وولداه قِبَلَ الشام ، وقد كان يوم برد وثلج وهو خامس عشر مربعينيات الشتاء ، وصحبته نائب حماة ثم نائب طرابلس ، ثم في يوم سابع عشر منه دخل إلى حلب أولاق من نائب مصر خير بك وأخبر عنه أنه جهز من مصر عسكراً للغزالي ، وكان في غزة حاكم من جهة الغزالي فقتلوه وهم منتظرون عسكر الروم حتى يلاقوه ، وقد كان الغزالي أرسل إليه ليطاوعه فأبى ، فهذا سبب رحيل الغزالي عن حلب مع وصول العساكر من السوارية إليه ثم العساكر العثمانية .

ثم إن الأمير علي باك ومن معه وصلوا إلى سراقب وأقاموا بها ثلاثة أيام ، فأخبروا أن الغزالي بحماة ، فرجع الأمير علي باك إلى بلاد سرمين ونائب حماة ونائب طرابلس إلى حلب إلى أن يصل باش العساكر فرحات باشا .

وفي ليلة الخميس سابع صفر منها عاد نائب طرابلس منها إلى دمشق وكان من قبل الغزالي وتحقق عدم أخذ قلعتها فاراً من الأروام .

وفي يوم الجمعة ثامنه عاد النائب الغزالي بنفسه إلى دمشق أيضاً فاراً منهم والله يحسن العاقبة .

وفي يوم الأثنين حادي عشره أعاد النائب الجامع الخنكاري عند ابن العربي ولم يعد التكية ، ثم شرع في تحصين قلعة دمشق بسد حيطان وفك أخرى وحرق بعض الأسواق ، ثم عرض عليه الشباب من سائر الحارات الدمشقية بالمرجة ،

وقال : لا تقاتلوا الأروام لأجلي بل قاتلوهم خوفاً على حريمكم ، ثم أحضرهم عند قاضي البلد الشرفي بن المفلح بالجامع الأموي ، وحلفهم على القيام معه على الأروام .

[سلطنة الغزالي]

وفي يوم الجمعة ثاني عشريه خطب بالجامع الأموي للنائب وهو حاضر بمقصورته بأنه سلطان الحرمين الشريفين ولقب بالأشرف وخرج من الجامع في موكب حافل .

[نهاية الغزالي]

وفي يوم الثلاثاء سادس عشريه خرج السلطان جان بردي الغزالي إلى ملاقاة العسكر الرومي الواصل إلى المصطبة السلطانية عند القابون الفوقاني ، فلما كان وقت الظهر تلاقى أوائل العسكرين عند قرية الدوير ، ثم تواصل العسكر الرومي وشاليشه الأمير محمد بن قرقاش ، فركب السلطان من المصطبة ببقية عسكره وتلقاه بأرض النور شرقي قرية برزه[٣٧٥] من ضواحي دمشق ، فما كان إلا لحظة وانكسر عسكر السلطان جان بردي الغزالي وقطع رأسه ، ثم تلاحق العسكر الرومي ببقية الهاربين ، وارتجف الناس رجفة عظيمة ، وقتل نحو الثلاثة آلاف نفس وستين ، ونهبت الحارات والقرى حول دمشق ، وأخذ بعض نساء وأولاد .

وفي يوم الأربعاء سابع عشريه ركب الباشا فرحات إلى دمشق ومعه قاضي القضاة الولوي الفرفوري الذي كان هرب من الغزالي إلى حلب فولي قضاها ، فصعدا إلى قلعتها وتسلماها من نائبها العماد بن الأكرم وأخذاه معهما من غير ترسيم

---

(٣٧٥) برزة : قرية شمالي مدينة دمشق في آخر جبل قاسيون من جهة الشرق تبعد عن دمشق ٧ كم .

عليه ، ثم وضعا فيها صوباشاً ، وكذا في كل حارة من حارات دمشق ، فكف العسكر بعض الكف ، ثم جهز رأس الغزالي إلى الخنكار ومعه نحو ألف أذن من المقتولين .

وفي يوم السبت مستهل ربيع الأول نزل الباشا إلى دمشق ونزل بدار السعادة ، وشرع العسكر ينزل في البيوت وتضرر الناس وصار حاكم دمشق .

الفهارس

فهارس الأعلام

أ

خ

د

ر

ز

س

ش

ص

ط

ع

ك

فهرس الأماكن

أ

ت

ث

ج

غ

ف

ق

ن

هـ

و

ي

فهرس الكتب

فهارس الموضوعات

من أعمال الأستاذ محمد أحمد دهمان

التأليف :

ولاة دمشق في عهد المماليك

في رحاب دمشق

دراسات في الثقافة الإسلامية

تاريخ الدول الإسلامية (تعليق ونشر)

التحقيق :

١ ـ النشر في القراءات العشر لابن الجزري .

٢ ـ سنن الدارمي .

٣ ـ البدع والنهي عنها لمحمد بن وضاح القرطبي .

٤ ـ المقنع في مرسوم مصاحف أهل الأمصار مع كتاب النقط للداني .

٥ ـ المروج السندسية الفسيحة في تاريخ الصالحية لابن كنان .

٦ ـ القلائد الجوهرية في تاريخ الصالحية لابن طولون .

٧ ـ تاريخ مدينة دمشق لابن عساكر : المجلدة العاشرة .

٨ ـ إعلام الورى بمن ولي نائباً من الأتراك بدمشق الشام الكبرى لابن طولون .

٩ ـ إنباء الغمر بأنباء العمر لابن حجر العسقلاني .

١٠ ـ علم الساعات والعمل بها لرضوان بن محمد الساعاتي .

تم طبع هذا الكتاب بتاريخ ١٩٨٦/٢/١م

عدد النسخ (١٥٠٠)

يؤرخ هذا الكتاب لبلاد الشام ومصر خلال مـدة تزيـد عن نصف قرن تبدأ من سنة ٨٧٥ هـ وحتى نهاية الحكم المملوكي وبدء الحكم العثماني . بدأ برحلة الأمير يَشْبَك الـدوادار التي ألفهـا محمود بن أجـا الحلبي قـاضي العسكر في الحملة التي قضت على ثورة شاه سوار في الأمـارة الـدلغـادريـة على التخوم الشماليـة لبـلاد الشـام ، وقـد أجهضت هـذه الثـورة الـدولـة المملوكية وأظهرت ضعفها فطمع بها جيرانها ، ومهد ذلـك للقضـاء عليهـا من قبل السلطان سليم الأول العثماني .

قـدم لنـا الكتـاب سرداً كاملاً للحـوادث التي جرت في هـذه المـدة محللاً بـأسلوب شيق جميع الأسبـاب التي أدت إلى زوال الحكم المملوكي مـع وصف فريـد للمعـارك التي جرت بين المماليـك والعثمـانيين نقلاً عن أشهر المؤرخين المعاصرين لها .